الجمعية المصرية للدراسات التاريخية



مصطفى كامل



الجمعية المصرية للدراسات التاريخية

مصطفى كامل

بحوث ألقيت فى الندوة التى عقدتها
الجمعية المصرية للدراسات التاريخية
بمناسبة مرور مائة عام على مولده
١٨٧٤ - ١٩٧٤

القاهرة ١٩٧٦

المراسلات باسم

الأستاذ الدكتور أحمد عزت عبد الكريم

رئيس الجمعية المصرية للدراسات التاريخية

٢ شارع ناصر الدين المتفرع من شارع عبدالسلام عارف (البستان سابقاً)
القاهرة تليفون ٩٧١٩٧٢

المحتويات

تقـــديم

للاستاذ الدكتور احمد عزت عبد الـكريم

رئيس الجمعية المصرية للدراسات التاريخية

فى تاريخ الحركة الوطنية المصرية صفحات مشرقة ، لعـل من أكثرها إشراقاً تلك الصفحة التى خطها كفاح الزعيم المصرى الشاب «مصطفى كامل» الذى عمل فى ظروف بالغة الصعوبة .

فالاحتلال العسكرى البريطانى ، ولم يمض عليه إلا سنوات معدودة ، يرسخ أقدامه يوماً بعد آخر ، وحكومة البلاد دائبة الخضوع لإرادة المحتل ، وقوى المقـاومة الوطنية تـكاد تنزوى من الميدان ، ونفوس المصريين حيرى لا تـكاد تستبين طريقها ، وبقدر هذه الصعوبات التى واجهها مصطفى كان نجاحه فى بعث الروح الوطنية ورسم الطريق للمصريين فى كفاحهم من أجل حياة حرة كريمة .

وهـذا الـكتاب الذى يسعدنا أن نقدمه اليوم لجمهور القارئين يتضمن وصفاً تحليلياً لـكفاح الزعيم الشاب ، بقلم نخبة من الأساتذة دعتهم الجمعية المصرية للدراسات التاريخية إلى ندوة عقدتها بين يومى ١٦ ، ٢١ نوفمبر سنة ١٩٧٤ فتناول كل منهم جانباً من الحركة الوطنية المصرية التى قادها مصطفى كامل .

ويضم هذا الـكتاب ثمانية بحوث ألقيت فى الندوة .

وكنا نود لو تضمن الكتاب كل البحوث التى ألقيت ولكن ثلاثة من زملائنا الباحثين اكتفوا بإلقاء بحوثهم ولم يقدموها للنشر ، فالأستاذة الدكتورة حكمت أبو زيد حاضرت فى موضوع المجتمع المصرى فى أيام مصطفى كامل ، والدكتور جمال المسدى حاضر فى موضوع مصطفى كامل وحادث دنشواى ، وتناول الأستاذ صبرى أبو المجد فى حديثه موضوع مصطفى كامل والصحافة .

ولعل حرصنا على أن يستكمل الكتاب كل الموضوعات التى ألقيت فى الندوة كان من العوامل التى أخرت ظهور الكتاب .

وعلى الله قصد السبيل ؟

٨ مايو ١٩٧٦

أحمد عزت عبد الكريم

كلمة

الأستاذ يوسف السباعى

وزير الثقافة

أيها الإخوة والأخوات :

يسعدنى أن ألتقى الليلة بكم ، فأنتم مؤرخونا ، ومؤرخونا هم ذاكرة بلادنا . وكما أنه لاشخصية لفرد بلا ذاكرة فكذلك لاشخصية لشعب بلا تاريخ .

ولقد سبق أن سعدت بمشاركتكم فى أكثر من ندوة من خلال نشاط لجنة التاريخ بالمجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية لهذا لايسعنى إلا أن أنوه بحرص السادة أعضاء الجمعية المصرية للدراسات التاريخية على احتفالاتهم المتواصلة بعظمائنا الذين صنعوا تاريخنا ومؤرخينا الذين سجلوا هذا التاريخ على مدى مئات السنين حتى يظلوا جزءاً لايتجزأ من وجداننا المعاصر ، وذلك بالقاء الضوء على جوانب عظمتهم والكشف عما قاموا به من جهود فى سبيل استمرار الشخصية المصرية حية يقظة تستفيد من دروس الماضى فى خطوها نحو مستقبل أفضل .

ولاشك أنكم تحتفلون الليلة بانقضاء مائة عام على مولد الزعيم الوطنى مصطفى كامل لما فى هذا الاحتفال من دلالات فالحاضر ليس مقطوع الصلة بالماضى وما أكثر الدروس التى يلقيها علينا كفاح مصطفى كامل والتى يمكن أن نسترشد بها فى كفاحنا الوطنى اليوم .

فمصطفى كامل هو الذى نفخ فى الأمة روح الكفاح فى وقت ظن فيه الكثيرون أنها استسلمت لغاصبيها فأعاد إليها الثقة بنفسها مما يذكرنا بما فعله قائدنا الرئيس أنور السادات فى السادس من أكتوبر بعد سنوات النكسة المريرة ، كما أنه أول من فطن إلى ضرورة الانطلاق بالقضية الوطنية إلى المنابر العالمية فلا تظل محصورة فى نطاقها المحلى نفهمها نحن ولا يفهمها العالم الخارجى ولا يتعاطف معنا فنصبح — ونحن الضحايا — جناة نستحق مزيداً من العقاب بدلا مما نتطلع إليه من إنصاف ، بل إنه استخدم فى سبيل ذلك — نفس ما نستخدمه اليوم — من تبصير العالم بأن من مصلحته ومصلحة السلام حل قضيتنا والحصول على حقوقنا المغتصبة . كما أنه عرف طيلة كفاحه كيف يخاطب عدوه القوى الذكى بلغة هادئة تستند إلى العقل والمنطق فيملك نفسه عند الدفاع عن القضية التى تهمه ويزن كل كلمة تخرج من فمه .

ولم يكن مصطفى كامل أحادى النظرة ، لأنه كان يدرك بثاقب نظره وعمق تفكيره أن تعاطف العالم مع قضيتنا لا أهمية له مالم نبـــدأ نحن بأنفسنا فى نطاق جبهتنا الداخلية ، فكان أكبر داعية إلى تعليم أبناء الشعب تعليم إلزامياً كما تبنى إنشاء أول جامعة فى بلادنا ، فالشعب الجاهل يظل فقيراً مريضاً لايخشاه المستعمر ولايفكر أن يجلو عن أرضه ، وهو نفس مافعلناه على مستوى الجيش خلال معارك أكتوبر المجيدة حين أخذنا بأحدث الأساليب العلمية وجعلنا مثقفينا العمود الفقرى لقواتنا المحاربة فاستطعنا أن نحرز أول نصر حقيقى لنا فى معاركنا المتصلة مع العدو الصهيونى . كما دعا مصطفى كامل إلى الوحدة الوطنية ونفى ماوجه إليه من اتهامات مغرضة بأن دعوته تتضمن أية تفرقة طائفية ، وما أشبه الليلة بالبارحة حين نستمع إليه يقول : إن الدين والوطنية توأمان متلازمان ، وأن الرجل الذى يتمكن الدين من فؤاده يحب وطنه حباً صادقاً ويفديه بروحه وماتملك يداه . وهو الذى دعا أفراد الشعب إلى أن يعينوا الحكومة فى عملها بدلا من أن يلقوا

عليها عبء خدمتهم فى كل شىء . كما طالب للفلاح بحياة اجتماعية تليق بآدميته وكان خير نصير للمرأة المصرية ومدافع عن حقوقها وندد بالأنانيين الذين يهتمون بمصالحهم الخاصة على حساب الصالح العام الذى تنادى به الوطنية الحقة . كما تنبه — فى هذه الفترة المبكرة — إلى أهمية التوسع فى الصناعة معلناً أنه الأساس المتين الذى سيقوم عليه مستقبل وادى النيل . كذلك قاوم محاولات المحتل الانجليزى للقضاء على قوميتنا بالقضاء على لغتنا . وعندما هاجمته الصحافة الانجليزية بأنه يريد الاحتلال التركى مكان الاحتلال الانجليزى أعلن أن مصر للمصريين وإن كان يقبل كل مساعدة شريفة من شأنها أن توصلنا إلى تحقيق واجبنا نحو تحرير بلادنا .

لهذا كله لا عجب أن يجىء فى وقته احتفالكم الليلة بهذا الزعيم الوطنى الذى سيظل اسمه ملازماً للوثبة التى وثبتها مصر فى أوائل هذا القرن ، والذى كان شعاره المشهور ألا حياة مع اليأس ولا يأس مع الحياة .

أرجو لكم كل توفيق فى هذه الندوة التاريخية الوطنية متوجهاً بالتحية إلى كل من شارك فيها ، وإلى كل من تفضل الليلة بالحضور .

كما أدعو الله أن يوفقنا جميعاً لما فيه خير هذا البلد بحكمة وشجاعة قائدنا الرئيس محمد أنور السادات .

والسلام عليكم ورحمة الله .

كلمة

الأستاذ الدكتور أحمد عزت عبد الكريم
رئيس الجمعية المصرية للدراسات التاريخية

عندما وقع الإحتلال الإنجليزى لمصر فى عام ١٨٨٢ كان مصطفى كامل قد بلغ الثامنة من عمره ، وبذلك كان فى سن تمكنه من تمييز الأشياء والأحداث، ولا شك أن ذاكرته قد وعت الأحداث الخطيرة التى ألمت بمصر فى ذلك الوقت وأثرت فى نفسه كما أثرت فى ذلك الجيل من المصريين الذى كان يعيش آنذاك ، ثم جاء مصطفى إلى القاهرة عاصمة البلاد حيث تعج الحياة العامة باتجاهاتها المختلفة ، سياسية وثقافية واقتصادية ، وكلما شب أدرك مع الأيام خطورة ما حدث عام ١٨٨٢ ، فان الاحتلال كلما مضت السنون كان يزداد فى مصر قوة ورسوخاً . وبعد أن كان المسئولون من الساسة البريطانيين يعدون أهل مصر بجلاء مرتقب ، أخذوا يتعللون بأسباب مختلفة للحنث بوعودهم حتى راحوا يؤكدون للمصريين أن الاحتلال باق وأنه ينبغى أن يرتبوا أمورهم على أساس هذه الحقيقة .

فى هذه الأثناء كان مصطفى قد أكمل تعليمه الثانوى ثم دخل مدرسة الحقوق الخديوية ثم أزمع دراسة القانون بفرنسا فى باريس أولا ثم فى تولوز فنال من جامعتها درجة الليسانس فى القانون (١٨٩٤) .

وفى تلك السنوات القليلة التى أمضاها مصطفى كامل فى هذه المدينة من مدن فرنسا أخذ يطلع على أحوال هذه البلاد ، أحوالها الثقافية وأحوالها السياسية ، وبدأ وهو فى هذه السن المبكرة يتصل ببعض رجال السياسة والأدب. ثم عاد إلى مصر وهنا نجد مصطفى لا يتجه — شأن الشباب فى تلك الأيام إلى

مناصب الحكومة حيث كان يجد فيها لاشك مجالا متسعاً لعلمه بل إنه لم يتجه إلى ممارسة المحاماة وهي المهنة التي يستطيع أن يزاولها وأن ينال منها كسباً وفيراً ، ولكنه من البداية ، وكان ذلك في نحو ١٨٩٥ كان قد نذر نفسه لقضية أخطر من أية قضية يقف فيها منافحاً عن العدالة وهي قضية الوطن كله .

عاش مصطفى ومات يدافع عن قضية مصر ، ويدعو إليها في مصر وفي المحافل الدولية ويكتب ويخطب ويراسل ، وعلى الرغم من أن حياته كانت قصيرة - إذ أنه انتقل إلى الرفيق الأعلى وهو في الرابعة والثلاثين من عمره — ولكن هذه الحياة القصيرة كانت عريضة أوسع ما يكون العرض ففي هذه السنوات القليلة صنع مصطفى لأمته ما لا يستطيع فرد واحد أن يصنعه في زمن طويل .

وعندما نريد أن نقدر الجهد الخارق الذي بذله مصطفى ، وناء به في مقتبل العمر وهو لا يزال شاباً ، ينبغي أن نلقي نظرة على الموقف في مصر في ذلك الوقت ، وعلى الهدف الكبير الذي اتجه مصطفى إلى تحقيقه ، وعلى الوسائل التي اصطنعها لتحقيق هذا الهدف .

كان الإحتلال البريطاني — كما قلت — قد رسخ أقدامه في البلاد حتى أصبح الجميع من خديو البلاد إلى ناظر النظار أو النظار إلى كبار الموظفين إلى جميع المتصدرين للشئون العامة لا يكادون يستطيعون أن يبرموا أمراً إلا بموافقة عميد الإحتلال في مصر في ذلك الوقت وهو اللورد كرومر .

حقيقة أن الحركة الوطنية في مصر لم تمت بانتهاء الثورة العرابية — كما يحاول بعض المؤرخين أن يصوروا الموقف - إن الحركة الوطنية لم تمت ، ومن المبالغة أن نقول أن مصطفى أحيا الأمة المصرية بعد موتها ، لأن هذا لا يتفق مع طبيعة الأشياء . فالحركة الوطنية كانت قائمة قبل الثورة العرابية

بعدة طويلة ، نستطيع أن نتتبعها منذ قاوم المصريون فى القاهرة وفى الأقاليم التسلط العثمانى المملوكى فى القرن الثامن عشر ، ثم قوات الحملة الفرنسية بقيادة نابليون بونابرت ثم خلفائه من بعده فى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر .

حقيقة أن المصريين فى مقاومتهم الحملة الفرنسية كانوا إلى جانب الروح الوطنية مندفعين بواجب الولاء والتمسك بدينهم ، ولكن فى نفس الوقت لايمكن الفصل بين الدين والقومية . فتمسك القوم بدينهم يعنى تمسكهم بقوميتهم بأرضهم بأعراضهم ، بكل مقومات حياتهم . ثم جاء عصر محمد على فرأينا مفكراً كبيراً مثل رفاعة رافع الطهطاوى يتحدث عن مصر والمصريين، يتحدث عن الوطنية المصرية ، بل يؤلف نشيداً وطنياً يشيد فيه بمفاخر مصر ، وبما استطاع الجندى المصرى أن يحققه من انتصارات عسكرية على الجند العثمانيين ، وكانت لهم حتى ذلك الوقت شهرة ذائعة فى فنون الحرب والقتال. ثم كانت محاولات التدخل الأجنبى المماثل فى النواحى السياسية والاقتصادية. وكان هذا التدخل حافزاً على نمو الحركة الوطنية ، حتى بدأنا نراها تنمو وتظهر بشكل واضح فى أواخر عهد الخديو إسماعيل ، ثم انفجرت الثورة العرابية ضد التدخل الأجنبى والحكم المطلق ، ولم تكن هزيمة التل الكبير ودخول القـــوات الإنجليزية القاهرة ، قيداً للحركة الوطنية على نحو ما يحاول بعض المؤرخين أن يصوروه ، بل على نحو مافهم بعض المصريين فى ذلك الوقت نفسه ، حتى أنهم كانوا يسمونها « هوجة عرابى » .

ولكن الواقع أن هذا الشعور الوطنى ظل قائماً فى بعض الصحف الوطنية ، بل وفى بعض المجالس التى أنشأتها حكومة الإحتلال كمجلس شورى القوانين والجمعية العمومية .

بعد سنوات قليلة من الإحتلال بدأنا نسمع أصواتاً ترتفع من هـذين

المجلسين على مافيهما من ضعف وقصور عن ضرورة تمثيل الأمة تمثيلا نيابياً صحيحاً ، بدأنا نستمع لأصوات فيها من الروح الوطنية الشىء الكثير ، أصوات ترفض أن يدفع المصريون جزءاً من ميزانيتهم نفقات لجيش الاحتلال، ويطالبون بأن يلغى هذا البند من ميزانية البلاد وكرروا هذا سنة بعد أخرى. بل بعد أقل من عامين من بدأ الاحتلال رأينا رئيساً للوزراء يرفض إلحاح الإنجليز عليه فى ضرورة الجلاء عن السودان وهو شريف باشا ، حتى أنه ليقدم استقالته ، ولا يرجعها كما يفعل الكثيرون لأسباب صحية وإنما يذكر الأسباب الحقيقية التى دعته إلى ذلك .

أود أن أقول إذن أن الحركة الوطنية فى مصر كانت موجودة ، وكانت كامنة ، وأن مصطفى كامل لم يكن له فضل بعثها بعد عمات ، ولكن كان له فضل الدعوة إليها وإيقاظها ، وبث الحماسة وإعادة الثقة والتطلع إلى المستقبل ومحاولة نشر الدعوة لها لا فى المدن وحدها بل فى الريف أيضا ، ثم نقل الدعوة إلى خارج مصر إلى المحافل الدولية ، وهذا هو الجديد حقا فى حركة مصطفى كامل .

وأدرك مصطفى كامل الدروس التى ينبغى عليه وعلى المصريين جميعا أن يعوها من الثورة العرابية ، أدرك أن من أهم أسباب الفشل تفكك الجبهة الوطنية حيث كان الخديو توفيق فى جانب والسلطان العثمانى صاحب السيادة على مصر فى جانب آخر والمصريون فى جانب ثالث . لهذا عمل مصطفى جهده على أن يشكل من الجميع جبهة وطنية صلبة يواجه بها الاحتلال . ومن هنا حرص مصطفى على توثيق صلته بالخديو عباس الذى تولى الحكم عام ١٨٩٢ . وكان سنه تقريباً يناهز سن مصطفى كامل . ولد الإثنين فى عام واحد ١٨٧٤ . ومن هنا كان الشباب والحماس يجمعان بينهما . ولكن كلا منهما كان ينظر إلى الموقف من زاويته . حقيقة لا أستطيع أن أنفى الروح الوطنية عند الخديو جملة . ولكن الخديو كان واقعاً تحت تأثير اعتبارات كثيرة لا يعرفها مصطفى ،

ولا شأن له بها ، فهو قد عزف عن المناصب ، وظل حريصاً على أن يكون طليقاً . والخديوى كان حريصا على مركزه على مسند الخديوية ، كما كانوا يقولون . ومن هنا كان لا يستطيع أن يتمشى مع مصطفى إلى النهاية . لهذا فان من يتتبع تاريخ الحركة الوطنية فى ذلك الوقت يراها فى مـــد وجزر بين الخديو ومصطفى ، فى ارتفاع وهبوط بين توثيق علاقات وفتور فى العلاقات نتيجة مقاومة الإحتلال للخديو عباس والضغط الذى يلقاه عباس من المعتمد البريطانى كرومر . فقد بدأ عباس بأن جرب أن يكون مستقلا فى سياسته ، ولكن بعد بضع أزمات أدرك أنه لن يقوى على ذلك ، ومن هنا أدرك مصطفى أن أمله فى الخديو ضعيف .

لا أقول أن الأمر انتهى إلى القطيعة بين الرجلين . فعلى الرغم من فتور العلاقات بينهما إلا أن كلا منهما كان حريصاً فى الوقت نفسه على أن لا يقطع الأمر ما بينه وبين صاحبه. فإذا حدث ما يدعو إلى شىء من التواد كانا يتوادان ثم بعد بضع سنوات بعد ١٩٠٦ عاد الخديو فأدرك أن المصلحة تدعوه إلى أن يعود للوفاق مع مصطفى كامل بعد أن أدرك أن كرومر لن يعطيه شيئاً . كان عباس يظن أن كرومر قد يكون مستعداً لأن يعطى للخديو قدراً من حرية العمل أو حرية الحركة الوطنية بزعامة مصطفى. ولكن كرومر لم يكن مستعداً لذلك ، فأدرك عباس أن الأفضل أن يعود إلى أحضان الحركة الوطنية أو على الأقل يعود ليلوح للاحتلال بمؤاخاته للحركة الوطنية من جديد .

أما السلطان فكان أيضاً من العناصر التى بدأ مصطفى حركته بأن عول على الاعتماد عليه . فالسلطان صاحب السيادة الشرعية على مصر ، وهذا فى حد ذاته سند للحركة الوطنية ، وسند لمصر وللمصريين ضد الإحتلال وقوات الإحتلال . ولكن السلطان عبد الحميد الثانى — لم يكن ممن يعول عليه . فالسلطان كان واقعا تحت أزمات كثيرة سواء فى الحكم الداخلى ، أزمات مالية أو يقظه الرجال الداعين إلى الحكم الدستورى فى شكل جمعيات

سرية أشهرها جمعية الإتحاد والترقى التى فجرت الثورة فى تركيا بعد ذلك ببضع سنوات ، أو أزمات خارجية وحروب فى مقدونيا ، حروب مع اليونان ، ثورة فى كريت ، فذابح الأرمن ، ومذابح اليونانيين ، والدعاية العنيفة التى تبث ضد السلطان وضد الدولة فى الدوائر الأجنبية تصور حركة التجمع الإسلامى على أنها حركة تعصب دينى ... إلخ ، كان السلطان يفكر أيضا فى استخدام الحركة الوطنية فى مصر لتقوية مركزه فيها هنا نراه فى بعض الأحيان يبدى عطفه على مصطفى كامل حتى منحه رتبة الباشوية . ولكن السلطان لم يستطع أن يفعل شيئا أكثر من ذلك .

فقد كانت انجلترا ماضية فى توكيد سلطانها وفى ترسيخ احتلالها ، وخاصة بعد أن استعادت بسواعد المصريين السودان عام ١٨٩٦ ، وبعد أن كشرت عن أنيابها لفرنسا فيما يعرف بحادث فاشوده ١٨٩٨ حين هددت بأن الأمر قد يصل إلى الحرب إذا لم تنسحب قوات الضابط الفرنسى مارشان من هذا الموقع على النيل الأبيض فى الجنوب ، فاضطرت فرنسا أن تصدر أوامرها إلى قائدها بالانسحاب فانسحب .

وبعد بضع سنوات كان الاتفاق الودى بين فرنسا وانجلترا سنة ١٩٠٤ الذى كان فى واقع الأمر تواطؤ بين الدولتين الاستعماريتين الكبيرتين على اقتسام مناطق النفوذ . وأدرك مصطفى أن الدول الأجنبية ـ وخاصة فرنسا ـ التى كان يعول عليها الآمال الكبار ، لم تعد تستطيع أن تقف إلى جانب الحركة الوطنية وإن كان ذلك لم يفت فى عضد مصطفى كامل . فإذا كانت فرنسا الدولة قد وقفت هذا الموقف فأمامه فرنسا الأمة يتجه إليها بخطاباته ورسائله ومقالاته فى صحفها ، إذ ظل مصطفى حريصا ومثابرا على أن يخاطب ضمير الأمة الفرنسية . ووجد فى شخص الأديبة الكاتبة الفرنسية مدام جوليت آدم ، وجد فيها النصير الكبير له ولمصر وللحركة الوطنية . ثم كان

الحادث المعروف بحادث دنشواى عام ١٩٠٦ ولا أود أن أطيل . فكثير منكم يعرفون بصورة عامة أو بصورة تفصيلية هذا الحادث ، وسيتناوله أحد زملائى المحاضرين . ولكنى أود أن أشير هنا إلى أن مصطفى قد استطاع أن يستغل هذا الحادث أقوى وأبرع استغلال ، بل أنه نقل المعركة إلى قلب لندن . ففى لندن نشر نداء خاطب فيه الأمة الإنجليزية عن طريق صلاته ببعض رجال الصحافة والسياسة والأدب مثل « ولفرد بلنت » والأديب الإيرلندى المشهور « برنارد شو » . استطاع أن يهز الضمير البريطانى حتى بدأت الأرض تميد من تحت كرومر — عميد الإحتلال البريطانى فى مصر — وقدمت أسئلة فى مجلس العموم البريطانى وبدأت المراسلات بين « جراى » وكرومر تتخذ طابع الخشونة والعنف . وفى النهاية أظهر وزير الخارجية البريطانية أنه لا يوافق على سياسة كرومر . فاضطر هذا إلى الإستقالة ، وكانت للاستقالة دوى كبير .

فى هذه الفترة كان الخديو قد عاد إلى مؤازرة مصطفى كامل ، وبمساعدة منه نشر مصطفى كامل إلى جانب صحيفة « اللـــواء » الصحيفة الفرنسية L'Etendard Egyptien. والصحيفة الانجليزية The Egyptian Standard (اللواء المصرى) . ولكن فى الوقت نفسه بدأت انجلترا تغير من أسلوب عملها فى مصر . أقول أسلوب العمل ولا أقول بدأت تغـــير من سياستها . فالسياسة البريطانية هى هى لم تتغير وإن اتخذت أسلوباً أقرب إلى الملاينة ، ملاينة الخديوى وإفساح شىء من المجال له ليحس فى الإدارة الداخلية ، وهى السياسة المعروفة بسياسة الوفاق .

ولكن القدر لم يمهل مصطفى كامل ، ففى عام ١٩٠٨ لفظ أنفاسه الأخيرة بعد أن أدى رسالته خير إداء ، حقا أن الحركة الوطنية من بعده أصيبت بشىء من النكسة بسبب تغيير الزعامة حتى اضطر خليفة

مصطفى كامل ، وهو محمد فريد ، إلى الهجرة والإقامة فى أوربا ، والكثيرون يرون أن هذا لم يكن من حسن السياسة فى شىء وكان الأجدر به أن يظل رغم الإرهاب والسجن على رأس الحركة الوطنية فى مصر ، فان الإرهاب والسجن هما الغذاء الذى يمد الحركة الوطنية بالحيوية والنماء .

هذه صورة عن زعامة مصطفى كامل للحركة الوطنية ، عن الهدف الكبير الذى صبت نفسه إليه ونذر نفسه لهذه الدعوة.. مصر للمصريين ، استقلال مصر . وإن كان كثيرون فى حياته أو بعد مماته قد فهموا أو ادعو أنهم يفهمون حركته على غير حقيقتها . فقالوا أنه كان يود إخراج الإنجليز من مصر ليعيدها إلى أحضان تركيا ، وليس هذا من الحقيقة فى شىء ، ولكن مصطفى كامل وهو رجل القانون كان يعرف أن مركز مصر الدولى فى ذلك الوقت كان مستمداً من معاهدة دولية قائمة هى معاهدة لندن ١٨٤٠ التى سوت المسألة المصرية بين محمد على والسلطان بمشاركة بل بإشراف الدول الأوربية الكبرى، وهى المعاهدة التى أكدت أن مصر جزء من الامبراطورية العثمانية وأن السلطان صاحب السيادة على مصر . والمشكلة الحقيقية ليست فى السيادة العثمانية فقد كانت مجرد سيادة إسمية على البلاد ولكن المشكلة الحقيقية وجود جيش الاحتلال الإنجليزى فى مصر . ولهذا كان هدف مصطفى كامل واضحا كل الوضوح بسيطا كل البساطة ، ليس فيه شىء من الإلتواء هو « الجلاء » إجلاء الإنجليز عن مصر . فاذا جلا الإنجليز عن مصر عادت مصر لتنظم أمورها مع الأطراف الأخرى فى ظل اتفاقية دولية وفى ظل سيادة غدت إسمية مما يسهل التخلص منها وتسوية أمورها مع السلطان ، ولكن فى نداءات مصطفى كامل وفى كتاباته وفى خطبه ، وفى كل فرصة كان ينتهزها كان يؤكد هذا القول : مصر للمصريين .ويؤكد أن هدفه استقلال مصر .

مصطفى كامل رائدا وطنيا

للاستاذ : فتحى رضوان

الريادة :

إذا كانت الريادة ، هى السبق إلى مواطن ، لم تضع الجماعة قدمها فيها . والتعرف على مواقع لم يجس الناس خلالها،مع مافى هذا السبق وذلك التعرف، من مخاطر مواجهة المجهول،ومصاعب تحبيب الناس فى الجديد ، فمصطفى كامل كان رائداً بمعنى كل حرف من هذه الكلمة .

فالريادة قوامها عناصر روحية ، مضنية لمن اختارته المقادير برسالتها . فهى لا تتحقق إلا لمن كان حظه عظيما من شجاعة القلب، ومن سعة الخيال، ومن قوة الإرادة ، ومن القدرة على التحمل ، والثبات على المبدأ ، مع جاذبية شخصية ، تغرى الناس ، بالسير وراءه ، وعدم النكوص عند مواجهة المصاعب ، وعدم اليأس ، عند توالى المصائب .

وأكثر رواد التاريخ الإنسانى واحد من اثنين : إما مبشر بالجديد ، ومؤمن به ، وواثق من الوصول إليه ،يستحث خطى الجماعة نحوه ،ويغريهم بالأمل فيه ، ويعدهم بخير النتائج عندما يتوج الكفاح بالنجاح . وهذا فرد عدته عبارة موحية ، وشخصية ملهمة وقدرة على الخطابة ، وبراعة فى والإيحاء ، وخيال مديد يمدصاحبه بالصور الآخذة باللب والرؤى الساحرة للوجدان .

أو فرد الهامه للجماعة ، صادر من عمله المنظم ، وقدرته فى ميدان التنفيذ، وعلى تجميع الناس ، وتنسيق صفوفهم ، ورسم الخطط ، وحشد الطاقات .

مع كلام قليل لا يتجاوز حاجة العمل ، وخيال لا يبعد كثيرا عن الواقع الملموس .

والطرازان قل أن يجتمعا فى شخص .

ولكنهما اجتمعا فى مصطفى كامل . فهو خطيب لايشق له غبار، وكاتب ليس له ند من أهل عصره ، ولا من الأجيال التى جاءت بعده ، فى الميدان الذى نذر له نفسه ، فهو منشىء أناشيد ، وصانع ألفاظ ، ومثير للخيال ، موقظ للأحلام ، وهازىء بالواقع ، وما يوحى به من تثبيط للهمم،ومتسام على الماديات ، كأنه قانع من دنياه ، بعالم يعيش فيه من صنعه هو ، يأبى النزول عنه أو الهبوط منه .

ولكنه فى الوقت نفسه رجل واقع وواضع سياسية ، ومنظم للأفراد، ومدبر للمال ، وحاسب لكل صغيرة من أطماع الناس وشهواتهم . وعيوبهم ونقائصهم ، أكبر حساب ، وقادر على خلب ألبابهم . وإثارة أوهامهم ، وجرهم من خطامهم إلى حيث يريد ويهوى .

وبعبارة أخرى ، مصطفى كامل، كان رجل خيال وفكر ، بقدر ما كان رجل تنفيذ وعمل .

وريادته لم تكن لذلك قاصرة على التبشير بالأفكار والترويج للعقائد ، وإنما كانت عملا يتفصد الجبين عرقا فى سبيل إنفاذه ، وبناء يشق من أجل إقامته وتشييده . فلما توفى وهو فى زهرة شبابه ، لم يكن تراثه مجموعة من الأفكار المثالية والأقوال الملهمة ، وإنما ترك نظاما يضم عدداً غير قليل من الأنصار يشمل الأغلبية الساحقة من شباب المدارس الثانوية والمدارس العليا، وطائفة غير قليلة من أصحاب المهن الحرة كالأطباء والمحامين والمدرسين،

كما كان اسمه ورسمه وأفكاره الرئيسية معروفة وذائعة بين عمال المدن وفلاحي القرى ، وكان الإعجاب به ، والثقة فيه عامة بين جميع طبقات الشعب ، وقد استطاع أن ينشىء آخر الأمر حزبا، جلس فى لجنته الإدارية كبار الأغنياء مع أبناء الطبقة المتوسطة ، والتقى فيه أعيان الأرياف ، بالبارزين من المحامين والأطباء فى القاهرة والاسكندرية ، كما تعاون فى نشاط هذا الحزب الشبان مع الكهول والشيوخ ، واشتغل بالسياسة بفضل هذا الحزب لأول مرة النابهون من الأقباط الذين كان يمثلهم المحاميان البارزان ويصا واصف ومرقس حنا .

فمصطفى كامل كان قائداً موهوبا للشخصيات الكبيرة ولجموع الجماهير ، وكان قادرا على أن يفرض القدر اللازم فى صفوف أتباعه من الانضباط والنظام ، كما كان قادراً أن يبعث فى القلوب الحب له والولاء لشخصه ، والتفانى فى خدمة مبادئه ، والحماسة لها ، والتعصب لأسلوبه ومنهجه .

ولم يكن ممكنا أن توجد حركة وطنية مصرية فى أعقاب كارثة الاحتلال البريطانى بغير شخصية زعيم يجمع هذه الصفات التى قل أن تتلاقى وتجتمع فى إنسان واحد ، ولأن مصطفى كامل كان هذا الزعيم ، فقد استطاع أن يقوم بمهمة الرائد .

الوطنية الشاملة :

والوطنية وإن كانت شعوراً طبيعياً بسيطاً يكاد يكون من فعل الغريزة التى تحمل الحيوان الأعجم على حب موطنه ، والتعلق به ، وكراهية تركه ، وبغض الذين يقتحمونه عليه ، إلا أنها قد تضيق ، حتى تصبح شعورا إقليميا ، لا يتجاوز البقعة التى يولد فيها الإنسان ، والتى يباشر فيها نشاطه ، وأن يقنع بأقل قدر من الحرية وأدنى نصيب من الحرية ، فى مزاولة حياته ، وتحصيل رزقه .

كما قد تضيق بحيث تقتصر على الجانب السياسي من حرية الوطن ، دون جوانب الحرية الاجتماعية . وقد تضيق الساحة التي تجرى فيها المعركة التي يشنها الوطنيون ضد عدو الوطن الغاصب ، فتقتصر على أرض الوطن وحده ، دون الساحة الدولية ، وبوسيلة واحدة دون غيرها من الوسائل .

ولكن مصطفى كامل وسع من آماد الحركة الوطنية ، في مصر ، وعمق من آفاقها ، وعدد في أسلحة قتالها ، واتخذ من كل مكان يتصل بمصر ميداناً لقتاله ضد الانجليز والمحتلين . فلم تكن أهداف الحركة الوطنية ، هي طرد الانجليز من مصر ، وإثارة البغض لهم في قلوب المصريين ، وتجييش عواطف السخط عليهم ، بل حرك إلى جانب عاطفة الكراهية والبغض ، أعمق الحب لمصر ، ولم تكن مصر ، التي نظم فيها أجمل قصائد الحب ، وأحلى أناشيد الهيام ، هي مصر الحاضر ، بل كانت مصر الماضي والحاضر والمستقبل ، مصر الفراعنة ومصر الإسلام ، ومصر الأقباط ، ومصر الحضارة ومصر العلوم والمعارف ، ومصر الصناعة والزراعة ، ومصر الدين .

وقد استحالت مصر عند مصطفى كامل إلى رسالة إنسانية ، وهي رسالة التوفيق بين الحضارات ، والتأليف بين الشعوب ، والتقريب بين الأديان .

وتغنى بأرضها ومائها ، وبحرها وسمائها ، وشطآنها وخلجانها ، وأشاد بطيبة أهلها ، ونبل شعبها ، وعظم موقعها ، وجلال آثارها ، وضخامة تاريخها ، وتفردها بين الدول والأمم ، بارتباطها بأديان السماء جميعا ، والتقاء القارات عندها ، واقتران أكبر الأسماء في التاريخ الانساني باسمها .

وقد حارب من أجلها في مصر ، كما حارب لها في أوربا ، وحارب من أجلها بالكتابة والخطابة والجريدة والكتاب ، وبعقد المؤتمرات ، والاتصال بالساسة ، وحشد النواب والشيوخ وبالتعرف على الأدباء والشعراء ، وبالتودد إلى ذوي النفوذ ، وإهداء الهدايا لهم ، ودعوتهم إلى مصر ، والتوسل

إلى المملوك والأمراء، وأصحاب السلطان والوزراء ، بأصدقائهم ومعارفهم، وبالتعرف على مصالحهم القومية ، ودراستها، ومحاولة التأثير عليهم بالضرب على وأتاوها .

ولم تكن وسيلة تحرير مصر ، هى فقط محاولة زحزحة الحاكم الأجنبى من مكانه ، واحراجه بالتنديد بأخطائه ، والتشهير بمظالمه، وتجميع الأعداء ضده ؛ بفضح أكاذيبه، بل كانت الدعوة إلى الدستور وإقامة حكم مصرى عادل ونظيف وذى كفاءه من أهدافه ووسائله ، كما كان نشر التعليم الحر ، وجعله حقا لكل مصرى من أمانيه وأحلامه ، كما كان إنشاء الصناعة المصرية ، والارتفاع بمقام الصانع ، وكفالة حقوقه ، غاية من غاياته ، وكان التنظيم والتخطيط ودراسة المشكلات ، والتفكير فى حلولها ، ودعوة العقول كافة للمشاركة فى البحث عن أسبابها ودواعيها أسلوبه المفضل . .

كما كان الترحيب بكل مصرى ناجح ، والإشادة بكل عمل قومى صالح والتذكير بماضى كل خادم لبلاده نافع ، جزء لايتجزأ من منهجه الثابت ، وخطته الدائمة .

جوهر ريادته :

فجوهر ريادة مصطفى كامل ، أنه سما بالوطنية المصرية ، إلى مرتبة العقيدة الشاملة فأصبحت مذهباً سياسياً ، ومنهجاً خلقياً ، وبرنامجاً إصلاحياً ، وأسلوباً فى الكفاح ، وخطة للعمل ، ودعوة للبناء والتجديد .

ولقد تناول مصطفى كامل الشعور الوطنى المصرى ، فنقاه من كل الشوائب ، ونفى عنه كل ما اختلط به واندس إليه بفعل سنين التدهور والخراب ، وعصور الاحتلال الأجنبى وانهيار الحكم المصرى ، فمصر عند مصطفى كامل هى البداية والنهاية ، والوسيلة والغاية ، والحرب من أجلها هى

التضحية فى سبيلها بالذات ، والمصرى يحالف لها ، ويخاصم لخيرها ، فإذا دعا للتحالف مع الدولة العلية ، والتمسك برابطة الولاء لها ، والخضوع الروحى لسلطانها ، فليس ذلك ذوبانا فى تركيا ، ولاتسليما بالتبعية لها ، ولاقبولا لحكم الأتراك للمصريين ، ولاسيادتهم على أرضها ، أو تصرفهم فى شئونهم إنما هو ولاء تسلم فى ظله حرية مصر واستقلالها من كل نقص أو حيف . وتقف فيه تركيا ومصر تدين تظللهما سلطة معنوية أكبر من كليهما وهى سلطة الخليفة المستمدة من دين الله وكتابه .

ولقد خمد الشعور المصرى بالوطنية خلال أربعة قرون بدأت من سنة ١٥١٧ حينما دخلت مصر كاحدى ولايات الدولة العليا ، فذابت فى محيط هذه الدولة، باعتبارها دولة الخلافة التى ينعدم فى ظلها شعور الشعوب المسلمة بذاتيتها فناء فى دولة الخلافة ونجاة من الشعوبية .

وفى هذه القرون الطويلة ، لم يكن أهل مصر ، مصريين وإنمـــا كانوا أولاد عرب ، أو كانوا الأهالى ، ولم تكن ولاد عرب ، تعنى أنهم ينتمون بالجنس والدم لهؤلاء العظماء الدين نشروا الدين الاسلامى ، وفتحوا الأمصار ، وأقاموا حضارة باذخة وشادوا سلطانا عظيما ، بل كانوا ولاد عرب ، إزاء الأتراك والشراكسة الذين لا يعرفون اللغة العربية ، ولايحترمون الناطقين بها . ولقد نجح الحكم العثمانى فى تجريد المصرى من كل مظهر من مظاهر السلطة ، وأبعده تماماً من الجيش ، وجعله أجيراً فى القرية ، وصانعا حقيراً فى المدينة . وحرم عليه الملكية الزراعية ، إلاأن يكون شيخا لقرية فيؤذن له بقدر تافه من الأرض الزراعية مقابل احتماله لنذالات أصحاب الالتزام الزراعيين والكشافين والسناجق والأغوات ، وتفانيه فى خدمتهم .

ولقد بدأت بشائر الشعور بالذاتية المصرية تبدو على استحياء فى عهـد على بك الكبير ، فلما جاءت الحملة الفرنسية سنة ١٧٩٨ ، وسقطت سلطة

المماليك الشراكسة ، وفروا أمام مدافع جيش نابليون ، وبدا عجزهم ، وكذب دعاويهم بأنهم أبطال الحروب وفرسان المعارك ، فقد ترك المصرى وحده يواجه الغازى القادم من أوروبا ، يفاوضه حينا ، وينازله أحيانا ، وعرف المصريون أن نوابهم ، والمتحدثين باسمهم هم علماء الأزهر ، كما بزغ نجم الزعيم المصرى عمر مكرم ، وبدت مواهبه السياسية ، وتجلت شجاعته ، واعتداده بمصريته ، ولما جاء محمد على قضى على المماليك، وأنشأ الدولة القومية التى تحكم مصر من أقصاها إلى أقصاها ، والتى تحددت فيها الوظائف العامة ، واستقر فيها الأمن ، وعرف لون من نظام الحكم ، بعيد كل البعد عن فوضى حكم المماليك ومعاركهم المستمرة ، وعن انعدام وحدة الحكم الوطنى لاستقلال كل مملوك بجانب من مصر ، لا يلبث أن يعزل عنه ، ويحل محله سواه . وقد عوض حكم محمد على المصريين عن استئثار طبقـــة الأمراء من أولاده وأصهاره وأتباعه ، بالحكم ، بالمدارس التى علمت طائفة غير قليلة من أبناء الفلاحين ، خرج منها الضابط والمهندس والطبيب والمترجم ، فلما بعثوا إلى أوربا واستنارت عقولهم، قاموا بعد عودتهم بعبء التنوير والتحضير ، ونشر الثقافة العربية ، وإنشاء المدارس والمعاهد ، وتوسيع نطاق حركة الترجمة والتأليف ، فكانوا نواة مصر الحديثة . وعبروا عن الشعور بالوطنية المصرية، لأول مرة بعد قرون . ولـكنه شعور يحد من وضوحه حكم محمد على ذى الطابع العثمانى، الذى يصطنع اللغة التركية ويجعلها لغة الدولة الرسمية ، والذى يختار أكبر أعوانه من أبناء الأتراك والشراكسة والأكراد والألبان دون المصريين .

فلما جاء سعيد ، واضطرته ظروفه السياسية أن يعلن مصريته ، وأن يعمل على فتح أبواب الترقى العسكرى المصرى وللموظف المصرى وأن يعلن مبدأ جواز تملك المصرى للأرض الزراعية بلائحته السعيدية ، خطت الوطنية المصرية خطوة نحو الأمام. فلما خلفه الخديو إسماعيل ، وأثمر اعجابه الشديد

بالحضارة الأوربية الحديثة ، واقتتانه بشخصية الامبراطور نابليون الثالث إدخال العديد من وسائل المدنية وأدواتها والسكك الحديدية ، والتليفونات والتلغرافات والموانى والمنائر ومصانع السكر ومحالج القطن ، فضلا عن شق مئات الكيلومترات من الترع وإقامة مئـــات من الكبارى ولـكن هذه الإصلاحات الضخمة أدت إلى سياسة القروض الأجنبية التى أدت بدورها إلى تدخل الأجانب فى شئون مصر مما حمل الخديو إسماعيل على التفكير فى الاحتماء بالرأى العام المصرى ، فأرخى له حبل الحرية ، فظهرت الصحف فى أخريات أيامه ولاح فى الأفق كتاب وصحفيون ، ومهيجون ومهرجون ، فمن عبد الله النديم إلى إبراهيم اللقانى إلى أديب إسحق ثم يعقوب صنوع ، وانتقلت حرارة النقد ، وشجاعة الرأى إلى المجلس الرمزى الذى بدأ حياته سنة ١٨٦٦ باسم مجلس شورى النواب ، فوقف من حكومة مصطفى رياض مواقف عظيمة ، تذكر بموقف ميرابو من حاجب ملك فرنسا سنة ١٧٨٩ وعرف الناس نوابا شجعاناً كعبد السلام المويلحى ومحمد راضى .

ولما زادت الأحوال سوء وتجمع الفلاحون أمام مبنى مجلس شورى النواب، وتخبطت حكومة رياض، نشأ أول حزب سياسى فى مصر، وهو الحزب الوطنى، أو الحزب الأهلى ، الذى كان يجتمع فى حلوان بعيداً عن أعين الرقباء ، فسمى لذلك بجمعية « حلوان » . وقد ضاعف الحزب من نشاطه فى الداخل والخارج ، فأوفد أديب إسحق لينشر فى صحف فرنسا مقالات حادة ضـد أسلوب الحكم الرياضى ، ثم أذاع منشوراً سرياً فى ٤ من نوفمبر سنة ١٨٧٩ . لم يكن هـذا حزبا بالمعنى العلمى فقد كان الجامع بين مؤسسيه ، كراهيـة مصطفى لشخصه ولتعاليمه وصلفه ، والاعتراض على حكومته ، ولم يكن أحد من أعضائه يتصور أن هذا الحزب باق وأن له نشاطا مستمراً ، ولـكنه كان مرحلة فى ظهور الحركة الوطنيـة أكثر صـلابة من جهة وأشد نقاء من جهة أخرى . إلا أن الأحداث الجارية ، غلبت على تحديد ملامحه ، فاختلط كره

الأجانب بكره الخديو، بكره مصطفى رياض، ملامح البواعث الشخصية، لذلك لم يلبث أن تفرق هذا الحزب، بعد أن بذر ما استطاع من بذور الثورة ومن بذور الوطنية .

صدمة الاحتلال :

قبل أن يكتب لهذه البذور الوقت الكافى، لتؤتى ثمارها، وقع الاحتلال البريطانى . وقد كان كارثة بأكثر من معنى .

كانت الهزيمة العسكرية، المؤدية إلى وقوع الاحتلال، أقل هذه الثمار مرارة وأذى . فقد كان ممكنا أن يؤدى الاحتلال إلى ظهور قيادة وطنية تبدأ كفاحا شعبيا ضد الغاصب الدخيل، وكان ظهور هذه القيادة كفيلا بأن يجمع الأمة فى وحدة، وأن يجلى الفكرة الوطنية، ويزيدها وضوحا وثباتا وتألقا . وكان ذلك مع مر الزمن كسبا وخيراً عميا .

ولكن الاحتلال جر أول ماجر، انتهاء المقاومة العسكرية والشعبية معاً، بشكل قاطع، ومفاجىء . فقد اكتفت القيادة العسكرية بمعركة التل الكبير، وقدرت أن مواصلة الحرب على أبواب القاهرة عبث ضار، ولم يخطر ببالها تدبير الحرب من قاعدة من الصعيد، ولو فى صورة مناوشات متفرقة بعصابات . ولم تر ضرورة اللجوء إلى إحـــدى الأقاليم المجاورة كالسودان أو الشام، لتوجيه وتنظيم حركة مقاومة سياسية أو مسلحة . والأدهى من ذلك كله أن قيادة الثورة، ذهبت إلى أبعد من ذلك فاستسلمت بأشخاصها لقائد جيش الاحتلال، دون مقتضى لذلك، ولا مبرر، الأمر الذى أحرج وأدهش سلطات الاحتلال . ولما أقيمت المحكمة لمحاكمة زعماء الثورة، استمع زعيم الثورة لنصيحة بلنت الذى نصحه بالاستعانة بمحامين بريطانيين، ولم يكن هناك محام فى هذه القضية أصلح من عرابى نفسه، الذى قبل بناء على مشورة هذين المحامين

أن يعترف بارتكاب خيانة التمرد مقابل تخفيف عقوبة الموت إلى عقوبة النفى ، وتوجت كل هذه المصائب والمتاعب ، بتقديم زعيم الثورة ، مذكرة إلى اللورد دوفرين، ممثل الغاصب الغازى . يرسم بها خطة الاصلاح المنشود من الدولة المحتلة وقد ضوعفت آثار هذا الموقف ، بالمطاردة المودوجة للأحرار على يد حكومة الاحتلال وعلى يد حكومة الخديوى ، وعلى يد الخصوم الشخصيين لهؤلاء الأحرار، فأقفرت الساحة الوطنية من كل مجاهد قادر على رفع الصوت ولو احتجاجا أو اعتراضا على هذا النظام الجديد ،دع عنك الدعوة إلى المقاومة المادية أو المعنوية . وخلا الجو تماما للاحتلال وعملائه ، والمنتفعين منـــه ، والمحتمين به ، ولكارهى الخديو اسماعيل وحكمه ، والمىالين إلى حكم الأجنبى أيا كان اسمـه وأغلب هؤلاء أجانب متمصرون من أوروبا ومن الشرق العربى .

كما خلا الجو للخديو توفيق وعملائه وبطانته وحاشيته والكارهين للحكم المصرى،وللمصريين جميعا . وبعض هؤلاء قنعوا بالدوران فى فلك الاحتلال أو الخديو ، وجر الغنائم من هذا الدوران ،ولكن آخرون رأوا أن استدامة هذه النعم التى أغدقها عليهم النظام الجديد بشقيه يستلزم أن يدعوا لهذا النظام الجديد ، وأن يجعلوا لولائهم له ، وانحيازهم إلى جانبه فلسفة ، وقد وضعوا فعلا أقلامهم فى خدمة هذه الفلسفة والترويج لها ، ومالبثوا حتى انشأوا لهم صحفا ومجلات ، وأطلقوا دعاتهم يـ ددون على الأندية والندوات والمجالس ، ويثنون على الاحتلال ، ويشيدون بأفضاله ، ويظهرون كيف عمر مصر ، بمشروعات الرى الكبرى ، وبحسن تنظيم الميزانية ، وباستقرار الأمن ، وبوضع حد لمظالم العهد الخديوى من سخرة واستعمال الكرباج وجباية مالا نظام له ولاقانون من الضرائب والمكوس مع تبديد المال العام على شهوات الخديو وحاشيته .

وقد أسفر هذا كله عن قيام حالة فكرية فى مصر أكبر سماتها أغلبية

راضية بحكم الاحتلال ، إن صراحة وإن ضمنا . وأقلية لاترضى عن هـذا النظام وترفضه ، ولـكن ينقصها كل وسائل التأثير على الرأى العـام ، كما تنقصها الثقة بالنفس ، والشجاعة التى تعينها على نقد النظام الجديد وإظهار أخطائه فى حق الفلاحين والعمال، وفى حق التعليم القومى ، وفى حق حريات الشعب ، وفى نصيبه فى حكم بلده .

نماذج من الولاء لحـكم الاحتلال :

واقد حفظ لنا التاريخ نماذج من آراء هؤلاء الذين رأوا فى الاحتلال البريطانى خيرا إذ أخرج البلاد من ربقة حكم الخديويين بعامة وحكم الخديو اسماعيل بخاصة . وإذ أقر النظام ، وعالج الاضطراب المالى فى البلاد ،ونفذ مشروعات الرى الـكبيرة ، وشجع الأجانب على ممارسة نشاطهم المـالى والاقتصادى ، والفـكرى والثقافى فاستقرت أقدام مصر على طريق التكيف مع الحضارة الأوربية ، واصطناع أفـكارها ومناهجها . ونحن نورد بعض هذه النماذج لنعرف كم كانت مهمة مصطفى كامل شاقة، وكم كان الطريق أمامه مليئا بالعقبات والسدود .

لما سقط اللورد كرومر فى أثر مأساة دنشواى الفاجعة فى ١٣ من يونية ١٩٠٦ وقد كان اللورد كرومر ، هو مندوب الاحتلال البريطانى الذى كان ملك وادى النيل غير المتوج صاحب السلطة الفعلية ، التى لا ترد له كلمة ، وقد بذل جهدا بارعا فى تثبيت قواعد الاحتلال وتأكيد سلطانه، فكان سقوطه مناسبة سعيدة لخصوم الاحتلال ، ولـكن أثر هذا السقوط كان مختلفا أشد الاختلاف عند سعد زغلول وزير المعارف آنذاك فقد سجل فى صفحة ٢٤٠ من مذكراته بالـكراسة رقم ٦ المودعة بدار الوثائق ما نصه : فقال أنه حينما سمع بهذا النبأ شعر « كمن وخز بآلة حادة فلم يشعر بألمها لشدة هولهـا ثم ذهب ليقابل اللورد كرومر ، فلما سأله اللورد كرومر عن الأحوال قال

أنها سيئة ، فيطمئنه كرومر بقوله : لا تخف (يا سعد باشا) مطلقا فان خلفي سيؤيدك بكل ما في وسعه ، فيكون تعليق سعد على ما جاء في مذكراته : وعندما أبدى عبارات التشجيع والتطمين قلت له أني لا أفكر في شخصي ولكن في بلدي ومنفعتها التي سوف تخسر بعدك خسارة لا تعوض فيرد عليه كرومر لا خوف على مصر من ذلك ، فان خلفي قادر وقد تربى على مبادئي فيقول سعد : فخرجت شاكرا متأسفا ، فرحان حزنان » .

وفي ٢٣ من مارس سنة ١٩٠٤ وضع الحجر الأساسي لمدرسة محمد علي الصناعية في الاسكندرية فخطب رئيس الوزراء آنذاك مصطفى رياض باشا في حضرة الخديو عباس فقال :

« جناب المحتشم اللورد كرومر اعتذر عن الحضور في هـــذا الحفل لتغيبه عن مصر . وكل يعلم ماله من المقام الأرفع والنفوذ الشامل في هذه البلاد وبالأخص ماله من اليد الطولى في كل ماله مساس بالصالح والمنافع العمومية . فهذه اليد الفعالة قد شملتنا وهي التي كانت لنا معوانا ، بل متمما ومكملا لهذا المشروع فحق علينا أن نعرف له هذه المبرة ونقدم له واجب الشكر ، ونثني عليه أطيب الثناء » .

وفي سنة ١٩٠٥ تحدث رئيس وزراء آخر هو مصطفى فهمي باشا إلى مسيو دجرقيل صاحب كتاب « مصر الحديثة » فقال :

« انظر إلى مصر سنة ١٨٨٢ وما صارت إليه الآن ، سنة ١٩٠٥ ، لقد كان يسودها الخراب والفوضى والشقاء ، والآن يعمها النظام والعدل والرخاء . التغيير كان سريعا واسع المدى لدرجة أني في بعض الأحيان أغمض عيني وأتساءل : « هل أنا في يقظة أم في منام . أننا مدينون لانجلترا بثروتنا وسعادتنا وهنائنا ، انظر إلى هذه الأرض المقامة عليها الفنادق والقصور أنها

كانت منذ عشرين سنة لا تساوى شيئا والآن بلغت قيمتها الملايين من الجنيهات ، فماذا تكون قيمتها لو جلت انجلترا من مصر » .

وقد أورد الشيخ رشيد رضا فى كتابه تاريخ الأستاذ الإمام أن اللورد كرومر أعلن أن الشيخ محمد عبده باق فى دار الإفتاء مادام الاحتلال البريطانى باقياً . أى أن تلميذ الشيخ محمد عبده قرن اسم الشيخ بالاحتلال ، يبقى أحدهما فى منصبه ونفوذه مادام الثانى باقياً . ولم يستح الشيخ رشيد من أن يقول هذا الكلام ولم يحس أن ذلك طعناً مراً فى إستاده .

وفى سنة ١٩٠٧ كتب الأستاذ أحمد لطفى السيد الموصوف بأنه (أستاذ الجيل) فى صحيفة الجريدة يشرح سياسته وسياسة حزبه فقال :

« سياستنا مع الإنجليز لاتخلو من أحد وصفين . إما سياسة عناد وعداء وإما سياسة مسالمة واستسلام ، ولاشك أن سياسة المعاندة عقيمة ، إذ كيف يقبل المعاند من المعاند حساباً على أعماله ؟ بل كيف يرجو العدو من العدو إصلاحاً له فلم تبق إلا سياسة المسالمة والمحاسنة . مقرونة بالمحاسبة » .

وبعد سنة من جلاء الانجليز من مصر ، تنفيذاً لاتفاقية سنة ١٩٥٤ قدم على عبد الرازق باشا لكتاب أخيه مصطفى عبد الرازق باشا ، فقال عن حزب الأمة الذى كان عميد أسرة عبد الرازق أحد كبار مؤسسيه .

« وحزب الأمة هذا حزب سياسى ، أنشىء ليقف بالأمة المصرية موقفاً وسطاً لايميل بهم ذات اليمين ولاذات الشمال ، وكان يتجاذب الأمة يومئذ سلطان — الإنجليز المحتلين من جانب ، وبيدهم القوة بالفعل ومصاير الأمور ، وسلطان الخديو من جانب آخر ، مستظلا باسم السلطان العثمانى خليفة المسلمين ، وباسم الدين الإسلامى . والمصريين حيرى بين هؤلاء وهؤلاء » .

وثم قال :

ولكن الواقع أن الانجليز كانوا أرحم بالبلد وأدنى إلى رعاية مصلحته من الخديو وربما كانوا أرحم بالبلد وأدنى إلى رعاية مصلحته من سلاطين آل عثمان وعمالهم » .

وخلاصة هذا القول أنه يمكن فى بلد محتل ، أن يقف حزب موقفاً وسطاً بين سلطات الاحتلال ، وسلطات الحاكم المصرى المشمول برعاية هذا الاحتلال ، ويعلن أن الغاصب المعتدى ، يمكن أن تعقد مقارنة بينه وبين غيره ، ليحصل هذا الغاصب المعتدى بفضل هذه المقارنة على شهادة بحسن سيره وسلوكه ، تبرر مهادنته فى الظاهر والانحياز له فى الواقع ، بدعوى عدم إمكان مقاومة أعداء الأمة جميعاً فى وقت واحـــد . منطق احتلالى مرفوض وخال من كل عنصر أخلاقى ، ومن كل فهم سياسى . والخديو لم يكن هو ولم يكن أسلافه ولا خلفاؤه ليبقوا فى الحكم، إذا زال الاحتلال منهما تناقضت المصالح بينهما إلا أن الاحتلال هو السلطة الفعلية وكل صاحب سلطة أو نفوذ فى مصر ، مصرياً أو أجنبيا فرداً كان أو مؤسسة يتحرك فى إطار نفوذ الاحتلال .

فى هذا الجو الخانق والمثبط للهمم ، بل الداعى إلى اليأس ، خرج مصطفى كامل ليقلب الوضع رأسا على عقب ، فيحول الاحتلال إلى عدو البلاد الأول والأوحد والأحق بكل خصومة ، وبكل الكراهية ،ويدمج معه فى قائمة واحدة كل من يمد إليه يداً ، أو يحسن فيه رأيا أو يخفف من عداوته ، فهم جميعا أعوانه وأدواته ، يؤذون البلاد لحسابه ، ويعيثون فساداً فى ظله ومصر هى أحب الأوطان ، وأجدرها بالإعزاز وماضيها مفخرة الإنسانية ومكانها بين الأمم فى الصدارة .

عبقرية الرائد :

ولم يكن مصطفى كامل رائداً فحسب، بل وإنما كان رائداً عبقريا . ونحن لانستعمل لفظ (العبقرى) من قبيل المدح المفرط ، أو الثناء المسرف ، وإنما نقوله بمقياس علمى بحت .

فالعبقرية طراز من النبوغ يتميز بأن فيه عنصر الخروج عن المألوف . أما بحسب معنى الزمن الذى يعمل فيه العبقرى أو لتبكير ظهور مواهبه ، على غير العادة، أو لأنه يأتى بأعمال لا تصدر عادة من أمثاله ، وإما لسبق عهده بكثير. فموزار عبقرى لأنه وضع السيمفونيات فى سن تتأبى فيه على من يكون فى ضعف سنى عمره . والاسكندر الأكبر عبقرى ، لأنه يقود جيشا ظافراً يفتح لقائده امبراطورية لم تدن لأحد قبله ، ويترك فيها ثقافة العقول والأفهام، خالد بن الوليد ، عبقرى لأنه خرج من الصحراء ، حيث لم يشهد إلا مشاجرات القبائل الصغيرة ومناوشاتهـا لينازل جيوش الأباطرة والأكاسرة ويهزمها .

ومصطفى كامل عبقرى . لأنه منذ شب عن الطوق ، وهو لايزال صبيا صغيراً ، بدت إرهاصات رسالته الوطنية ولاحت بشائر زعامته السياسية ، فهو فى الثانى عشر من يوليه سنة ١٨٩١ بعد أن حصل على شهادة الثانوية العامة ، أرسل فور وصول نبأ نجاحه رسالة لأخيه على فهمى كامل يقول فيها أبشرك بأن العقبة الكؤود والتى كانت أمامى هى شهادة الدراسة وقد نلتها ثم قال : وقد عزمت الانضمام إلى طـلاب مدرسة الحقوق لأنها مدرسة الكتابة والخطابة ومعرفة حقوق الأفراد والأمم ، وأنت تعلم أنى أميل إليها كثيرا ، عزمت كذلك على تأسيس جمعيـة اسمها جمعية (إحياء الوطن) .

ففى هذه السن المبكرة ، يقرر مصطفى كامل ، وهو دون السابعة عشرة أن يلحق بمدرسة الحقوق لا لأنها مدرسة الوزراء والرؤساء ، بل لأنها مدرسة الكتابة والخطابة ، ولأنها تعلم حقوق الأفراد والأمم . كلمة موجزة ، كأنها من جوامع الكلم ، وإذا لاحظنا أنها صدرت فى ذلك العهد الذى لا يتكلم فيه الناس كثيراً عن المصالح العامة . بقدر حديثهم عن مصالحهم الشخصية ، ولا يتحدثون عن حقوق الأفراد والأمم ، باعتبار أنها غاية فى ذاتها ، يتجه إليها طالب العلم ويفكر فيها سلفاً ، فإذا أضفنا إلى ذلك أن مصطفى كامل ، كان ضعيفاً فى اللغة الفرنسية . متفوقاً فى الرياضيات والطبيعيات ، وإن مستقبلا زاهراً كان ينتظره لو اتجه إلى مدرسة الطب مثلا ، فى حين كان التعليم فى مدرسة الحقوق فى أكثر المواد بالفرنسية لأدركنا أن هذا زعيم المستقبل بلا شبهة ، وأن هذه الجملة لم تكن سوى مطلع النشيد العظيم الذى انتظم حياته كلها ، نشيد الكفاح الباهر من أجل مصر العظيمة .

فإذا ذكرنا أن مصطفى كامل قبل ذلك بسنتين استطاع أن يعقد الصله بوزير المعارف العظيم على مبارك ، وأن يخرجه من مكتب الوزارة ، ليصحبه إلى مدرسة الخديوية ليحقق واقعة اعتداء بسيطة كان مصطفى كامل ضحيتها ، وأن الوزير كاد يرفت ضابط المدرسة ، لفرط غلظته ، ولسوء أسلوبه فى التربية والتأديب ، لعلمنا أن الذى فعل ذلك لم يكن مصطفى التلميذ وإنما كان مصطفى الزعيم .

على أن هذه الجملة الموجزة لم تقف عند حد الحديث عن المدارس والدروس ، بل إنها قفزت قفزاً إلى إنشاء جمعية سياسية ، اسمها بالذات (إحياء الوطن) . هذا هو جوهر حياة مصطفى كامل ، إحياء الوطن . وقد مضت حياته وقفاً على تحقيق هذين اللفظين فبذل من أجلها الدم والعرق والروح ، ووضع فى خدمتهما القلم واللسان والجنان والبدن وافتن فى ابتكار

الأساليب، وابتداع الأدوات ليحيل اللفظين ، حقيقة تمسك باليد ، وترى بالعين . وقد تحقق له ذلك كله عما تشهد الأيام آثاره ، ونجنى ثماره .

ولم تمضى إلا بضعة شهور ، حتى ظهرت أول ثمار هذه العبقرية . فقد أخرج مصطفى كامل ، مجلة « المدرسة » ، وذلك فى فبراير سنة ١٨٩٣ ، واختار لها ، على عادته فى الاختيار ، العبارة الموجزة المعبرة الموحية شعاراً نصه : « حبك مدرستك حبك أهلك ووطنك » وأرسل إلى أخيه على يقول : أبعث إليك فى هذا البريد بمجلة المدرسة التى أنشأتها لخدمة الناشئين لا للربح والشهرة» . وانظر إلى هذا الناشيء الذى يفكر فى خدمة الناشئين، ثم اذكر أن هذه المجلة بقيت إلى الآن يتيمة فليس لها أخت . مجلة مدرسية يحررها ويصدرها وينشرها ، ويعولها طالب فى مدرسة ، فى هذا الوقت الممعن فى التبكير ، فتخرج عملا صحفياً متقناً ، يضم المقالة الجيدة الرصينة، والطرائف المسلية ، والمعلومات الفائقة ، وكأن مخرجها رجل تمرس بالصحافة ، وتعلم فنونها . إن المجلة المدرسية ظهرت أول ما ظهرت فى أوائل العقد الثالث من هذا القرن فى نحو سنة ١٩٢٣ ، ولكنها كانت جميعاً مجلات تشرف عليها المدارس، وتعينها الإدارة بالمال والمدرسون بالتوجيه. وكانت جميعاً دون مجلة مصطفى كامل ، إتقاناً ورصانة ، ووطنية . والأمر الذى لا يجب أن ينسى أن مجلة الأستاذ التى أخرجها عبد الله النديم خطيب الثورة العرابية أحسنت استقبال مجلة المدرسة ، فحدث التلاقى بين مجلتى الثورتين ، وزعيمى الحركتين .

وفى نفس السنة نشر السلسلة الأولى من مقالاته فى الأهرام ، وكانت معنونة : « نصيحة وطنى » وقد بلغت مقالاته فى تلك السنة خمس مقالات وفى سنة ١٨٩٤ بدأ ينشر مقالات تجمع بين الطابع السياسى والصحفى معا . فهو يعلق على مجريات السياسة الدولية ويحللها ، وأمثاله يتصايحون فى الشوارع والأزقة ، مازحين ولاهين ، وهو يصف لقراء الجريدة مشاهداته فى أوروبا

وتأثراته بالمعارض التى يراها ، والطرائف التى يشاهدها ، فيسبق رواد الفن الصحفى فى بلادنا ، وفى البلاد العربية كلها . ثم أصدر أول كتاب سياسى باللغة الفرنسية ، وهو رسالة « أخطار الاحتلال البريطانى » فكان أول ما تطالعه دوائر السياسة الدولية فى أوروبا لمصرى عن الاحتلال البريطانى فى مصر وآثاره الدولية ، وراح يوزعها على صحف فرنسا وألمانيا والنمسا ، فتذيع اسمه ، وتلفت الأنظار إلى نشاطه ، ويخطب بها ود سياسية من أكبر شخصيات فرنسا وأعلاها كعبا ، مدام جوليت آدم التى بقيت أما روحيا له ، تكلؤه وتقدمه للصحف والساسة ، وتفخر به ، وتنتفع بآرائه .

وإلى هذه السيدة فى ١٢ سبتمبر سنة ١٨٩٥ أرسل رسالته الخالدة ، التى كانت ومضات من شعر الوجدان وإلهاما من الوطنية فى أنقى صورها قال لها :

« إنى لا أزال صغيراً ولكن لى أطماعاً جساماً ، فإنى أريد أن أوقظ فى مصر الهرمة « مصر الفتاة » هم يقولون إن وطنى لا وجود له . وأنا أقول يا سيدتى إنه موجود وأشعر بوجوده بما آنس له فى نفسى من الحب الشديد الذى سوف يتغلب على كل حب سواه ، وسأجود فى سبيله بجميع قواى وأحميه بشبابى ، وأجعل حياتى وقفاً عليه . أنى أبلغ من العمر إحدى وعشرين سنة . وأريد أن أكتب وأخطب وأنشر الحمية والإخلاص للوطن اللذين أجدهما فى نفسى وقد قيل لى أكثر من مرة أنى أحاول محالا ، وحقيقة تصبو نفسى إلى هذا المحال ، فأعينى يا سيدتى فإنك من الوطنية بمكان تفردك بمزية تدبر قولى ، وتقوية عزمى ومساعدتى » .

وهذه السطور لا يجوز لمتحدث عن مصطفى كامل ، الرائد الوطنى ، أو الكاتب ، أو الصحفى ، أو السياسى ، أو الزعيم ، أن يغفلها ، لأنها برنامج عمله ، ولأنها كأكل ما يكتب مقاطع صغيرة متلاحقة ، حارة غاية الحرارة ،

مليئة بالمعنى ، حتى يكاد يفيض من جوانبها وهى مع ذلك سهلة فى متناول كل صاحب قلم، لو أن الله واتاه ما واتى مصطفى كامل من الوجدان المتقد، والبلاغة الروحية ، والحب الذى لا ينفد لبلاده ، وتفانيه فى خدمتها . انظر إلى قوله غير المسبوق ،العذب الرنان الموحى الموقظ : أريد أن أوقظ فى مصر الهرمة ، مصر الفتاة . فمصر القديمة لم تمت ، وإنما هى فى إغفاءة ، وهى قادرة على الاستيقاظ إذا أيقظها أولادها .

ثم انظر إلى قوله : يقولون إن وطنى لا وجود له ، إنها قولة ضخمة ، إنها حكم بالموت على أقدم الشعوب وأكثرها عراقة . ولكن مصطفى يستقبل هذا الحكم بجنان ثابت ويقول : وأنا أقول يا سيدتى إنه موجود وأشعر بوجوده ، بما آنس له فى نفسى من الحب الشديد » قال الفيلسوف أنا أفكر فأنا موجود ، وقال الزعيم الملهم ، أنا أحب مصر فهى إذن موجودة .

وانتهى دور الكلام ، وفى الحال يتصل به دور العمل : أريد أن أكتب وأخطب وأنشر الحية والإخلاص . ولا تفوتنك كلمة (أريد) . فهذا هو بداية العهد الجديد ، الذى أعلنه مصطفى كامل ، هو عهد الإرادة الوطنية. فالمصريون لا يتمنون ، ولا يحلمون ، وإنما يريدون . وهم إذا أرادوا يستطيعون أن يفعلوا ، لأنه أمام الإرادة ينتقل الجبل من مكانه .

ثم انظر هذا الختام الذى يشبه البداية: « وقد قيل لى أكثر من مرة أنى أحاول محالا وحقيقة تصبو نفسى إلى هذا المحال » .

لا شك أن الحركة الوطنية دخلت بهـــذه السطور دوراً جديداً ، وخرجت به من جمود الأساليب القديمة ، فجددت فى أسلوب خطابها ، ولهجة بيانها ، ثم خرجت به من سجن العمل المحلى إلى دنيا العالم الفسيحة،

ثم خرجت به من ثنائية العمل السياسى الذى أحد طرفيه مصر والطرف الثانى فيه مندوب الاحتلال فيها . وهذه هى الريادة الوطنية فى اللفظ والمعنى، فى الفكر والعمل ، وفى الأسلوب والمنهج . فتحت حلبات السياسة للزعيم الشاب ، ووضعت المنابر الدولية فى خدمته ، واستقبلت صحف الدنيا الكبرى مقالاته وأحاديثه وتعليقاته . ولما مات تلقف اللواء من يده « زميله وصديقه وخليفته محمد فريد ، فلما مات بدوره ، عادت الحركة المصرية عملا داخلياً بحتاً ، ولم يعد فى الوسع نشر مقال عنها ، ولا حديث لأحد زعمائها ، إلا مقابل شىء يدفع ، ثم يسود الصمت التام .

عبقرية العمل السياسى :

وإذا كانت عبقرية مصطفى كامل تبدو واضحة وجلية فيما يكتب وما يقول ، فإن هذه العبقرية تبدو أكثر وضوحاً فى أسلوبه فى العمل . فهو لا يسير فى كفاحه السياسى اعتباطاً وإنما كان يعمل بناء على خطة ، هدته إليها ، فطرته السليمة ، وهذه العبقرية ، التى منحه الله إياها .

وقد قلنا إن غاية مصطفى كامل هى إجلاء الإنجليز عن مصر ، وتحقيق حرية كاملة للمصريين فى وطنهم ، تجعل كل أمورهم فى خدمتهم ، وتحت أمرهم . يشكلونها كما يشاءون ، ثم إثارة خيالهم ، وتحريك هممهم ليجددوا المجد الذى كان لآبائهم وأجدادهم .

ولما كانت العقبة الكأداء التى تمر تعترض سبيل هذا البرنامج هى اليأس أولا وهى الخوف من الإحتلال ، وعدم تصور أن إزالته ممكنة ، وهما فى الواقع وجهان لعملة واحدة اليأس وعدم الثقة بالنفس هما توأمان لمرض واحد ، فاليائس ، لا يلبث أن يفقد ثقته بنفسه ، ويراها غير أهل للتقدم ولا للنجاح فى الكفاح ومن لا ثقة له بنفسه لا يلبث أن ييئس .

لذلك كان مصطفى كامل يعمل عملا مزدوجا ، يحارب اليأس من جهة ، ويبعث الأمل من جهة أخرى . وهو بقدر ما يضرب فى اليأس ويقتلع من جذوره ، يبعث الأمل . ويثبته فى القلوب والنفوس .

وقد أعلن هذا البرنامج لحارب اليأس بكل قواه وقال فى هذا المعنى :

« ما هذا السم الفتاك الذى تناولته الأمة عن طيب خاطر ؟ ما هذا البلاء المدمر للبلاد الذى حل بها وتساقط على رءوس أهلها وهم إليه ناظرون .

« كيف تنسى هذه الأمة العزيزة التى فتحت وقهرت وضربت وانتصرت وبهرت العالمين بقدرتها وشدة بأسها ، كيف تنسى مفاخر أجدادها وجلائل أعمالها » .

وقال عن اليائسين أيضا : « وعندى أن الرجال اليائسين وإن كانوا أقل من القليل يضرون بلادهم أعظم ضرر بما يقولونه ويكررونه ، إذ أن قتل العواطف الشريفة وإخماد نار الغيرة الوطنية هما ولا محالة أكبر جناية تجنى على الوطن وأهله » .

وبقدر ما حارب اليأس، عمل على إعادة ثقة المصريين بأمتهم وعظمتها فقال:

« عجبا وألف مرة عجبا . كيف تسىء الظن بنفسها أمة تغلبت على الأيام والحوادث . وقاتلت الليالى وما ولدت ، وقاومت تيارات الزمان أجيالا طوالا ، وأوقفتها وهى فى منتهى قوتها ؟ كيف يقول بعض أبناء هذه الأمة عنها أنها ماتت وزالت آثارها وأصبحت نسيا منسيا وهى التى اهتز لمجدها الشرق والغرب ، وسارت الركبان بأحاديث مفاخرها » .

وبقدر ما حارب اليأس من النفوس ، وطارد ظلامه الذى يحاول أن يحيط بحياة المصريين ، أعلى من شأن الأمل ، وأشاد بالواثقين من النجاح فقال :

« إن العامل الواثق من النجاح يرى النجاح أمامه كأنه أمر واقع ، ونحن نرى من الآن هذا الاستقلال المصرى ، ونبتهج به ، وندعو له كأنه حقيقة ثابتة وسيكون كذلك مهما تعددت الليالى وتعاقبت الأيام وأتى بعد الشروق شروق وأعقب الغروب غروب ، فإننا لا نمل ولا نقف فى الطريق ، ولا نقول أبداً قد طال الانتظار » .

« نعم إننا لو تخطفنا الموت من هذه الديار واحداً بعد واحد ، لكانت كلمتنا لمن بعدنا ، كونوا أسعد حظاً منا ، وليبارك الله فيكم ويجعل الفوز على أيديكم ، ويخرج من الجماهير المئات والالوف ، بدل الآحاد للمطالبة بالحق والوطن والاستقلال المقدس » .

وليس عجباً ، بعد هذا كله ، ألا يتخذ مصطفى كامل وحزبه وأنصاره وتلاميذه السائرون فى طريقه هذا الشعار الجميل : « لا يأس مع الحياة ، ولا حياة مع اليأس » .

وتنتهى الحملة ضد اليأس ومطاردة ظلامه والدعوة إلى بعث الأمل ، ونشر نوره إلى غايتها الطبيعية ، وهى حب مصر ، والإعجاب بها ، والثقة فيها ، إذ لا يصرف المصريين عن هذا الإعجاب وتلك الثقة إلا يأسهم من المستقبل ، واعتقادهم السيء فى أنفسهم وفى بلادهم ، وهو ما سماه مصطفى بالسم الذى يتجرعه المصريون عن طيب خاطر .

ولقد ذهب مصطفى كامل فى حبه لمصر ، وفى توفيقه العظيم فى نظم أجمل الألحان وأعذب الأناشيد فى لفظ رقيق كأنه سبائك الذهب الرقيقة والدقيقة ، إلى المرثية التى لم يدانه فيها أحد ، فاستحق من امير شعراء العرب أن يسمى « مصر غرامها » .

من خطبته فى يوم ٢٢ من أكتوبر سنة ١٩٠٧ التى عرفت بخطبة الوداع نقتبس الجملة المشهورة :

« ألا أيها اللائمون انظروها وتأملوها، وطوفوا واقرأوا صحف ماضيها، واسألوا الزائرين لها من أطراف الأرض ، هل خلق الله وطنا أعلى مقاما وأعظم شأنا ، وأجمل طبيعة ، وأخلد آثارا وأغنى تربة وأصفى سماء وأعذب ماء ، وأدعى للحب والشغف كله ؟ يجبكم بصوت واحد بأن مصر جنة الدنيا، وأن شعبا يسكنها ويتوارثها لأكرم الشعوب إذا أعزها ، وأكبرها جناية عليها وعلى نفسه إذا تسامح أزمتها للأجنبى » .

وقد انتهى هذا اللحن المجيد إلى قمته :

بلادى بلادى ! لك حبى وفؤادى ، لك حياتى ووجودى لك دمى ونفسى ، لك عقلى ولسانى لك حبى وحنانى ، فأنت أنت الحياة ، ولا حياة إلا بك يا مصر » .

وفى هذا الجانب من رسالته كان شعاره : لو لم أكن مصريا لوددت أن أكون مصرياً :

بعث الأمل فى العمل :

ولو اقتصر نشاط مصطفى كامل فى بعث الأمل، وتشييد صرحه ،وتثبيت أصوله وجذوره على الكلام والخطابة لما استطاع أن يحول أكثر المصريين من الثقة بالاحتلال والاطمئنان إليه ، إلى خصوم الداء له ، يكرهونه ، ولا يطيقون سماع اسمه .

ولكنه كان ينتهز الفرص ليقوم بعمل جد صغير ،ولكنه يستنبط منه أملا ضخما ، يزيد من التفاف الناس حوله . من ذلك خطابه الذى أرسله إلى المستر جلادستون زعيم حزب الأحرار البريطانيين ورئيس الوزارة السابق فى ٢ من يناير ١٨٩٦ يسأله عما إذا كان لا يزال على رأيه من أن جلاء بريطانيا عن مصر ، هو الحل الوحيد للمسألة المصرية .

وفى ١٤ من يناير سنة ١٨٩٦ رد جلاستون من مصيفه ببيارتز فى النمسا على مصطفى كامل قال فيه : « إن زمن الجلاء على ما أعلم قد حان منذ سنين » وقد كان لهذا الخطاب وللرد عليه دوى فى دوائر السياسة المصرية والبريطانية والفرنسية والعالمية على السواء ، فجلادستون قطب من أقطاب السياسة البريطانية والدولية ورئيس حزب الأحرار ، أحد الحزبين اللذين يتداولان الحكم . فقد علقت عليه الصحف الفرنسية والبريطانية والألمانيـــة كما علقت عليه الصحف المصرية ، وإن ما قاله جلادستون فى خطابه لمصطفى كامل لا يقاس بعدد السطور التى احتواها ، ولا بعدد الكلمات التى تضمنتها هذه السطور ، وإنما بما تحمله إلى المصريين . فقد كان خصوم مصطفى يروجون أن جهده كله ليس سوى صراخ فى الهواء ، وأنه لن يستطيع بكل خطبه ، وبكل ما يكتبه أن يحرك جندياً بريطانياً من مكانه فى مصر . وان على المصريين أن ينبذوا الأمل فى جهاد مصطفى ،وألا يعلقوا عليه أى رجاء ، فلما احتفل به زعيم كبير كالمستر جلادستون ورئيس وزراة سابق ورئيس حزب ضخم ، ووزير ذو شأن لعب فى حضارة بلاده دوراً عظيما كان ذلك صفعاً للذين يهونون من شأن مصطفى كامل ، والذين يصورونه صبياً مغروراً ، إذا كان كذلك لما تنازل الوزير البريطانى الشيخ للرد عليه ، ولكنه لم يرد عليه رد المجاملة التى يحرص عليها الأوربيون ، بل كان رده عملا سياسيا من الطراز الأول ، فقد تكلم فى صميم المسألة المصرية ، وتناول من هذا الصميم جوهر المشكلة فقال إن زمن الجلاء وافى منذ سنين . لا يبعد أن تأتى الانتخابات غدا بهذا الزعيم وحزبه فى الحكم ، وقد ألزم نفسه بهذا التصريح الواضح ، الذى لا يشوبه لبس . ويمكن يومذاك تذكيره به ، ومطالبته بتنفيذه ، وإحراجه إذا أراد أن يتنصل منه .

إذن كان مصطفى كامل محقا إذ دعى مواطنيه ألا يستسلموا لليأس ، وكان محقا وهو يقول أن إجلاء بريطانيا ليس سوى مسألة مجاهدة ومثابرة وعمل منتظم. وقد دعم هذا الأمل أن صحافة بريطانيا وعلى رأسها شيخة تلك الصحافة وعميدتها

(التيمس) قد خرجت عن وقارها وهاجمت جلادستون ومصطفى كامل ونظمتهما في سلك واحد ، فأى نجاح لمصطفى كامل أن يوضع مع شيخ شيوخ السياسة البريطانية في مرتبة واحدة ، وقد اهتمت بخطاب مصطفى والرد عليه الديلى تلجراف ، والديلى مسنجر وذى جلوب ، وكان العهد بصحف بريطانيا أن تتعالى على كل عمل يجرى في مصر ، لأن لندن هي وحدها التي توجه السياسة المصرية والدولية معاً ، وهي التي تجرى في حلبتها الأعمال المؤثرة وذات القيمة .

وقد ارتفع قدر مصطفى كامل بهذه الضربة المتقنة عند مواطنيه وكسبت الحركة الوطنية التي يتزعمها ويقودها .

وشبيه بهذه الحركة اللوحة التي قدمها إلى المسيو بريسون رئيس مجلس النواب الفرنسى في ٤ من يونيه سنة ١٨٩٥ فصور مصر في صورة فتاة مكبلة بالأغلال ، يحرسها رجل باطش متجهم يلبس خوذة الحرب وإلى جانبه أسد صار رمزاً لبريطانيا وجيش الاحتـــلال ، في حين تقف الآنسة (ماريان) رمز فرنسا على منصة وقد اتشحت بالعلم الفرنسى المثلث ويقف أمامها شاب مصرى ، خلفه أشخاص يمثلون طوائف مصر من مختلف الطبقات ، ويرفع الشاب يده إلى رمز فرنسا ، وإلى جانبها شخوص تمثل الدول التي شاركت فرنسا في تحريرها وهي الولايات المتحدة واليونان وبلجيكا وإيطاليا ، وتحت هذه الصورة سطور بالعربية وأبيات بالعربية بلغت الغاية من البساطة أو قل السذاجة وقد جرت على كل لسان :

فرنسا يا من رفعت البلايا عن شعوب تهزها ذكراك
أنصرى مصراً إن مصر بسوء واحفظى النيل عن مهاوى الهلاك
وأنشرى في الورى الحقائق حتى تجتلى الخـــيرا نهواك

وقد يبدو هذا العمل صغيراً ، بل قد يبدو ساذجاً ولكنه أكسب مصر ، وأكسب مصطفى كامل ، خيراً عميا فقد علقت على هذه اللوحة جرائد

فرنسا العتيدة وفى مقدمتها أكبرها آنذاك (الجولدا)، كما علقت عليها جرائد ألمانيا وفى مقدمتها عميدتها (برلنيرتاجبلاط) وفى إيطاليا علقت جريدة (دى روما). وإذا كنا قد ذكرنا فى فرنسا (الجولدا) فليس معنى ذلك أننا ننسى الطا، والديبا، والريبليك فرانسيز، والفيجارو، البتى جورنال والسولى، والانترانسيجان، والراديكال، والفرينية والسيكل، والماتان، والباترى، وفرانسى، والليبرتيه.

كم كان مصطفى كامل الشاب الفقير، المبتدىء، من المال والجهد، إن أراد أن يحرك فى فرنسا هذا الاهتمام وأن يثير هذه الضجة، التى بلغت إلى آذان الشعب المصرى، وقد زادها الفرح بها، والحب لصاحبها، قوة، لحفظ الناس الشعر، وتسابقوا على إقتناء الصورة الملونة، لتورث للذين يأتون من بعدهم تذكاراً وتراثاً. ولقد هاج غضب بريطانيا وصحفها، وهاج غضب الصحف الإحتلالية فى مصر، فانهالت على مصطفى كامل، تنديداً وسخرية، ولكن كان الأمل قد ازدهر فى قلوب المصريين، ولم يعد أى كلام من الأعـــداء وعملائهم يزيد مصطفى كامل إلا مكانة وإعجاباً وولاء.

وقد كانت التفاتات ذهن مصطفى كامل التى من هذا القبيل كثيرة، وتدل كلها على نضج سياسى وقدرة دعائية ضخمة، وفهم لمداخل الأمور ومخارجها، إذ لا يتم النجاح لهذه الأعمال إلا بموهبة التقدير الملهم.

على أن مصطفى كامل بلغ الذروة فى هذا العمل السياسى الدعائى فى حادثة دنشواى التى وقعت فى ١٣ من يونيه سنة ١٩٠٦، والتى نعرف كلنا تفاصيلها، والتى إذا قورنت بما يحدث كل يوم فى مستعمرات بريطانيا وفرنسا كالهند والجزائر مثلا، دع عنك مستعمرات أفريقيا السوداء، لاعتبرت عملا لطيفاً، لا عدوان فيه ولا قوة، فقد كانت هناك محكمة

يرأسها قاضي مصري ، من أعضائها رئيس محكمة القاهرة أحمد فتحي زغلول الذي كان يعتبر رائداً من رواد الفكر وأستاذاً في القانون وتلميذاً من مدرسة الأستاذ الإمام محمد عبده ، فقد ترافع أمامها نخبة من رجال المحاماة فيهم رجال أفذاذ كلطفي السيد الموصوف بأنه أستاذ الجيل وعبد العزيز فهمي ، فضلا عن أن الاتهام مثله محام مصري ، كان حتى هذه اللحظة يعتبر من رجال الوطنية وقد تتلمذ بدوره على الشيخ محمد عبده ، ولكن مصطفى كامل ببراعته ونشاطه وإحساسه الدقيق، وبلاغته السهلة النفاذ استطاع أن يقلب المائدة كما يقولون على الاحتلال البريطاني . وأن يبرز حادثة دنشواى فاجعة من أكبر فواجع الحكم السياسي الأجنبي ، فأصبح اسمه ، في الريف ، أغنية على كل لسان ، فقد نظم الشاعر الشعبي مواويل تتحدث عن ضحايا دنشواى ، وعن الباشا مصطفى كامل ووقفاته (وجفاته) فارتبطت الحركة الوطنية في المدينة بالحركة الوطنية في القرية أو زادت ارتباطاً . وسقط الاتهام الذي لا يقوم على أساس أن مصطفى كامل ، كان زعيما للطلبة والأفندية ، وأن حركته كانت تستبعد الفلاحين ، ولا تحسب حساب العمال .

مصطفى كامل السياسي :

ولكن هذا النجاح العظيم الذي لقيته حركة مصطفى كامل ، أو قل حركة الحزب الوطني ، لم يكن ليكتب لهـا . إلا بفضل مواهب مصطفى كامل السياسية ، فمن البداية قرر أن يكون مبدؤه هو (الجلاء) ، فلم يقع في فخ (الاستقلال) الذي يمكن أن يقترن بشروط ، وأن يوصف بأوصاف تجرده من جوهره وقد عرفنا جميعاً كيف استقلت مصر ثلاث مرات في ثلاث معاهدات ، استقلت في تصريح ٢٨ فبراير واستقلت في معاهدة ١٩٣٦ واستقلت في اتفاقية سنة ١٩٥٤ ، ولكنها لم تظفر بالاستقلال الصحيح إلا حينما جلا الانجليز عن مصر فعلا في يوم حادث دنشواى ، أي ١٣ من يونيه سنة

١٩٥٦ . والأمر الثانى أن مصطفى كامل ، جعل كفاحه يقوم على عمادين: الجلاء والدستور . ولم يكن يؤمل بطبيعة الحال أن يظفر بدستور صحيح إلا بعد الجلاء ، ولكنه كان يطلق يد المصريين فى شئون بلادهم جميعاً سياسية واقتصادية ما كان يمس المصريين وما كان متعلقاً بالأجانب ، على عكس الدستور الأعرج الذى كان يدعو إليه ويقتنع به أحمد لطفى السيد الموصوف بأستاذ الجيل .

ولم تكن الدعوى إلى الدستور إلا جزء وتمهيداً وتدعيماً لحركة التحرر الوطنى والنضال ضد الاحتلال والسعى للاستقلال السياسى والاجتماعى الشامل .

ولو وفقنا فى حركة فلسطين إلى ماوفق إليه مصطفى كامل ، لما انزلقنا إلى المصطلحات الاستعمارية فأسمينا أزمتها بأزمة الشرق الأوسط ، وطمسنا اسم فلسطين ، ولما اعتبرنا من عناصرها استرداد حقوق شعب فلسطين المشروعة كأن هناك حقوق غير مشروعة .

ولقد هدت مصطفى كامل سليقته السياسية أن يستغل شباب الخديو عباس فقد كان فى سن مصطفى كامل تماماً وفى العائلة العلوية ظاهرة تكررت كثيراً وهى ظاهر الملك أو الأمير الشاب المتحمس لمصر الراغب فى منازلة الاحتلال البريطانى المتهيء للمجازفة حتى بالعرش الذى لايلبث أن يخفف من حماسه ويقلل من اندفاعه ثم يبتعد عن الحركة الوطنية حتى يكاد ينقلب عليها ثم يعاود منازلتها وقد أحسن مصطفى كامل ، استغلال الخديو للحركة ، ولم يسمح له بأن يستغل هو الحركة . ففى بدايتها كانت صلة المجاهدين بالخديو ممثلة بالوساوس عنهم لعلو مكانة الحاكم فى بلادنا وحب الناس للدنو من السلطان.

وإذا كان الخديو قد منح الحركة الوطنية بقيادة مصطفى ، بعض المال ، فقد استطاع مصطفى بهذا المال القليل نسبيا أن يستخرج منه أضعاف أضعاف قيمته بالعمل السياسى فى الداخل والخارج وإذا كان مصطفى كامل قد قطع صلته بالخديو علنا بخطابه المدو فى ٢٤ من أكتوبر ١٩٠٤ الذى قال له فيه جملته المشهورة : وأنى أرجو أن يعتقد مولاى حفظه الله أنى لم أقصد إلا محض خدمته بما قلته لسموه بشأن أولئك المفسدين الذين يلتصقون بالمعية (أى الحاشية) ويضرون بها أكثر من أعدائها الظاهرين ويدخلون اسمكم الكريم فى كل حادث حاسبين للرأى العام حسابا ، فقد كان قراره هذا فى الوقت المناسب إذ بلغ الخديو فى هذه المرحلة من سوء السيرة والتوسط فى الفساد والتنكر للحركة الوطنية إلى الحد الذى أصبح معه عبء على هذه الحركة . والقارىء للخطابات التى تبادلها مصطفى كامل مع صديق صباه وزميل كفاحه والأمين الأول للحزب الوطنى محمد فؤاد سليم الحجازى والتى نشرها الأستاذ عبد العزيز دنيا ، والرسائل التى تبادلها مع صديقه عبد الرحيم أحمد يرى كيف يتوثب مصطفى كامل على الخديو عباس ويعنفه ويشتد فى خطابه كلما لاحظ منه إهمالا أو تقصيراً فيقطع بأن مصطفى كامل لم يكن صنيعة الخديو وإنما كان الخديو أداته والخطاب المؤرخ ١١/١٠/١٨٩٥ المرسل منه إلى فؤاد سليم يدل على أن مصطفى كامل كان يريد أن يدبر للحركة الوطنية ٤٠٠ جنيها فى السنة من ثلاثة من الوطنيين هم لطيف باشا سليم ومحمود بك أبو النصر المحامى وابراهيم بك الهلباوى ليستغنى تماما عن الخديو وقد ختم هذا الخطاب :

« تبلغ والدك أنى باسم الوطن المقدس وليس باسم الصداقة ألتمس منه وحده أن يرسل إلى مبلغ ١٥٠ جنيها هذا الشهر لهذه السنة كلها ولن أطلب منه شيئا بعد ذلك ، وفى السنة المقبلة سوف أدبر أمرى . فوالدك يدفع ١٥٠ جنيها والهلباوى ١٥٠ جنيها ومحمود سالم ١٠٠ جنيها (٤٠٠ جنيها) من هؤلاء الوطنيين الثلاثة ستكون لها قيمة عندى أكبر من نقود العباس .

وما كان ممكنا أن تغيب عن مصطفى كامل السياسية وسليقته السليمة أهمية العلاقة بين مصر وتركيا فى المجالين السياسى والدعائى فسياسة بريطانيا المعلنة والمستمرة فى القرن التاسع عشر هى المحافظة على تركيا وممتلكاتها لإبقائها شبحا تتذرع بوجوده لمواجهة مطامع امبراطورية روسيا والنمسا والمجر وفرنسا وألمانيا فى مستعمرات سلطان تركيا ولقد كان إحتلال بريطانا لمصر فى ١٤ من سبتمبر ١٨٨٢ مخالفة صريحة لهذه السياسة وخروجا صارخا عليها ولذلك فقد أعلنت بريطانيا مرارا أن إحتلالها لمصر إجراء مؤقت وإنها ستجلو عنها فى أقرب وقت ممكن ولقد إضطرت أمام ضغوط الدول الإستعمارية الأخرى لأن تبذل ٧٤ وعدا بالجلاء الأمر الذى لم تفعله قط فى جانب آخر من إمبراطوريتها الفسيحة التى لم تكن تغرب عنها الشمس فإذا لم يستغل مصطفى كامل هذا الضعف المبين فى موقف بريطانيا فى مصر لكان سياسيا فاشلا عديم الإحاطة بتفاصيل القضية التى ندب نفسه للدفاع عنها .

وقد أراد خصوم الحركة الوطنية وخصوم مصطفى كامل نفسه الذين غاظهم نجاح الحركة ونجاح قائدها وتزايد عدد خصوم الإحتلال وإنفضاض الناس من حوله وغلبة الاحساس بأن أنصار الاحتلال هم خونة وأن الولاء له جريمة فأرادوا أن ينتقموا لأنفسهم فرموه ـ عن غرض ـ بأنه كان يبشر بتبعية مصر لتركيا وأنه بذلك لم يكن داعيا لاستقلال مصر بقدر ما كان داعيا لتبعية مصر للدولة العلية . ولقد رد مصطفى كامل على هذا الإتهام الساقط خلال حياته السياسية كثيرا من ذلك ما جاء فى خطاب له لمدام جوليت قال فيه « إنك تعلمين خطتى مع تركيا فانه وإن كان المصرى لا يعرف وطنا واحدا هو مصر ، فمن الأمور الطبيعية المحضة أن يساعد المصريون دولة الخلافة ويظهرون بذلك امتنانهم لها لأنها لم تزد أن تكون آلة فى يد الانجليز » وقال فى خطبته فى يوم ٢٢ أكتوبر ١٩٠٧ « رمانا الطاعنون بأننا نريد أن نخرج الانجليز من مصر لنعطيها لتركيا ... أى أننا نريد تغيير الحاكمين ولا نطلب الاستقلال . وليعلم أعداء مصر أننا نطلب لهاذلك الاستقلال بأعلى أصواتنا

وعلى مسمع من أمم الأرض كلها وأننا أخلصنا الود لأمة أو لدولة فإننا نعمل كغيرنا ونتبع ناموس الطبيعة القاضى بأن من اتفقت مصالحهم يجتمعون ويتناصرون ، وقال قبل ذلك فى ٢٧ من يناير ١٩٠٧ «يستحيل علينا أن يطلب واحد منا مالكا أجنبيا عنا فنحن لا نود إلا أن نكون قوة محالفة للدولة العلية ننصرها وتنصرنا وتعتز بنا » وإذا كانت فكرة الجامعة الإسلامية قد شغلت مصطفى كامل فلأنه ود أن يتخذ منها سبيلا لدعم مصر أمام الانجليز ولدعم تركيا أمام أوربا فقد كان يحس بأن انهيار تركيا معناه سقوط مصر والبلاد العربية جميعاً فى إستعمار أكثر ضراوة وقد تحقق ذلك فعلا ، فإنه لم تكد تركيا تغيب عن الوجود السياسى حتى تدفقت جحافل الاستعمار الغربى على العراق وسوريا وفلسطين ، فازداد الاحتلال البريطانى فى مصر ثباتا وتوسعا فأنشأ الوطن القومى لليهود ليكون مقدمة لاسرائيل وأقام نظاماً مخنثا فى لبنان وعاث فسادا فى شرق البحر الأبيض المتوسط ، بل أن مصطفى كامل كان يتحدث عن اتحاد إسلامى مسيحى لا تزال فكرته تساور كثيرين من رجال السياسة المستنيرين الذين يعتبرون إسرائيل هى طليعة تعاون بين اليهودية العالمية والمسيحية الغربية ، فى مواجهة المسيحية الشرقية والاسلام أى جبهة الإستعمار والمال والإستغلال الدولى فى مواجهة حضارة الفكر المستنير والتسامح والتعاون الإنسانى .

بذور :

ولم تكن فكرة الجامعة الإسلامية والإتحاد المسيحى الاسلامى سوى واحدة من الأفكار التى ألقى مصطفى كامل بذورها لتكون فى مجموعها مشتلا تخلق مصر التقدم ، مصر الحضارة ، مصر السلام العالمى . فمصطفى كامل هو أول الدعاة للدستور لمبادىء وهو أول الدعاة للجامعة وهو أول الدعاة للاستقلال وهو أول دعاة للتعاون ، لنشر التعليم الصناعى ولتقرير التعليم المجانى والإلزامى ، وهو منشىء نادى المدارس العليا الذى كان موطنا لطلائع الثورة التى اندلع

لحيها بعد وفاته بعشر سنوات فى سنة ١٩١٨ فهو الذى حضر لها وهيأ السبيل خليفته محمد فريد . إن ثورة سنة ١٩١٩ هى ثورة مصطفى كامل ومحمد فريد وقد ادهشت هـــذه الثورة بانفجارها الذى بدا مفاجئاً وبشدتها واتساع نظامها وحسن تنظيمها وتلقائية حوادثها وتتابع وقائعها فاجأ حتى الذين كتب لهم أن يمسكوا بزمامها وأن يتولوا زعامتها ذلك لأن الحرب العالمية الأولى قطعت مسار الأحداث أو أوهمت الناس بأنها قطعته ولكن الغليان الذى كان قد بلغ السطح فى أخريات عهد محمد فريد والذى كانت مقدمته فى ٣١ مارس ١٩٠٩ بمظاهرات الاحتجاج على قانون المطبوعات اختفى لمدة أربع سنوات فقط وهى سنوات الحرب فلما انتهت الحرب ووضعت أوزارها كان ذلك الانفجار الرائع .

نجاح وحياة :

لقد عاش مصطفى كامل حياته كلها لفكرة واحدة ملكت عليه زمام عواطفه واستبدت بكل دقيقة من عمره وبكل قطرة فى دمه . تلك هى فكرة الجلاء فانقطع لها انقطاع الراهب المتنسك فلم يتزوج ولم يرزق بالأولاد ولا البنات ولم يشغل وظيفة ولم يمارس هواية ولم يستمتع بعطلة ولم يقل حرفا فى كلمة ولم يخط خطوة فى مصر ولا خارجها إلا من أجل هذه الفكرة ورغبة فى تحقيقها وتقريب اليوم الذى تشرق فيه شمسها فقد خطب وكتب وسافر وارتحل ، وأنشأ الصحف يومية وأسبوعية وشهرية بالعربية والإنجليزية والفرنسية ، وعقد المؤتمرات وأنشأ الصلات واحتمل الأذى والتشهير والادعاء ضده والتنديد به لكى يبث فى قلوب المواطنين كره هذا الاحتلال وبغضه وبعث الأمل فى مستقبل أمته وعودة ماضيها واستئناف سيرها من الحضارة . حتى اذا ما نادى مصطفى ربه فى العاشر من فبراير ١٩٠٨ انفجر حزن المصريين بدوى مروع أذهل أعداء هذا الوطن العظيم الخالد وأطار صواب أعداء

هذا الزعيم الشاب الطاهر فكانت وفاته بعثاً وموته حياة وكان مأتمه حشداً للقوى كما كان البكاء عليه نفير الزحف .

ولعلنا لانجد وصفاً أوفى وأبلغ مما كتبه سعد زغلول فى مذكراته لجنازة ومأتم مصطفى كامل وكان سعد آنذاك وزيراً للمعارف قال :

« ماوصلت مصر من رحلة تفتيشية بالفيوم حتى علمت فوق ماقرأت « وأصبحت الناس لاحديث لها إلا هذه الوفاة وما أصاب الناس من الفزع « الأكبر من هولها وأكثر الناس الإعجاب بالجنازة ومن كان منهم لايعبأ « بالمتوفى فى حين حياته اهتم لوفاته اهتماما كبيراً وعد التفاف الناس حوله « وبكاء الكثير منهم علامة على تشبع الشعور الوطنى ودليلا على نمو الإحساس « فى الناس وذهبوا إلى أنه هو الذى أوجـــد هذا الشعور الشريف ونماه « وافتتحت الجريدة (صحيفة أحمد لطفى السيد) وهى من الجرائد المخالفة « والتى كانت بينها وبين جرائده خلافات شديدة اكتتابا لرفع تمثال له تذكاراً « لشأنه واكتتب الكثير فيه أول مرة بمبلغ يزيد عن خمسمائة جنيه وقد سارت « تلاميذ جميع المدارس الثانوية والعالية والخصوصية فى الجنازة كل مدرسة « وراء علم مخصوص مجلل بالسود مكتوب فيه اسمها وساد السكوت كأن على « رءوسهم الطير .

إلى أن قال :

« وبالجملة فإنك لاتجلس إلى مجلس ولاتجتمع مع صاحب ولاتأوى إلى « بيت ولاتطالع جريدة ولاتسير فى الأسواق ولاتركب الترام إلا وتسمع « وتقرأ نبأ عن مصطفى كامل ويخيل إليك أن كل ماأنت فيه من شعور بهذا « الرجل وحزن عليه » .

وماقاله سعد فى هذه السطور الطويلة قاله قاسم أمين واستنبط معناه فى كلمات قصيرة حارة باقية .

« ١١ فبراير سنة ١٩٠٨ يوم الاحتفال بجنازة مصطفى كامل هى المرة « الثانية التى رأيت فيها قلب مصر يخفق ، المرة الأولى كانت يوم تنفيذ حكم

« دنشواى أما فى يوم الاحتفال بجنازة صاحب اللواء فقد ظهر ذلك الشعور
« ساطعا فى قوة جماله وانفجر بفرقعة هائلة سمع دويها فى العاصمة ووصل
« صدى دويها إلى جميع أنحاء القطر هذا الإحساس الجديد . هذا المولود
« الحـــديث الذى خرج من أحشاء الأمة من دمها وأعصابها هو الأمل
« الذى يتقدم فى وجوهنا العابسة هو الشعاع الذى يرسل حرارته إلى قلوبنا
« الجامدة الباردة هو المستقبل » .

فقد كان مصطفى يقول أنه يريد أن يوقظ فى مصر الهرمة مصر الفتاة وكان يقول أنه يصبو إلى تحقيق هذا الجمال وقد رأى فى حياته انتصارات باهرة وهزائم مريرة رأى إقبالا ولكن الحركة الوطنية كانت تتقدم أبداً فى خطى سريعة حينا وفى خطىء وئيدة وطيدة حينا آخر ولكنها لم تتوقف قط فإذا كان يوم ١١ فبراير يوم الرحيـــل فإذا كان اليوم الذى ظن فيه أعداء مصر أن علمها نكس وصوتها أخمد وسعيها أوقف خرجت الجموع من كل فج ورفعت الأعلام فى كل سماء وإذا الأمة كلهـا فى وحدة كأنها قبضة اليد تلوح فى وجه الغاصب فى حزن كظيم وعزم عظيم وإرادة لاتتزعزع وتصميم لايتصدع ... وإذا هذا كله له معنى واحد: مصر الخالدة لن تموت أبداً .

الفكر السياسى لمصطفى كامل

الدكتور محمد محمود السروجى
أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر
كلية الآداب — جامعة الاسكندرية

ظهر مصطفى كامل فى أعقاب أحداث جسام تتابعت على مصر فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ؛ من تدخل أجنبى فى شئونها الداخلية ، وصل ذروته فى عزل الخديو اسماعيل ، إلى ظهور حركة الجامعة الإسلامية على يدى جمال الدين ، إلى قيام الثورة العرابية متأثرة بمبادئها ، إلى نكسة أصابت الحركة الوطنية وما تلى ذلك من تصفية الثورة المصرية والقضاء على جيش مصر الوطنى ، إلى تشكيل محاكم عسكرية لمحاكمة زعماء الثورة والتنكيل بهم ، فحكم على بعضهم بالإعدام ، ثم استبدل بالنفى المؤبد ، ومصادرة أملاكهم وحرمانهم من رتبهم وألقابهم . أما بقية رجال الثورة ، فكانوا بين مشرد أو منفى أو مسجون أو مراقب .

ولن نستطيع فهم حركة مصطفى كامل حق الفهم ، ما لم نلم بصورة سريعة بالأحوال التى كانت سائدة فى مصر وقتئذ ، وبموقف الدول الأوربية الكبرى من الاحتلال الانجليزى لمصر . فهذه الحركة قد اعتمدت فى انتشارها على فهم واستغلال الأوضاع الداخلية والخارجية لمصلحة القضية المصرية .

احتلت بريطانيا مصر بقوة السلاح ، ولكنها كانت فى حيرة من أمر تقرير مصيرها ، فوزير خارجيتها لورد جرانفل لم يكن مستقراً على حل معين ، وخاصة بعد أن اختلفت الآراء بإزاء هذه المسألة فى مجلس الوزراء البريطانى .

ولكن ، إذا كانت الوزارة البريطانية قد صممت على شيء ، فهى أن ترفض رفضاً باتاً تدخل الدول الكبرى مجتمعة أو منفردة فى حل هذه المسألة أو مناقشتها . ومع هذا كانت الحكومة البريطانية تحس بضعف مركزها فى مصر وعدم شرعيته من ناحية القانون الدولى .

ولذا وجدت أن من الحكمة ترضية الدول الأوربية الكبرى ، وكذلك الدولة العثمانية ، بأن تعلن من حين لآخر فى البرلمان البريطانى وخارجه ، وخاصة فى السنوات الأولى للاحتلال أن ليس فى نيتها البقاء فى مصر ، وأنها ستجلو عن البلاد حين تستتب الأمور فيها .

وفى نفس الوقت أخذت الحكومة البريطانية تؤثر على الرأى العام الإنجليزى بضرورة البقاء فى مصر ، مبينة له أهمية مصر كطريق للمواصلات العالمية ، فضلا عن أهميتها الخاصة بالنسبة لها . وأما الرأى العام المصرى ، فلم تكن بريطانيا تكترث له كثيراً فى أول الأمر ، ويمكن قمعه بالقوة إذا تطلبت الظروف ذلك ، لا سيما بعد تصفية الثورة وتشتيت زعمائها .

ولذا فقد استقر رأى الحكومة الإنجليزية أخيراً ، على اتباع نصيحة المستشار الألمانى بسمرك التى تنطوى على بقاء الاحتلال الإنجليزى فى ظل السيادة العثمانية ، ولكنها فى نفس الوقت عملت على جعل هذه السيادة فى أضيق الحدود ، حتى لا تغل يدها فى حكم مصر .

لقد ادعت بريطانيا - كما صرح كبار ساستها — بأن لها ثلاث مهمات رئيسية فى وادى النيل :

المهمة الأولى : تجاه الحضارة والإنسانية ، وتقوم على إعادة الحياة الطبيعية فى مصر ، والوصول بالبلاد إلى الاستقرار ، وإنجاز الإصلاحات اللازمة . وهذه المهمة — كما هو واضح — محاولة من جانب بريطانيا لتبرير

وجودها فى مصر أمام الرأى العالمى الذى كان لا ينظر بعين الارتياح إلى هذا الوجود .

والمهمة الثانية : هى حماية المصالح الخاصة لبريطانيا ، وهى المهمة الحقيقية الاحتلال .

أما المهمة الثالثة والأخيرة : فهى حماية الأقليات فى مصر ، والمحافظة على مصالحها . والغرض من هذه المهمة هو إرضاء الدول التى لها رعايا ومصالح فى مصر . فكأن الإنجليز قد اعتبروا أنفسهم ممثلين لأوربا ، ينوبون عنها فى الدفاع عن مصالحها .

وقد تطلب قيام بريطانيا بهذه المهمات أن تستأثر بالسلطة فى مصر دون سواها ، مستفيدة من مركز مصر الدولى الخاص فى إبقاء هيكل النظام التنفيذى — إلى حد ما — على ما هو عليه فمصر من ناحية القانون الدولى تابعة للدولة العثمانية ، ومنها يستمد الخديو سلطته من الناحية النظرية . وللخديو الحق فى تعيين الوزراء وإقالتهم من مناصبهم بعد أخذ رأى المعتمد البريطانى . أى أن سلطة الخديو كانت مقيدة بنصائح المعتمد البريطانى الملزمة .

كذلك لم يكن للوزراء المصريين سلطان حقيقى إلى جانب المستشارين الإنجليز . أى أن الحكومة الإنجليزية قد أبقت هيكل السلطة المصرية الحاكمة بعد أن سلبتها أهم مقومات وجودها . وبذلك أصبح المعتمد البريطانى إيفلين بيرنج (اللورد كرومر) الملك غير المتوج لمصر . وقد استمد قوته من جيش الاحتلال ، ومن تأييد دولته ، ومن ثقته التى لا حد لها بنفسه . ولعب هذا الرجل دوراً كبيراً فى تثبيت سلطة بريطانيا فى وادى النيل ، معتمداً على القوة والبطش ، حتى فى الأوقات التى كانت تنصحه فيها حكومته بالاعتدال . ورغم استقرار الأمور بالنسبة لبريطانيا فى مصر ، فكانت تشعر بضعف مركزها من الناحية الدولية .

أما عن موقف الدول الأوربية من الاحتلال ، فقد كان بصفة عامة مؤيداً لها فيما عدا موقف فرنسا . فإذا تناولنا موقف ألمانيا مثلا نجد أنه كان أقوى المواقف تأييداً للاحتلال . فمنذ سنة ١٨٧٦ لم يكن لدى المستشار الألماني بسمرك أى مانع من أن تحتل بريطانيا مصر ، تطبيقاً لسياسة التعويض والاستصلاح التي وضعها كحل عملي للمسألة الشرقية . وترمى تلك السياسة إلى تقسيم ممتلكات الدولة العثمانية بين أصدقائه من الدول الكبرى ، فتأخذ روسيا شرق البلقان ، والنمسا غربه ، وتستولى بريطانيا على مصر ، ويحتل الفرنسيون تونس أو سوريا . وإذا احتج الإيطاليون فليذهبوا إلى طرابلس (ليبيا) وسجل بسمرك هذا الرأى فى مواطن عديدة .

لم تقف الحكومة الألمانية موقف المعارضة للاحتلال الإنجليزى إلا حين أخذت الحكومة الإنجليزية تعارض السياسة الاستعمارية الجديدة التى انتهجتها ألمانيا منذ عام ١٨٨٤ . ولم يتردد المستشار الألمانى فى أن يوضح للإنجليز بأنهم إذا ناقشوا حق ألمانيا فى الاستعمار ، فإن من حق ألمانيا أن تناقش حقهم فى مصر . وأشفع المستشار الألمانى هذا التحذير بتأييد وجهة نظر فرنسا بشأن الأوضاع المالية فى مصر ، فأحرج مركز بريطانيا فى مصر ، فاضطرت الحكومة الإنجليزية إلى الالتقاء مع مصالح ألمانيا الاستعمارية ، وبذا عادت ألمانيا من جديد إلى تأييد الاحتلال الإنجليزى مرة ثانية .

وإذا تناولنا موقف إيطاليا من الاحتلال ، نجد أن الإيطاليين لم ينظروا بعين الرضا إلى هذا الاحتلال ، ولكن سوء علاقاتهم بفرنسا ، وخوفهم من اعتدائها عليهم ، جعلهم لا يجهرون بهذا الشعور . وكانت سلواهم الوحيدة — فى الواقع — أن الاحتلال الإنجليزى لمصر قد وجه ضربة قاضية لنفوذ فرنسا فى البحر المتوسط ، ولا سيما فى شرقه .

وإزاء هذا الموقف المؤيد من جانب الإيطاليين ، أيدت بريطانيا سياسة

إيطاليا الاستعمارية فى شرق أفريقيا ، وكذلك أظهرت عطفها على آمال الإيطاليين فى طرابلس . ولهذا حرصت إيطاليا على عدم إغضاب بريطانيا فيما يختص بالمسألة المصرية .

أما عن موقف النمسا فكان مؤيداً تأييداً تاماً للسياسة الألمانية فى تعضيدها للسياسة الإنجليزية فى مصر . وفيما يتعلق بروسيا ، فلم يكن لديها مانع من تأييد السياسة البريطانية فى مصر ، طالما أيدت بريطانيا سياسة روسيا فى البلقان .

ومنذ عام ١٨٧٨ وقفت روسيا إلى جانب السياسة الألمانية المؤيدة للاحتلال الإنجليزى . ولكن منذ عام ١٨٨٣ عارضت سياسة بريطانيا فى مصر ، واستمرت تلك المعارضة إلى عام ١٩٠٧ حيث تم التقارب الإنجليزى الروسى .

وفى النهاية نأتى إلى موقف فرنسا من الاحتلال ، وهو موقف المعارضة الحقة ، فقد اعتبرت فرنسا الاحتلال الإنجليزى إخلالا بالتوازن الدولى فى البحر المتوسط ، وضربة قاتلة وجهت لنفوذها السياسى والأدبى فى تلك المنطقة . ومن ثم حاولت فرنسا إثارة العراقيل أمام بريطانيا لا فى مصر وحدها ، ولكن فى كل مكان من العالم وجدت لبريطانيا مصلحة فيه ، فأثارت الدول الأوربية ضد الاحتلال ، وأيدت سياسة روسيا التوسعية فى أواسط آسيا وفى الشرق الأقصى ، لمناوأة النفوذ الإنجليزى هناك .

أما فى مصر فقد عاضت بشدة سياسة بريطانيا المالية ، وتمسكت بامتيازات الفرنسيين ، وأصرت على ضرورة مطالبة بريطانيا بتحديد موعد للجلاء ، وأيدت حركة مصطفى كامل . ووصلت العلاقات الفرنسية الإنجليزية ذروتها من السوء فى حادثة فاشودة ١٨٩٨ . وبعدها بدأت الدولتان تعيدان

النظر فى سياستهما إزاء بعضهما . ومهد هذا لعقد الاتفاق الودى بينهما فى عام ١٩٠٤ .

هذه هى الظروف الدولية التى أحاطت بمصر عند ظهور مصطفى كامل ، والتى كان عليه أن يواجهها بشجاعة وإدراك . وعلى قـــدر فهمه وإدراكه لتطبيقها على قدر ما يحرزه من نجاح . ومما لا شك فيه فإن مصطفى كامل قد أحسن إدراكها ، وحاول استغلالها لمصلحة حركته ما استطاع إلى ذلك سبيلا .

ولد مصطفى كامل فى ١٤ أغسطس ١٨٧٤ بالقاهرة فى الفترة العصيبة والخصبة فى نفس الوقت من تاريخ مصر . أى شاهدت طفولته السنوات الأخيرة من عصر إسماعيل ، حيث التدخل الأوربى على أشده ، والأزمة المالية تأخذ بخناق مصر ، والديون تتراكم عليها بسرعة كبيره ، ثم سقوط اسماعيل ، وتولية ابنه محمد توفيق ، ودوى صوت جمال الدين ، ونداءات عبد الله نديم .

فى هذه الفترة الحاسمة من تاريخ مصر ، كانت البلاد تتمتع بجانب كبير من الاستقلال الداخلى ، ولا تربطها بالدولة العثمانية سوى رابطة اسمية ، وفى ظل هذا الاستقلال كانت الحركة السياسية فى مصر حركة مصرية صرفة .

ولكن بمجىء الإحتلال الإنجليزى ، وما صحبه من فقدان مصر لاستقلالها وحريتها ، وما تعرض له زعماؤها من سجن ونفى وتشريد ، أن تحولت الحركة القومية من حركة مصرية صرفة إلى حركة مصرية تستظل بظلال حركة الجامعة الإسلامية . وليس كما ذهب إليه البعض من أن الحركة القومية المصرية قد تحولت إلى حركة إسلامية عامة ، وفنيت فيها . وقد لاحظ اللورد كرومر ذلك ، فاعترف بوجود قومية مصرية متميزة عن حركة الجامعة الإسلامية .

ومما ساعد على هذا التحول كتابات المفكرين والأدباء المسلمين ، وعلى رأسهم جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده ، وخصوصاً فى جريدة العروة الوثق ، حيث كان الشيخان يحثان المصريين خاصة ، والمسلمين عامة بضرورة المطالبه بحقوقهم ، ودعم الروابط الإسلاميـــة فيما بينهم ، والدفاع عن عقيدتهم ، فلا جنسية للمسلمين إلا فى دينهم ، وقد سار على هذا النهج عبدالله نديم ، وعبدالرحمن الكواكبي،ومن لف لفهم . ونتيجةلذلكأصبحت الحركة القومية المصرية كبيرة الصلة بحركة الجامعة الإسلامية .

ومن الطبيعى أن يتجه المصريون ــ وهذا تفكيرهم ــ بل كل القوميات الإسلامية المغلوبة على أمرها إلىالدولة العثمانية والخلافة الإسلامية ، يلتفون حولها ، لمواجهة الدول الاستعمارية المسيحية المتعطشة للسيطرة والغزو . وقد وجدت تلك القوميات كل تأكيد وتعضيد من قبل الدولة العثمانية التى كانت تقف وراء حركة الجامعة الإسلامية بكل قوة .

فى هذا المناخ السياسى ، نما مصطفى كامل وترعرع ، وتفتحت مداركه على تلك المفاهيم السياسية التى رددها مفكرو وكتاب عصره ، خصوصاً وأنه قد تأثر بعبد الله نديم ، فقد استمع لخطبه وأحاديثه ، وقرأ جريدته ، واستمتع بزجله ، وأفاد من خبرته . فنه عرف حقيقة التيار السياسى فى مصر ، والأخطاء التى تردت فيها البلاد ، وأدت إلى إنهيارها وضياع استقلالها فى ثورة ١٨٨٢ ، وما أظن مصطفى كامل إلا أن وعى هذا حق الوعى ، وأدركه حق الإدراك .

فمصطفى كامل إذن قد ورث الفكر السياسى لدى جمال الدين ، فرأى فى الإسلام ـ كما رأى جمال الدين من قبل ـ الشعلة والدافع والمحرك والدعامة للقومية المصرية ، فهو الذى يقيها من الأيديولوجيات الغربية الدخيلة ، وهو الذى يدفعها خطوات إلى الأمام .

وأدرك مصطفى كامل أيضاً كما أدرك جمال الدين ، أن سبب تأخر المسلمين واضمحلالهم ، إنما يرجع إلى بعدهم عن الدين وتباعدهم عن بعضهم ، ومن هذا المنطلق دعا إلى تدعيم صلة مصر بالدولة العثمانية ، والارتباط بها . فدعوته إلى التحرر والإستقلال تدور داخل إطار حركة الجامعة الإسلامية .

وفى هذا المعنى يكتب مصطفى كامل إلى مدام جوليت آدم يقول :

« إنك تعلمين خطتى مع تركيا وما أراه واجباً نحوها ، فقد أوضحت عن ذلك فى خطتى ، وقد اعترف كثير من أصدقائنا اليونانيين بأنه من السياسة الوطنية لمصر أن تكون مع تركيا ، بما أن الانجليز يحتلون وطننا العزيز .

« وانه وإن كان المصرى لا يعرف إلا وطنا واحداً هو مصر ، فمن الأمور الطبيعية المحضة أن يساعد المصريون دولة الخلافة ، ويظهروا بذلك امتنانهم لها ، لأنها لم ترد أن تكون آلة فى يد الإنجليز » .

وقال أيضاً فى خطبة له فى ٨ يونيه ١٨٩٧ : « ان مظاهرة الأمة المصرية نحو الدولة العلية هى مظاهرة قوية ضد الإحتلال الإنجليزى . واشتراك أفراد الأمة على اختلافهم فى الاكتتاب للجيش العثمانى هو اقتراع عام ضد الانجليز فى مصر » .

ونظراً لنزعة مصطفى كامل العثمانية الإسلامية ، فقد لقيت دعوته آذانا صاغية ، واستجابة كبيرة من الشعوب والدول الاسلامية .

ورغم أن مصطفى كامل كان يختلف فى نشأته وفى تعليمه عن غيره من زعماء مصر ، من أمثال أحمد عرابى ورجال الثورة العرابية ، إلا أنه لم يبعد

عنهم كثيراً فى تفكيره السياسى . ومن ثم يمكننا القول أن مصطفى كامل وليد أحداث مصر فى أواخر القرن التاسع عشر .

وإذا كانت أوضاع مصر الداخلية فى ظل الإحتلال لم تساعد على ظهور حركة القومية المصرية ، لا سيما فى السنوات الأولى منه ، فان الأوضاع العالمية فى أواخر القـــرن التاسع عشر كانت فى صالح القوميات فى أوروبا وآسيا ، وقت ظهور القومية الألمانية ، والقومية الإيطالية ، وقت ظهور حركات الجامعات الجرمانية والصقلبية والطورانية ، وقيام حركة الجامعة الإسلامية كرد فعل للحركات السابقة .

وجد مصطفى كامل بثاقب نظره أن الإحتلال الإنجليزى لمصر يستند فى وجوده على موافقة الدول الأوروبية ـ فيما عدا فرنسا حتى عام ١٩٠٤ ـ هذه الموافقة القائمة على اعتراف تلك الدول بما لبريطانيا من سيطرة فعلية على مصر ، ولكن فى ظل سيادة عثمانية رسمية ، طبقاً للفرمانات ، فمركز مصر الدولى الذى حصلت عليه بمقتضى معاهدة لندن سنة ١٨٤٠ ظل الأساس الذى يحكم علاقات بريطانيا مع غيرها من دول العالم فيما يختص بالمسألة المصرية . ويحكم علاقاتها أيضاً مع الدولة العثمانية من ناحية ، ومصر من ناحية أخرى . فلما لا يتمسك بهذا الوضع الدولى ؟ ويطالب بريطانيا بتنفيذه ؟

فمصر بمفردها ـ فى نظر مصطفى كامل ـ لا تستطيع بوسائلها المحدودة أن ترجع بريطانيا عما انتوته بشأن مصر . ولذا فمن الحكمة أن يستغل مصطفى كامل مركز مصر الدولى ، بالإضافة إلى استغلال قوة حركة الجامعة الاسلامية فى المطالبة باستقلال مصر استقلالا ذاتيا ، طبقاً لما جاء بمعاهدة لندن ١٨٤٠ وفرمان ١٨٤١ والفرمانات اللاحقة له .

وكان مصطفى كامل يدرك أن مصر إذا ما استطاعت أن تتخلص من

الاحتلال الانجليزى الفعلى ، أصبح من السهل عليها بعد ذلك أن تتخلص من التبعية الاسمية للدولة العثمانية .

وبالرغم من ذلك فقد نفَّرت منه تلك الدعوة بعض المصريين الذين رأوا فيما ينادى به مصطفى كامل استبدالا لتبعية بأخرى ، أى أن مصطفى كامل لم يكن يطلب استقلالا حقيقيا لمصر ، وإنما باستقلال منقوص .

وفى هذا المعنى قال مصطفى مدافعاً عن رأيه هذا فى خطبة الوداع :

« رمانا الطاعنون بأننا نريد أن نخرج الانجليز من مصر لنعطيها لتركيا كولاية عادية ، أى أننا نريد تغيير الحاكين لا طلب الاستقلال والحكم الذاتى .

« وما هذه التهمة إلا تصريح بأن علوم الغرب وآدابه التى نقلت إلى مصر من مدة قريبة من الزمان مازادتنا إلا تمسكا بالعبودية والمذلة ، وأن معرفتنا لحقوق الأمم وواجباتها لم ترشحنا إلا أن نكون عبيداً أرقاء . فهذه التهمة هى مسبة للمدنية والمتمدينين ، وقضاء على الأمة المصرية بأنها لا ترقى أبداً ولا تبلغ غيرها من الشعوب ، لأنه إذا كان المتعلمون من أبنائها يطلبون إحلال نير محل نير ، وإستبدال استعباد باستعباد ، فكيف يطمع طامع فى تقدمها وإرتقائها ووجود خير وطنى لها ؟ » .

وكان برنامجه فى نشر دعوته (الجلاء والاستقلال) يقوم على أمرين : أحدهما خارجى ، والآخر داخلى ، وقد حدده فى حديث مع الصحفى الأمريكى جولدنيك فى مارس ١٨٩٧ حيث يقول : « أننا نبنى نجاحنا فى عملنا على أمرين : الأول خارجى ، وهو إنتهاز الحوادث الدولية ، والثانى

داخلى وهو نشر العلوم والمعارف بين اخواننا المصريين ، والتشهير بأخطاء الاحتلال الانجليزى ... »

فإذا تناولنا العامل الخارجى نجد أن مصطفى كامل حاول استغلال القوى الخارجية المناهضة للإحتلال الانجليزى ، ولا سيما فرنسا التى عارضته بكل قواها ، لأنها لم ترض بتفوق النفوذ البريطانى فى شرق البحر المتوسط وفى وادى النيل ، وقد وجد مصطفى كامل فى مدام جوليت آدم ، وفى مفكرى فرنسا خير عون له على نشر دعوته والتنديد بالاحتلال الانجليزى .

ولكن من الغريب أن مصطفى كامل - رغم فهمه للتيارات السياسية الخارجية وقتذاك - فقد اعتمد على معونة فرنسا فى مقاومة الاحتلال ، ووضع عليها آمالا كباراً . وما درى أن معارضة فرنسا للوجود الانجليزى فى وادى النيل ، لم تكن قائمـــة على مبادى إنسانية ، أو حب فى مساعدة الشعوب المغلوبة على أمرها ، لأن فرنسا نفسها لم تكن منزهة عما رمت به الانجليز فى مصر ، فقد فعلت مثل ذلك ، بل وأكثر منه ، فى الجزائر وتونس من قبل . وإنما كانت معارضة فرنسا نوعاً من المساومة للحصول على ما يعوضها عما فقدته من نفوذ فى وادى النيل . ولهذا فالجهد الكبير الذى بذله فى فرنسا كان جهداً ضائعاً ، وكان الأولى أن يبذله فى مصر . وقد عرف تلك الحقيقة بعد توقيع الاتفاق الودى ، فضاعف من جهوده الداخلية بشكل يسترعى الانتباه .

كذلك لم يدخر مصطفى كامل وسعاً فى الاتصال بساسة أوربا ومفكريها من إنجليز ونمساويين ومجريين ، وفى الكتابة فى الصحف والمجلات الأجنبية . وهدفه من ذلك تأليب شعوب أوربا على الاحتلال . وقد أوضح هذا الهدف فى رسالة بعث بها إلى مدام جوليت آدم يقول فيها : « ولعلك

ترين أنى أجمع حول مسألتنا من العواطف ما يصل إليه جهدى ، فإنى أنشر الحقيقة فى كل مكان، وفى جميع البلاد أجعل أعداء المحتلين أكثر مما كانوا».

كما اعتمد على تعضيد وتأييد السلطان العثمانى عبد الحميد الثانى فى كفاحه ضد الإنجليز . وقد وجد السلطان فى مصطفى كامل الأداة الفعالة فى مقاومة النفوذ الإنجليزى فى مصر ، فكل منهما متفق مع الآخر فى القضاء على هذا النفوذ ، وان أختلفت أهدافهما . وقد تقابل مصطفى كامل مع السلطان عبد الحميد فى الآستانة بالجامع الحميدى فى ٣٠ أكتوبر ١٨٩٦ ، وأدى هذا التقارب بين الرجلين إلى إنعام السلطان عليه برتبة الباشوية تكريماً لجهوده ، وتعزيزاً لمركزه فى مصر فى مواجهة سلطات الإحتلال .

« وفى ذلك الوقت أيضاً وجد الخديو عباس الثانى — بعد أن ساءت علاقته بالمعتمد البريطانى — فى مصطفى كامل خير معين له على الوقوف فى وجه اللورد كرومر الذى حرمه من ممارسة سلطاته الشرعية كحاكم لمصر.

ولم يكن إنضمام الخديو إلى الحركة القومية إيماناً منه بها ، وإنما لإتخاذها مطية للوصول إلى أهدافه . وقد أفصح عن هذا فيما كتبه من مذكرات حول هذا الموضوع ، فيقرر بأنه قد إتجه أول الأمر إلى الجيش . فأرتدى الزى العسكرى تقرباً إليه . فلما أفلت من يديه لدخول ضباطه الماسونية يقول ، « تحولت إلى الشباب فلبست اللباس المدنى ، وقربت منى مصطفى كامل ولجنته السرية التى كنت اجتمع بها ليلا فى مسجد بناحية سراى القبة » .

ولكن إنضمام الخديو إلى الحركة القومية — من وجهة نظر مصطفى كامل — كان تأميناً لظهرها فى مواجهة الإنجليز حتى لا يقع فى نفس الخطأ الذى تردى فيه العرابيون ، عندما عادوا الخديو توفيق فذهبوا به إلى أحضان الانجليز .

هذه المرحلة من كفاح مصطفى كامل ، ألا وهى مرحلة الاعتماد على العون الخارجى أياً كان نوعه ، مع عدم التركيز على الجبهة الداخلية كأساس لا غنى عنه لنجاح أية حركة قومية ، كان لابد أن تصل إلى نهايتها بتقارب بريطانيا وفرنسا — بعد أن وصلت العلاقات بينهما إلى ذروتها من السوء فى حادثة فاشوده — وميلهما إلى تصفية ما بينهما من خلافات ، لا سيما بعد استفحال خطر ألمانيا ، فعقدت الدولتان الاتفاق الودى فى سنة ١٩٠٤ هذا الاتفاق الذى أطلق يد فرنسا فى مراكش ، فى مقابل إطلاق يد بريطانيا فى مصر .

زلزل المصريون زلزالا شديداً عندما علموا بنبأ توقيع الاتفاق ، وانهار أملهم فى مساعدة أوربا لنيل استقلالهم ، وقد عبر مصطفى كامل عن شعور المصريين فى ذلك الوقت أصدق تعبير فى حديثه لجريدة الأكلير ، حيث يقول : « كلا ، إننا لم نيأس ، ولن نيأس أبدا من مستقبل الوطن العزيز ، ولكننا إذا كنا غير يائسين من مستقبل بلادنا ، فإننا يائسون كل اليأس من أى تعضيد يأتينا من أوربا » .

وبهذا تبدأ المرحلة الثانية ، مرحلة الكفاح الحقة لمصطفى كامل ، مرحلة الاعتماد على النفس فى الوصول إلى الاستقلال ، تلك المرحلة التى لم يدرك كنهها إلا بعد أن ظهر له زيف الاعتماد على المعونة الخارجية . فكتب فى ٢٢ أكتوبر ١٩٠٧ يقول : « ظن الساسة الانجليز أنهم إذا اتفقوا مع فرنسا على مسألة مصر ، طويت أوراق هذه القضية الخطيرة ، وخفت كل صوت ، ومات كل أمل ، وحل اليأس محل الرجاء ، وصار الشعب المصرى أثراً كتلك الآثار القـــديمة التى يأتى السائحون لرؤيتها كل عام . ولكنهم أخطأوا خطأ كبيراً ، نعم أخطأ أولئك الساسة الذين يظنهم العالم كله أمهر الناس فى تدبير الشؤون ، وإعداد الحوادث ، ومعرفة المستقبل ، أخطأوا

لأن العزلة التى صرنا إليها بعثت فينا روحاً جديداً أرشدنا إلى الحقيقة التى لا قوام لشعب بدونها ، ولا حياة لأمة بغيرها ، ولا وجود لنفر من الناس إذا لم يتبعوها، وهى أن الأمم لا تنهض إلا بنفسها ، ولا تسترد استقلالها إلا بجهودها » .

وفى هذه المرحلة يبذل مصطفى كامل جهوداً مركزة لتعويض مافات لتوعية المصريين ، وحثهم على التماسك والوحدة ومقاومة الإحتلال ، فأصدر جريدة اللواء ، ثم أخرج بعد ذلك جريدتين يوميتين إحداهما باللغة الفرنسية ، والثانية باللغة الإنجليزية . هذا بالإضافة إلى الخطب والأحاديث التى لا تنقطع ، والتى كان يدلى بها فى القاهرة أو الاسكندرية .

آمن مصطفى كامل بأن العمل السياسى يحتاج إلى دراسة وتنظيم وتوعية. وقد استفاد فى هذا المجال كثيراً من دراسته فى أوربا ، ومن معاصريه ، من أمثال جمال الدين الأفغانى ، وعبد الله نديم ، والشيخ على الليثى . ومن الجلسات الطويلة التى كانت تجمعه بمفكرى مصر وأدبائها فى دار لطيف باشا سليم بسوق السلاح . فكانت هذه الدار مدرسة لمصطفى كامل، ألتقى فيها بمحمد فريد ، وبأحمد بك الصوفانى ، وحسن باشا عبد الرازق ، واسماعيل بك شيمى ، وكلهم من الرجال الذين كان لهم شأن كبير فى الحزب الوطنى ، سواء عندما كان تشكيلا سرياً أو بعد إعلان قيامه .

ومن الحق أن يقال بأن فكرة إنشاء الحزب الوطنى لم تكن وليدة أفكار مصطفى كامل ، وإنما ترجع إلى لطيف باشا سليم الذى كان يؤمن بضرورة إيجاد حزب وطنى فى مصر ، يمارس المصريون نشاطهم من خلاله .

وقد تكون هذا الحزب بشكل سرى قبل أن يعلن عنه فى عام ١٩٠٧ ، وأشار مصطفى كامل إلى هذا الموضوع فى خطابه الذى أرسله إلى مدام

جوليت آدم فى ٢٨ مارس ١٨٩٧ يقول فيه : «إنى ما يئست أبداً من مستقبل وطنى ، ولا من النصر الذى سيكون خاتمة مسألتنا ، لا سيما أن الوطنيين المصريين مستعدون الآن، ولنا حزب سرى مخلص للغاية ، وهو على استعداد لتضحية ذاته فى سبيل الوطن المفدى » .

بل ان الخديو عباس الثانى نفسه كان أحد أعضاء اللجنة السرية قبل أن يعلن عن تشكيل الحزب الوطنى ، وكان يحضر اجتماعات اللجنة فى جامع قريب من سراى القبة .

ولقد اضطر مصطفى كامل لإعلان قيام الحزب الوطنى فى عام ١٩٠٧ كرد فعل لإنشاء حزب الأمة فى ذلك الوقت ، رغم أنه كان لا يود إنشاء حزب رسمى ، لاعتقاده بأن من شأنه أن يؤدى إلى إنقسام الأمة .

وخلاصة القول ، فان مصطفى كامل كان ثمرة نضال السيد عمر مكرم ، وجمال الدين الأفغانى ، وأحمد عرابى ، وعصارة تفكير مصر السياسى فى أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين . أو ان شئت قلت انه يمثل حلقة فى سلسلة زعماء مصر الذين تعاقبوا عليها خلال القرن التاسع عشر . آمن بمصر ، وأحبها كما لم يحبها إنسان من قبل . وحاول جهده إيقاظ المصريين ، ونجح فى وضعهم على الطريق الصحيح ، طريق الكفاح من أجل استخلاص الحق السليب ، بعد أن كان يتجاذبهم تياران سياسيان : تيار المستسلمين الخاضعين ، وتيار المتعاونين المسالمين .

مصطفى كامل وفرنسا

بقلم د . صلاح العقاد
أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر
كلية البنات — جامعة عين شمس

تضافرت المؤثرات الثقافية والعوامل السياسية التى واكبت نشأة رائد الحركة الوطنية على إجتذابه نحو فرنسا. ولم يكن التطلع إلى مساندة خارجية مقصوراً على مصطفى كامل ، بل يلاحظ أن جميع العناصر المعارضة للإحتلال فكرت فى الإستعانه بإحدى القوى الخارجية سواء كانت حركة الجامعة الإسلامية أم الدول الأوروبية الكبيرة المنتمية إلى أحد التكتلين الرئيسيين فى ذلك الوقت : الحلف الثلاثى ، أو التحالف الفرنسى الروسى . ومن جميع هذه القوى بدت كفة فرنسا أكثر رجحانا خلال الفترة الواقعة بين عامى ١٨٩٥-١٨٩٩، أى منذ بدأ مصطفى كامل إتصالاته برجال الصحافة والساسة الفرنسيين حتى التراجع المشهور أمام بريطانيا فى أزمة فاشودة .

أما أسباب هذا الرجحان فترجع إلى عاملين : تلاقى أهداف السياسة الخارجية الفرنسية ، ولو على سبيل المناورة ، مع أهداف الحركة الوطنية المصرية . وتربية مصطفى كامل فى كنف الثقافة الفرنسية وتأثره بألوان هذه الثقافة أدبا وفنا وسياسة .

وفيما يخص أهداف السياسة الخارجية الفرنسية فإنه تم طرح المسألة المصرية فى التسعينات بين دوائر الصحفيين والساسة بصورة أكثر إلحاحا عما كانت عليه خلال السنوات الأولى من الإحتلال . ذلك أن التحالف الفرنسى الروسى من جهة ، وإشتداد التسابق على إستعمار القارة الأفريقية من جهة أخرى ، شجع فرنسا على إثارة المسألة المصرية، ومحاولة الضغط على الإنجليز للجلاء ولا أدل على علاقة التحالف الفرنسى الروسى بالمسألة المصرية من أنه ما كادت تتم المرحلة الأولى من المحالفة حتى نسق السفير الفرنسى وزميله

الروسى فى الآستانة جهودهما لحث السلطان على المطالبة بجلاء البريطانيين عن مصر باسم الحقوق الشرعية للدولة العثمانية .

ثم أن المحالفة لم تكن بعيدة عن مجال التنافس الاستعمارى ضد تغلغل بريطانيا فى آسيا وأفريقيا . فقد استهدفت روسيا ممارسة الضغط على بريطانيا فى آسيا الوسطى ، فى حين إستهدفت فرنسا الاستعانة بالمحالفة للضغط على بريطانيا فى أفريقيا .

وكان يقال فى ذلك الوقت أن فرنسا تريد أن تشق القارة عرضا بإقامة سلسلة من المستعمرات تمتد من غرب إفريقيا حتى المحيط الهندى ، بينما تسعى بريطانيا لكى تشقها طولا ، وذلك بوصل ممتلكاتها من جنوب القارة إلى وادى النيل .

وفى سنة ١٨٩٣ ألقى مهندس فرنسى بحثا عن إمكان وصول فرنسا إلى أعالى النيل عن طريق غرب أفريقيا ، حيث توجد منطقة السدود . وبوضع قليل من العقبات فى سبيل مجرى النيل يمكن عرقلة المشروعات البريطانية فى مصر ، وبالتالى ممارسة الضغط على بريطانيا أو المساومة معها على تنازلات فى مصر . وكان هذا البحث هو الذى أوحى بإرسال بعثة الكولونيل مارشان التى وصلت إلى أعالى النيل فى الوقت نفسه الذى أعاد فيه كتشنر فتح السودان . ويبدو أن البعثة العسكرية الفرنسية صغيرة الحجم لم تكن معدة لمجابهة عسكرية مع البريطانيين ، وإنما استهدفت فقط غرس العلم الفرنسى على إحدى النقاط الواقعة فى مجرى النيل ، وذلك تمشيا مع العرف السائد حينذاك لاستعمار أفريقيا ، ومؤداه أن من سبق إلى إثبات وجوده فى المناطق غير معروفة التبعية ، تؤل ملكية هذه المنطقة إليه ، غير أن البريطانيين لم يأبهوا لهذا المبدأ ، وأجبروا فرنسا على التراجع ، مما سيكون له أبعد الأثر فى علاقة مصطفى كامل بفرنسا ، وهبوط آماله العريضة المعلقة عليها ، ولكن قبل أن

نصل إلى هذه المرحلة ، ينبغي أن نعود إلى عهد النشأة والتكوين العلمي لنتعرف على صلات صاحبنا الأولى بالثقافة الفرنسية .

فمن المعروف أن مصطفى كامل إتجه إلى دراسة الحقوق . وفى مدرسة الحقوق الخديوية كانت اللغة الفرنسية شائعة بحكم أن القوانين المصرية مستمدة من قانون نابليون . وهناك كثير من الشروح التى لم تعرب ويحتاج الطالب ورجال القضاء إلى مراجعتها ، ولم يكد الشاب الناشىء يمضى عاما واحداً فى هذه المدرسة حتى نصحه بعض أصدقائه بالدراسة فى مدرسة الحقوق الفرنسية ، وهى مدرسة مسائية يمكن الجمع بينها وبين المدرسة الأولى ، غير أن صاحبنا مالبث أن تعلق بجو الحرية السائد فى المدرسة الفرنسية وفى أثناء ذلك تعرف مصطفى كامل خلال صيف ١٨٩٢ بيشارة تقلا صاحب جريدة الأهرام ، وهى حينذاك تعبر عن وجهة النظر الفرنسية فى مصر . فكانت هذه نقطة التقاء أخرى مع وجه من وجوه فرنسا فى الشرق .

وحسب نظام مدرسة الحقوق الفرنسية فقد كان على الطالب أن يؤدى إمتحان السنة الأولى فى باريس ، فكانت أول مناسبة لسفره إلى فرنسا فى يونيو ١٨٩٣ ، وعندما رحل للمرة الثانية فى صيف العام التالى انتهز الفرصة وطاف بمعارض ليون وأنفير ، وسجل مشاهداته عما رآه فى مقالات نشرها بالأهرام . وقد حاول الشاب الطموح أن يؤدى إمتحان السنة الثالثة ، وهى السنة النهائية للحصول على الليسانس فى الدور الثانى من نفس العام . ورغم ترشيح ناظر مدرسة الحقوق الفرنسية بالقاهرة ، لم تقبل كلية باريس هذا الاستثناء واشترطت مضى عام دراسى كامل . فقرر أداء الامتحان فى كلية الحقوق بجامعة تولوز التى منحته هذا الاستثناء . وقد علقت إحدى جرائد المدينة على هذا الشاب المصرى الذى حصل على الليسانس فى مدة وجيزة ، مسجلة فضل فرنسا على رفع مستوى الثقافة فى مصر وأثرها فى تنمية ذكاء المصريين .

ومما هو جدير بالملاحظة أن مصطفى كامل لم يشأ أن يحصر نفسه فى برامج الدراسة المقررة فأبدى منذ هذا الوقت المبكر اهتماما بجمع أشهر المؤلفات الفرنسية فى السياسة والتاريخ وخاصة فيما يتعلق بالمسألة المصرية والحركات الوطنية فى العالم ، وحمل هذه الثروة العلمية معه إلى مصر . ومع انتهاء مرحلة الدراسة تبدأ أهم مراحل النضال السياسى التى أمضى معظمها فى فرنسا من ١٨٩٥ — ١٨٩٩ .

من الذى وجه صاحبنا إلى القيام بهذه المهمة الوطنية الإعلامية فى فرنسا أما رائد الحركة الوطنية فيذكر أنه أوفد من قبل جمعية وطنية سرية تضم عددا من المصريين وبعض الفرنسيين المقيمين فى مصر . ولاشك أن المصلحة العامة لإنجاح مهمته وتأثيره فى الرأى العام كانت تقضى بأن يعلن هذا . أما حقيقة الأمر فهو أن الخديو عباس هو الذى أوفده وتكفل بنفقات السفر والدعاية بما فيها دفع الأموال لبعض الصحف الفرنسية . وخطة الخديو عباس لكسب تأييد فرنسا سابقة على بعثة مصطفى كامل الأولى بقليل . ففى مارس ١٨٩٥ زار البلاد فرنسوا دى لونكل أحد النواب الفرنسيين الذين عرفوا بهجومهم على الاحتلال البريطانى ، فاستقبل بحفاوة بالغة سواء من الشبان الوطنيين ، أم من الجماعة المحيطة بالقصر ، والتى كان من بينها عدد من الموظفين الفرنسيين الذين يؤازرون الخديو عباس فى مقاومته لكرومر . ويقال أن الخديو كان وكله قبل ذلك بالدفاع عن مصر . فلما عرض عليه فى هذه الزيارة إيفاد شاب مصرى للمشاركة فى الدعاية ضد بريطانيا أبدى إستياءه من ذلك وسيتضح بالفعل أنه أراد الاستئثار بحمل لواء القضية ، لذلك سينشأ بينه وبين صاحبنا خلاف .

مهما يكن فان الوثائق قد أثبتت أن الخديو عباس كان من وراء الرحلة الاعلامية الأولى لمصطفى كامل . وهذا لا يضيره على الاطلاق . وتدل

الوثائق التي نشرها الدكتور محمد أنيس أن الخديو حرص على أن يعمل من وراء ستار في هذه المسألة ، فكان عبد الرحيم أحمد من كبار موظفي القصر حلقة الاتصال السرية بين الخديو ، وبين الشاب الوطني . ويلاحظ أن عبدالرحيم أحمد هو بدوره من المشبعين بالثقافة الفرنسية ، إذ ذهب إلى فرنسا مرافقاً لعباس أثناء تعلمه في أوربا ، فانتهز الفرصة وحصل على ليسانس الحقوق من جامعة باريس . وقد كلف مصطفى كامل بالتعاون مع دى لو نكل في مهمته الوطنية . ثم مالبث أن تكشف له خطأ الاعتماد على نائب فرنسى مستغرق في الصراعات الحزبية ، ومن شأن ذلك أن يثير خصوم دى لو نكل الحزبيين ضد القضية المصرية . يضاف إلى ذلك إحساس مصطفى كامل بأن دى لو نكل يريد أن يستبعده عن الاتصالات بذوى النفوذ في البلاد ، كما أنه كثير التردد ، فعندما أراد مصطفى كامل أن يقدم لوحة تمثل الاحتلال البريطانى وتألم مصر منه ، راح دى لو نكل يعرض عليه تارة تقديمها إلى جمعية الاستعمار التي ينتمى إليها . وتارة أخرى إلى رئيس الجمهورية ، ومرة ثالثة إلى مجلس النواب . وقد انتهى به المطاف إلى تقديمها إلى رئيس الجمعية الوطنية الفرنسية .

ولم يلبث صاحبنا أن شكا إلى الخديو تصرفات دى لو نكل ، وهنا انقسم الرأى في الدوائر المحيطة بالخديو ، فالموظفون الفرنسيون المنتشرون في القصر مثل بوتورون رئيس لجنة الدومين ، وجافيو زعيم الجالية الفرنسية بمصر ، ولوى روييه أمين عام القصر دفعوا الخديو إلى مواصلة التعاون مع دى لو نكل بينما وجدت جماعة من الوطنيين المصريين ، من بينهم عبد الرحيم أحمد ، تؤيد وجهة نظر مصطفى كامل من أنه يستحسن ظهور شخصية مصرية على رأس الحملة الإعلامية ، فذلك أفضل من الاعتماد على شخصية تنتمى إلى الجماعة الاستعمارية ، ويتخذ من قضية مصر مجرد أداة للمناورة ، ورغم ذلك ، فقد

نصح الخديو صاحبنا بأن يستمر على تعاونه مع دى لونكل ، بل أبلغه بأنه يود أن يظل النائب الفرنسى راضياً عن سلوكه .

ولاشك أن هذا الموقف هو الذى دفع الشاب الوطنى إلى البحث عن أصدقاء آخرين ، بل عن جهات أخرى غير فرنسا مثل ألمانيا وروسيا للدعاية للقضية المصرية ، فكان ذلك هو منشأ توجهه برسالته الأولى إلى مدام جوليت آدم فى سبتمبر ١٨٩٥ ، وهنا يجدر بنا طرح سؤال هام ، وهو ما نوع الدوائر الفرنسية التى لمس فيها مصطفى كامل استعداداً للتعاون ؟ ولعل القارىء قد دهش حين ذكرنا أن دى لونكل وهو أول من تعاون معه مصطفى كامل يمثل الحزب الاستعمارى ، أو على الأصح مجموعة من النواب كانت تهتم بشئون المستعمرات ، دون أن تشكل حزباً رسمياً . وهذه المجموعة لم تهتم بقضية مصر إلا كرهاً لبريطانيا التى تفوقت على بلادهم فى مجــال التوسع الاستعمارى .

والمهم أن هذه الحقيقة لم تغب عن ذهن صاحبنا . ففى رسالة موجهة إلى عبد الرحيم أحمد فى ١٨ سبتمبر سنة ١٨٩٥ يقول « فالفرنساويون مهما تظاهروا لنا بالولاء ، هم كالإنجليز ، يعملون لمنفعتهم ، وهم إذا تقربنا منهم وتحببنا إليهم ، فإنما هى سياسة منا قضت بها الأيام ، نستعملها لاستخدامهم ولتغيير عداوتهم بالحب والولاء ، وإن يكن وقتياً » .

أما أهم شخصية فرنسية تعاطفت مع مصطفى كامل ، فهى بلا مراء الصحفية والأديبة جوليت آدم ، فلم يتبدل موقفها قط رغم تقلبات السياسة الفرنسية ، وظلت تؤازر مصطفى كامل حتى وفاته ، بل تبنت أخاه على فهمى كامل بعد ذلك أماهويتها السياسية ، فهى الوطنية المتطرفة التى كانت تعتبر الثأر من ألمــانيا هو هدف فرنسا الأسمى ، ولذلك فهى تصنف فى جماعات اليمين . وفيما عدا ذلك فانها غير ملتزمة بموقف فى قضايا نظام الحكم ، أو المسائل الاجتماعية.

وقد تحمست جوليت آدم للتحالف مع روسيا القيصرية لأنها اعتبرتها أداة للثأر من ألمانيا . أما عداوها لبريطانيا فيأتى فى المرتبة الثانية .

وقد تقلبت جوليت آدم بين الجمهوريين ، وهاجمت بشدة محاولة الانقلاب الملكية التى قادها بولانجيه . ثم انضمت إلى جماعة أكسيون فرانسيز الملكية النزعة ، وخلاصة القول إنهـــا تنتمى إلى البيئات المحافظة ، ومن ثم فان معظم الشخصيات الصحفية التى عرفت بهم مصطفى كامل تنتمى إلى نفس الاتجاه . ومن هؤلاء أدوارد ريمون صاحب جريدة ليبربارول . ومؤلف كتاب فرنسا الخاضعة لليهود . ومن المعروف أن قضية دريفوس كانت تشغل الرأى العام الفرنسى وقت تردد مصطفى كامل على باريس ، وتغطى على ماعداها من القضايا . وللأسف فان المحافظين اتخذوا موقف العداء من اليهود ، وألف دريمون كتابه هذا ليحذر الفرنسيين من سيطرة اليهود على بلادهم . وعلى العكس فان ما كان يسمى باليسار فى ذلك الوقت تحمس لدريفوس ، واتهم هؤلاء المحافظين بالتعصب الدينى الذى جعل منهم عنصريين يعادون اليهود ، ووصفوهم باللاسامية . وقد أحرج المحافظون فى نهاية الأمر بسبب تبرئة دريفوس ، فحل اليسار فى السلطة وتكونت حكومة ائتلاف يسارى وهى التى عقدت الاتفاق الودى وخذلت مصر . وهنا لابد من تسجيل حقيقة هامة ، وهى أن مصطفى كامل أشار فى مراسلاته إلى أنه حاول أكثر من مرة الاتصال بفالدك روسو ، دون جدوى ، وروسو هذا أحد زعماء كومين باريس لسنة ١٨٧١ ، وقد صار رئيس وزراء أثناء وجود مصطفى كامل بفرنسا بين ١٨٩٩ — ١٩٠٢ . ولذا لابد من القول بأن صاحبنا اتصل بفرنسا الصحافة أكثر من فرنسا الدولة .

أما الشخصيات الأخرى التى قدمت لها جوليت آدم الشاب المصرى فيمكن أن نذكر من بينها أرنست جوديه صاحب جريدتى بيتى جورنال ، والكلير ،

وهنرى رشفور صاحب جريدة لانترانزيجون . ولعل أشهر الشخصيات التى كانت آدم واسطة التعارف بينها وبين مصطفى كامل الشاعر بييرلوتى الذى اشتهر باعجابه بنمط الحياة التركية ، وتردد على الآستانة كثيراً ، كما زار مصر وتوثقت الصلات بينه وبين مصطفى كامل ، وكان كلاهما يعتز بأمومة جوليت آدم الروحية لهما . وقال كامل عن صديقه أنه من أكثر الفرنسيين فهماً لدقائق حياة المسلمين .

كانت جوليت آدم تدير مجلة نصف شهرية هى لانوفل ريفو ، وقد فتحت صفحات مجلتها للشاب الوطنى كى ينشر ماشاء من مقالات ، ولكن طموحه جعله لايكتفى بهذه الميزة ، فهو يقترح منذ قدومه إلى باريس فى مهمته الأولى إنشاء حزب على الأراضى الفرنسية ، يسمى حزب مصر ، على أن ينشر آراءه فى مجلة خاصة يصدرها أسبوعياً . ولم يلبث أن عدل عن هذه الفكرة ، مؤثراً عليها نشر مقالات فى الصحف اليومية مقابل مبالغ من المال تقدم لأصحاب هذه الصحف ، وعلى كل حال فان مجلة نصف شهرية لم تكن لتكفى طموحه . ووجهت هذه الآمال الإعلامية العريضة بعقبة كأداء ، وذلك حينما كشر كرومر عن أنيابه للخديو ، وأمره بقطع الإعانات المالية عن مصطفى كامل . ومن هنا تبدو أهمية مجلة جوليت آدم التى ظلت تفسح صدرها لمقالات مصطفى كامل دون مقابل .

وحسب ماتوفر لدينا من معلومات ، فان رد الفعل البريطانى على نشاط مصطفى كامل فى فرنسا خلال عام ١٨٩٥ اقتصر على الإجراءات التى اتخذها كرومر ، أما حكومة لندن فلم تثر أزمة مع فرنسا بسبب هذا الموضوع ، وعلى العكس استطاع الزعيم المصرى أن يدافع عن وجهة نظره فى بعض الصحف البريطانية التى عرفته بها أيضا جوليت آدم .

وقد استطاع عن طريق هذه الصحف أن يبعث برسالة إلى جلادستون محتجا على اهتمامه الشديد بمذابح الأرمن ، فى حين أنه يهمل قضية مصر ، ويؤيد سياسة كرومر فيها . ومما يسترعى الانتباه أن جلادستون انتهز هذه الفرصة وذكر كيف أنه حينما كان فى السلطة دعا وادنجتون وزير خارجية فرنسا السابق للتفاهم معه حول مشروعات الجلاء ، فأغفل هذه الدعوة ،وكأن جلادستون يريد أن يوقع بين الوطنيين المصريين ، وبين فرنسا . ثم تنصل زعيم الأحرار من المسئولية على أساس أنه قد صارق المعارضة عندما وصلته دعوة مصطفى كامل .

ومن الإجراءات التى اتخذها كرومر كرد فعل على جولة مصطفى كامل الأولى سنة ١٨٩٥ سحب البعثة التعليمية المصرية من فرنسا، مما أعطى لصاحبنا مجالا للتنديد بالاحتلال فى الصحف الفرنسية . ثم جاء تدخله لدى الخديو وإجباره على قطع المعونة المالية عن مصطفى كامل ، ولو أن هذا لم يحل دونه ودون مواصلة نضاله السياسى فى أوربا حتى نهاية حياته ، معتمدا على مصادر أخرى ليس هنا مجال البحث فيها .

لم يشأ مصطفى كامل أن يقصر نشاطه الإعلامى على فرنسا ، بل حرص منذ البداية على أن ينشر دعوته للقضية المصرية لدى جميع الدول الكبرى الأوربية كوسيلة لتأليبها على بريطانيا . ويبدو أن وجود الحلف الفرنسى الروسى جعله يفكر وقتا ما فى الاتجاه إلى سان بطرسبرج لكنه سرعان ما إصطدم بعقبتين :

الأولى تتمثل فى عدم وجود صحافة حرة نشطة إبان هذه الحقبة من الحكم القيصرى .

أما العقبة الثانية فهى تعاطف روسيا مع ثوار البلقان ضـــد الدولة العثمانية .

وهذا موقف يخالف إتجاه الوطنيين المصريين حينذاك . ولم يجد صاحبنا غضاضة فى أن يتابع حملاته الصحفية لدى دول الحلف الثلاثى رغم أن هذا الحلف معاد لفرنسا . وربما وفق مصطفى كامل بعض الشيء لدى أصحاب الصحف الألمانية ، أما فى النمسا فلم يجد صدى يذكر ، ولعل ذلك راجع إلى تخوف النمسا بحكم تكوينها من الحركات القومية التى تهدد كيان الإمبراطورية . وهكذا ظلت فرنسا حتى ١٨٩٩ محور نشاط الوطنيين المصريين .

عندما عاد الشاب الوطنى إلى باريس سنة ١٨٩٧ وجد الرأى العام الفرنسى متأرجحا بين تيارين ، أحدهما يشده بعيدا عن تأييد الحركة الوطنية المصرية ، والآخر يقربه منها ، أما العامل الذى كان يباعد بين الرأى العام الفرنسى وبين مصر ، فهو تجدد القتال بين تركيا واليونان بسبب كريت . وقد لاحظ مصطفى كامل تعاطف قسم كبير من الرأى العام مع اليونان بحكم الرابطة الدينية . واتخذت بعض الصحف الفرنسية من هذه المناسبة فرصة للتنديد بالحركة الوطنية المصرية وتصويرها على أنها تمثل الحركة الإسلامية المتعصبة والتى يمكن أن تضر بمصالح الأجانب المقيمين بمصر إذا تغلبت الحركة الوطنية المصرية . فأخذ الشاب الوطنى على عاتقه مهمة الرد على مثل هذه الإدعاءات ، ونفى عن الحركة الوطنية أى نزعة من نزعات التعصب الدينى .

أما العامل الذى قرب ما بين الوطنيين المصريين وبين فرنسا فى هذه الحقبة ، فهو تلاقى وجهات النظر حول معارضة حملة كتشنر لإعادة فتح السودان . وقد عبر الفرنسيون بطريقة غير مباشرة عن اعتراضهم ، وذلك بأن رفض مندوبوهم فى لجنة صندوق الدين إقراض الحكومة المصرية أموالا تساعد فى نفقات الحملة . أما الوطنيون المصريون فقد رأوا فى هذه الحملة أداة لتثبيت الاحتلال ، ولم يخف عليهم إختلاف الأهداف النهائية بينهم وبين الفرنسيين

فى معارضة الحملة ،فقد كان دافع الفرنسيين إلى هذه المعارضة رغبتهم فى إيجاد قدم لهم على أعالى النيل، ومن ثم الاتصال بين مستعمراتهم فى غرب إفريقيا وبين جيبوتى .

ومهما يكن من اختلاف الأهداف فإن إستسلام الفرنسيين فى مسألة فاشودة ، وانسحابهم من أعالى النيل دون مقابل أصاب صاحبنا بخيبة أمل كبيرة ، لا فى فرنسا وحدها ، بل فى الحلف الفرنسى الروسى الذى ثبت عدم جديته إبان تلك الأزمة . ويمكن أن نتبين رأى مصطفى كامل فى تخاذل فرنسا من ذلك التعليق الذى بعث به إلى جريدة جلوا ، وقال فيه « نحن لا نطلب من فرنسا أن تحارب بريطانيا من أجل فاشودة ، كلا ولكنى كنت أرى من الحكمة أن تشترط فرنسا قبل أن تترك فاشودة على بريطانيا أن تعيد كل شىء كما كان فى مصر ، لكنها أخجلتنا بالحط من كرامتنا » . على أن صاحبنا لم يشأ أن يناصب الفرنسيين العداء ، أو يعبر عن كرهه لهم كما سيفعل عندما يتلقى الضربة الثانية فى الاتفاق الودى، فهو يقول فى مكان آخر تعليقا على نفس الحادث « ليعلم الفرنسيون الذين نجلهم ونحفظ لهم الجميل أن عمل ساستهم لا يمحو حسناتهم السابقة معنا » .

يتضح من ذلك كيف أن مصطفى كامل لم يكن غرا ، بحيث توقع أن تخوض فرنسا الحرب من أجل مسألة ثانوية ، ومع ذلك فقد كان لهذا التخاذل أثره البعيد على توجيه خط عمل الحركة الوطنية توجيها جديدا . فحادث فاشودة هو الذى أقنع مصطفى كامل بضرورة نقل النشاط السياسى من أوربا إلى داخل البلاد ، ومن ثم قرر تأسيس جريدة اللواء سنة ١٩٠٠ ، فهذا الإجراء هو أحد نتائج حادث فاشوده .

على أن صاحبنا لم يتوقف رغم هذه الحادثة عن محاولة إقناع الفرنسيين بمواصلة تأييدهم للحركة الوطنية المصرية . فهو يوضح لهم كيف أثر تخاذلهم

على الخديو عباس ويأسه من مقاومة الاحتلال ، فسافر إلى لندن ، ولكن مازال الأمل موجودا لاجتذاب عباس إلى مقاومة الاحتلال من جديد . والحق أن الخديو لم يتحول إلى الوفاق مع الاحتلال فى هذه الفترة ، فمن المعروف أن هذا التحول لم يتم إلا بعد رحيل كرومر، ولذلك ظل رأى مصطفى كامل فى الخديو حسنا . وفى سنة ١٩٠٣ إشترك عباس الثانى مع الوطنيين فى توجيه الدعوة إلى جوليت آدم ، وعند مجيئها إلى مصر أوائل سنة ١٩٠٤ إحتفى بها احتفاء شديدا ، وتحمل من جراء ذلك تقريع كرومر .

ويمكن وصف علاقات مصطفى كامل بفرنسا ما بين ١٩٠٠، ١٩٠٤ بأنها فترة الترقب ، وهى لم تخل من توجيه النقد إلى الحكومة الفرنسية فى بعض تصرفاتها ، ولكن مع بقاء الأمل فى تحويلها إلى جانب مصر يوما ما . فهو يشكو فى سنة ١٩٠٢ من منع دخول جريدة اللواء إلى الجزائر ، ثم يوجه النقد بعد ذلك إلى تخاذل فرنسا فى تأييد البوير ، رغم صمودهم فى الحرب ضد البريطانيين . ثم يلوم الحكومة الفرنسية لأنها تسلك فى الشرق الأقصى مسلك المهانة لبريطانيا ، بل تذهب إلى حد الاتفاق معها على اقتسام الامتيازات فى سواحل الصين ، وكان هذا المسلك هو النذير للاتفاق الودى الذى وقع مثل الصاعقة على الوطنيين . فقد دفع هذا الاتفاق بصاحبنا إلى نشر مقال يعلن فيه أننا صرنا نكره الفرنسيين أكثر من الانجليز، لأن تنكر الصديق أشد وقعا على النفس من إيذاء العدو . وأقر أنه لم يعد له فى فرنسا سوى بعض الصداقات الشخصية .

ولم يفت صاحبنا أن يحلل الاتفاق الودى من وجهة النظر الفرنسية ، ورأيه فيه أن دلكاسيه خدع فى إبرام هذا الاتفاق ، لأن بريطانيا مازالت تحرض سلطان المغرب سراً على مقاومة الفرنسيين ، ولن تستطيع فرنسا أن تحصل على شىء فى المغرب بدون استخدام القوة ، فى حين أن بريطانيا كسبت كل شىء فى مصر دون مقابل .

ويلاحظ أن جريدة اللواء كانت تتجنب مهاجمة الاستعمار الفرنسي حتى عقد الاتفاق الودى ، ثم أخذت تتناول هذا الموضوع بطريقة أخف لهجة من المؤيد ، ومع ذلك فقد منع اللواء من دخول تونس سنة ١٩٠٦ فشكا مصطفى كامل من هذا الإجراء ، مقارنا بين تعنت فرنسا إزاء حرية الصحافة وموقف الانجليز فى الهند حيث استمر اللواء يصدر إليهم .

ويبدو أن مصطفى كامل تطلع إلى ألمانيا بعد توقيع الاتفاق الودى ، فقد تصادف ذلك مع زيارة الامبراطور جيوم الثانى لطنجة ، وتصريحه هناك بمساندة إستقلال المغرب . يضاف إلى ذلك ما أبداه القيصر من تعاطف مع المسلمين ، وتشجيع للإصلاحات العسكرية فى الدولة العثمانية .

ولهذا السبب عبر مصطفى كامل عن أسفه لعدم التعاون مع ألمانيا من قبل ، وأبدى دهشته إذ اكتشف أن ألمانيا كانت مستعدة لمساندة فرنسا فى أزمة فاشوده .

وهنا تبدو أهمية العامل الثقافى ، فرغم تلاقى وجهات النظر بين ألمانيا وبين بعض الحركات الوطنية فى العالم الإسلامى ، فإنها لم تلعب فى هذه الحقبة المبكرة نفس الدور الذى لعبته فرنسا فى حياة مصطفى كامل .

وسيتأخر دور ألمانيا حتى يلجأ إليها محمد فريد فى العقد الثانى من القرن العشرين ، ولهذا السبب أيضا لم تنقطع صلة صاحبنا بالصحافة الفرنسية بعد توقيع الاتفاق الودى ، سيما وأنه وجد معارضون للاتفاق فى فرنسا نفسها . وقد نشر الزعيم الوطنى مجموعة رسائله إلى الساسة والصحفيين بعد أن ترجمت إلى الفرنسية ، وقدمت لها جوليت آدم ، وذلك فى سنة ١٩٠٥ وعند وقوع حادث دنشواى أفسحت جريدة الفيجارو صفحة كاملة لمصطفى كامل كى يعلق على الحادث واشتهرت جريدة الطان الفرنسية بمواصلة الكتابة فى نقد

سياسة الاحتلال البريطانى فى مصر ، وخاصة فى مجال التعليم ، إذ لوحظ أن بريطانيا إنتهكت روح الاتفاق الودى الذى كان ينص على احترام المؤسسات التعليمية الفرنسية فى مصر . إلا أن دنلوب لم يكن يتحمل منافسة الثقافة الفرنسية وخاصة بين دارسى الحقوق ، وظل يضيق الخناق على إدوار لمبير ناظر مدرسة الحقوق الخديوية حتى إضطره إلى الاستقالة ، وكان لمبير ما يزال يسير على تقاليد الفرنسيين فى مصر ، فيشجع أبناء البلاد على تولى وظائف التدريس أو غيرها من المناصب القضائية . وقد نشر لمبير مقالا فى الطان يندد بإجـــراء دنلوب الذى عين ناظرا للمدرسة قائلا بأن القضاء المصرى لا يستطيع الاستغناء عن الاتصال بالثقافة الفرنسية لأنه توجد شروح عديدة لم تترجم بعد إلى العربية ، ويرجع إليها فى حالات كثيرة . وكانت هـذه فرصة لكى يجـدد مصطفى كامل حملته على الاحتلال فى جريدة الطان .

كذلك عند ما قـــرر الزعيم الوطنى تأسيس جريدة ليتندار الناطقة بالفرنسية فى مصر ، بعث يطلب من فرنسا مساهمة الأدباء والكتاب بالنشر فى صحيفته . كما استقدم عدداً من الفنيين لإصدار الجريدة ، ولذلك كانت تكاليفها باهظة وتسببت فى خسائر مالية .

ولا نكاد نلمس فى عهد مصطفى كامل ذلك الترابط الذى نشأ بين أحزاب اليسار وبين الحركة الوطنية المصرية على عهد محمد فريد ، وإن كان قد إنكشفت للزعيم الأول كيف أن بعض الدوائر الفرنسية كانت تؤيده على سبيل المناورة البحتة ، فقد صار دولنكل من أشد المتحمسين للاتفاق الودى ، وإن ظهرت فى نفس الوقت بوادر تغير لدى اليسار بعد أن دخلت إليه شخصية مؤمنة بالمبادىء الاشتراكية بمفاهيمها الصحيحة ، ونعنى بها

شخصية جان جورس الذى حول بعض فئات اليسار الفرنسى إلى مناهضة الاستعمار ، ومن هنا تغيرت طبيعة الشخصيات التى أيدت محمد فريد عن تلك التى ساندت مصطفى كامل .

فقد رأينا كيف أن معظم الذين آزروا مصطفى كامل انتموا إلى بيئات محافظة فى حين أن معظم صلات محمد فريد تمت مع أحزاب يسارية وفى بروكسل دون باريس .

مصطفى كامل وتأسيس الحزب الوطنى

دكتور يونان لبيب رزق
أستاذ التاريخ الحديث المساعد
كلية البنات — جامعة عين شمس

يقر « على فهمى كامل » فى الترجمة الطويلة التى وضعها عن شقيقه بأن الصحافة الأوربية ، والفرنسية على وجه التحديد ، هى أول من تحدثت عن « حزب وطنى » فى مصر ، وعن « مصطفى كامل » باعتباره زعيما لهذا الحزب ، وكان ذلك فى أعقاب خطبة ألقاها الأخير فى باريس بمناسبة عيد جلوس السلطان فى ٣١ أغسطس ١٨٩٥ شن فيها هجمة عنيفة على الاحتلال البريطانى(١) .

ويعود الرجل مرة أخرى إلى تأكيد نفس المقولة فى مقال له باللواء فى ٢٦ سبتمبر ١٩٠٧ يقول فيه أن الأوربيين سموا جماعة مصطفى كامل بالحزب الوطنى لسببين : أولهما لشيوع وجود الأحزاب فى أوربا فرأوا أن هؤلاء لابد أن يكونوا حزباً ، وثانيهما أنهم لم يسمعوا قبل ذلك صوتاً إلا صوت هؤلاء فسموهم الحزب الوطنى(٢) .

يترتب على هذه المقولة أكثر من تساؤل :

أول هذه التساؤلات عن فهم مصطفى كامل لطبيعة العمل الحزبى ، فالقول بأن الحديث عن « الحزب الوطنى » انطلق أولا من مصادر أوربية ، ثم القول

---

(١) على فهمى كامل — مصطفى كامل فى ٣٤ ربيعاً ج٣ ص٢٠٥

(٢) مقال لعلى فهمى كامل بعنوان « الصحف والأحزاب » — اللواء فى ١٩٠٧/٩/٢٦

بأن هذا الحديث قد بدأ منذ عام ١٨٩٥ وأن الحزب الوطني لم يتأسس فعلا إلا عام ١٩٠٧ .. كل هذا يثير الشكوك حول مدى فهم الزعيم المصرى، ومن حوله، لفكرة الحزبية ولطبيعة العمل الحزبي .

تتداعى هذه الشكوك بتسجيل أكثر من ملاحظة . . من هذه الملاحظات أنه من غير المعقول أن مصطفى كامل مع تردده على أوربا وبالذات على فرنسا، حيث كان العمل الحزبي منتعشاً ، وبقائه فيها لفترات غير قصيرة لم يلاحظ أو لم يع طبيعة هذا العمل أو يدرك أبعاده ، ومما يؤكد ملاحظته ووعيه نوعية القوى السياسية التي كان ينتقي التعامل معها . . وهي قوى حزبية ذات روح عدائية نحو بريطانيا . .

تزداد هذه الشكوك تداعياً من حقيقة أخرى وهي أن الزعيم المصرى فى كتاب وضعه عن اليابان عام ١٩٠٤ تحت عنوان « الشمس المشرقة » أفرد فصلا كاملا عن الأحزاب اليابانية ودورها فى الحياة السياسية فى تلك البلاد[١]، ويتأكد من يقرأ هذا الفصل أن مصطفى كامل كان على إلمام تام بالمفهوم الحزبي وبما تستطيع أن تقوم به الأحزاب فى التطور السياسى لبلد ما .

ولكن أى نوع من المفاهيم التي تتعدد حول تعريف العمل الحزبي كان أقرب لإدراك مصطفى كامل . . هناك المفهوم الذى يرى أن الحزب هو مجموعة من الرجال اتفقوا على مبدأ يحققون من خلاله المصلحة الوطنية ، وهناك المفهوم الآخر الذى يرى فى الحزب مجموعة منظمة من الأشخاص تسعى للاستيلاء على السلطة لتجنى ثمار هذا الاستيلاء ، وهناك المفهوم الأخير الذى يرى أن الحزب السياسى هو تحالف مجموعة من المصالح لفئة أو لفئات اجتماعية معينة[٢] .

---

(١) مصطفى كامل — الشمس المشرقة جـ١ (الطبعة الأولى ١٩٠٤) فصل بعنوان « مجلس النواب والأحزاب » ص ١٣٧ — ١٤٩

(٢) **Rodee, Carlton Clymer : Introduction to Political Science (New york 1957) p. 398.**

والمفهومان الأخيران ، فى عصر مصطفى كامل على الأقل ، بقيا مفهومين أوربيين يتصلان بالتطورات الاقتصادية والاجتماعية فى أوربا وما صحب هذه التطورات من ظهور صراعات طبقية وانتشار أيديولوجيات تفسر تلك الصراعات أو تبلورها .

ولا يبقى مع ذلك إلا المفهوم الأول للحزب وهو بلا شك المفهوم الذى انطلق منه المشتغلون بالسياسة المصرية آنذاك ورأوه طريقهم للعمل الحزبى ، ومصطفى كامل على رأس هؤلاء بالطبع .

* * *

يجىء التساؤل الثانى متصلا بالتساؤل الأول وهو : إذا كان الزعيم المصرى قد استوعب منذ وقت مبكر مفهوم الحزب وطبيعة التكوين الحزبى فما هى الأسباب وراء كل هذا التأخير بل التلكؤ فى تأسيس الحزب الوطنى .

ويبدو حجم هذا التأخير ليس فقط من حقيقة أن « الحزب الوطنى » قد عرف منذ ١٨٩٥ إلا أنه لم يتأسس إلا عام ١٩٠٧ ولكن أيضاً من أن هيكل الحزب كان آخر ما تم إقامته من هياكل حزبية عرفتها مصر خلال عام ١٩٠٧ فقد تم انعقاد أول جمعية عمومية للحزب الوطنى فى ٢٧ ديسمبر بعد أكثر من ثلاثة شهور من تشكيل حزب الأمة (٢١ سبتمبر) وبعد نحو عشرين يوماً من تأسيس حزب الإصلاح على المبادىء الدستورية (٩ ديسمبر) .

لعل أهم أسباب تأخير تكوين « الحزب الوطنى » يعود إلى قناعة ترسبت فى وجدان الزعيم المصرى مؤداها أن الوجود الحزبى قرين لتفتت الوحدة الوطنية ، وأن تعدد الأحزاب فى مصر خلال تلك الحقبة التى تستلزم توحيد كل الجهود لإجلاء المحتل عن الوطن سوف يترتب عليه تفتيت الوحدة الوطنية وما ينتج عن ذلك من انصراف المصريين عن مناهضة

الوجود الاحتلالى إلى التصارع فيما بينهم مما سوف يؤدى إلى تكريس هذا الوجود .

وقد عبر مصطفى كامل عن هذه القناعة فى أكثر من مناسبة نختار منها مناسبتين يفصل بينهما نحو عقد كامل . .

فى عام ١٨٩٥ وفى خطبة له فى مدينة طولوز فى فرنسا يقول الرجل فى جانب من خطبة كان يلقيها على مجموعة من رجال الصحافة والسياسة الفرنسية ما نصه « وأنكم مهما تنازعتم فى الآراء السياسية واختلفتم فى المبادىء بإزاء أى مسألة عامة فإن مصلحة فرنسا المتضمنة إلى مصلحة الإنسانية تقضى عليكم بالدفاع عنها ولستا نعرفكم إلا فرنسيين لا فرق عندنا بين الجمهوريين والملكيين ولا بين الاشتراكيين والراديكاليين(١) . . وأوضح ما فى هذا الجانب من خطبة مصطفى كامل تلك الرابطة فى ذهنه بين الأحزاب السياسية والتنازع .

مرة أخرى فى عام ١٩٠٤ حين يؤلف « الزعيم المصرى » كتابه عن اليابان نراه يركز تركيزاً خاصاً على تأثير الصراعات الحزبية على الحياة السياسية فى تلك البلاد ويتحدث عن تشكيل وزارة « أوكوما » من ائتلاف من أكبر حزبين فى البلاد وهما حزب الأحرار وحزب المتقدمين وكيف أن هذه الوزارة لم تعش طويلا نتيجة للصراعات بين الحزبين .

ويعلق مصطفى كامل على ذلك فيقول « وبذلك خاب النواب فى إيجاد حكومة نيابية فى بلادهم ورأى الميكادو فيما وقع درساً نافعاً لأنه احترم رغائب الشعب وترك الأحزاب تتفق وتفترق بدون أن يتداخل بينها حتى تم لها الفشل »(٢) .

---

(١) مصطفى كامل فى ٣٤ ربيعاً جـ٣ ص١٤٩

(٢) مصطفى كامل — الشمس المشرقة ص١٤٧

سبب ثان من أسباب التأخير فيما ارتآه الزعيم المصرى من أن تحويل الحركة الوطنية التى يقودها إلى هيكل تنظيمى محدد سوف يستتبعه إمكان أن تستطيع القوى المعادية لهذه الحركة ، وبالذات الوجود الاحتلالى ، توجيه ضربات مباشرة لها فى الحزب الذى يمثلها ، بمعنى آخر أن الشكل الهلامى الذى التحف به أنصار مصطفى كامل قبل أن ينتظموا فى الحزب الوطنى كان يجعل الحركة الوطنية بالنسبة لخصومها شبحاً هائلا غير محدد المعالم لا يمكن الإمساك أو البطش به .

والدليل على إيمان مصطفى كامل بهذه الفكرة قبوله ، وفى أكثر من مناسبة الاشتراك فى زعامة سرية للحزب الوطنى . . بمعنى آخر فهو قد وافق على الشكل التنظيمى على نحو سرى لا يتيح لخصومه النيل منه .

من هذه المناسبات أنه اشترك فى الجمعية المصرية التى ألفها لطيف باشا سليم ١٨٩٢ وأسماها الحزب الوطنى وشارك فيها عدد من الرجال(١) كانوا من أبرز زملاء مصطفى كامل بعد ذلك لدى تأسيسه للحزب(٢) .

ويتكرر نفس العمل بعد الجولات السياسية الناجحة التى قام بها السياسى المصرى فى أوربا فقد تكونت جماعة جديدة(٣) لدى عودته من هذه الجولات عام ١٨٩٦ على نحو سرى أيضاً للعمل على إنماء الروح الوطنية المصرية .

ولا شك أن مصطفى كامل كان محقاً فيما أبداه من مخاوف فى هذا الصدد وهى المخاوف التى تحققت فعلا بعد تأسيس الحزب وعلى أكثر من وجه . .

---

(١) كان منهم أحمد وعبد اللطيف الصوفانى ومحمود أنيس وحسن عاصم ومحمد خلوصى وحسن عبد الرازق ومحمد فريد .

(٢) Goidschmidt, Arthur : The Egyptian Nationalist Party p. 3I1.

(٣) ضمت مع مصطفى كامل أحمد لطفى السيد ومحمد فريد ومحمد عثمان ولبيب محرم وسعد الشيمى .

من هذه الوجوه الانسلاخات المتعددة التي شهدها الحزب بعد وفاة زعيمه وبعد استحكام العداء بين الخديو وبين فريد وهي انسلاخات قد أضعفت الحزب بلا شك حيث بدا وكأنه يفقد أعضاءه المؤسسين والمؤثرين عضواً وراء آخر، ولو لم يتأسس الحزب الوطني على الشكل البنياني الذي تأسس عليه لما تعرض لمثل هذه الانسلاخات.

وجه آخر تمثل في الضربات العنيفة التي وجهت إلى زعامات الحزب وكوادره المختلفة من لجنته الإدارية إلى لجانه الفرعية والتي أجبرت الكثيرين من المنتمين إليه إلى الخروج من مصر يجاهدون خارجها وما أصاب الوجود الحقيقي للحزب من وهن نتيجة لذلك.

واستمر موقف «مصطفى كامل» بعدم تأسيس هيكل محدد الحزب الوطني قائماً لأكثر من عقد (١٨٩٥ - ١٩٠٦) ولكن هذا الموقف ما كان ليدوم مع كل التغييرات التي أصابت الحياة السياسية في مصر مما لم يتبق معه أمام الزعيم المصري إلا الطريق الذي طالما رفض السير فيه..

تأليف الحزب الوطني:

بدأت قناعات مصطفى كامل التي أملت عليه موقفه في الاهتزاز مع تغير كثير من القواعد التي جرت عليها لعبة الصراع السياسي في مصر..

في عام ١٩٠٤ عقد الوفاق الودي الإنجليزي - الفرنسي وترتب عليه انهيار قاعدة من أهم قواعد اللعبة حيث ظل مصطفى كامل طوال السنوات السابقة يرتكز في جهاده على استنفار فرنسا ومن ورائها أوروبا لإجبار البريطانيين على الجلاء عن البلاد.

تنهار القاعدة الثانية نتيجة للجفوة التي حدثت بين مصطفى كامل وبين

الخديو عباس الثانى نتيجة لمساندة الأخير للشيخ على يوسف صاحب المؤيد فى القضية المعروفة بقضية الزوجية ضد الرأى العام المصرى وهى جفوة أدت إلى قطيعة بين الرجلين استمرت لعام كامل (١٩٠٤ — ١٩٠٥) ، ومع هذه الجفوة اهتز التسليم السابق بأن الخديو عضد للحزب الوطنى على أى الأحوال .

وتنهار القاعدة الثالثة بعد التراجع المخزى من جانب الدولة العثمانية أثناء أزمة طابة خلال الشهور الأولى من عام ١٩٠٦ إذ تبين للزعامات الوطنية آنذاك قلة جدوى الاعتماد على أى قوة خارج مصر .

ثم تشهد نفس السنة — ١٩٠٦ — حادثة دنشواى بكل ماصاحبها من مد وطنى شعر معه مصطفى كامل بعظم الامكانيات التى يستطيع استخدامها من خلال الحركة فى صفوف الشعب المصرى . وكان طبيعيا أن يستتبع انهيار قواعد لعبة الصراع القديمة وضع قواعد جديدة تمخضت فى النهاية عن قبول الزعيم المصرى بما استمر يرفضه من قبل . . بتأسيس « الحزب الوطنى » على نحو النظام الحزبى المعروف فى أوربا .

ويبدأ هذا التغيير منذ أواخر ١٩٠٦ ويصل إلى ذروته فى أواخر السنة التالية ..

يسجل لنا « محمد فريد » فى مذكراته بداية التغيير فيقول إنه « فى خريف ١٩٠٦ اجتمعنا أنا ومصطفى كامل والدكتور صادق ولطيف سليم باشا وقابلنا الخديو ليلا فى عزبة مسترد . .

« وفى هذه الليلة اتفقنا على تأسيس الحزب الوطنى والنادى وجرائد الاثندار الفرنسية والإنجليزية وكنا مختلفين فى هل يكون الحزب سرى أو علنى ، وكان رأى الخديو بأن يكون سرياً ، وبأن تنتخب أعضاء لجنته

الإدارية السرية من بين أعضاء النادى بعد الاختبار . ولكن تغلبنا على جعله جهرياً ولا بأس من تشكيل لجنة سرية فيما بعد من بين الأعضاء العاملين المخلصين ليقرروا ما يرونه لازما فيما بينهم ، وعند تقديمه للجنة الإدارية يؤيدونه معاً»[1] .

والتغيير يبدو هنا فى رفض الزعامة الوطنية لأسلوب السرية عما تمسكت به من قبل وما يعنيه ذلك من اهتزاز قناعات سابقة دعتها إلى هذا التمسك .

وتتتالى الأحداث لتغير تماما من موقف مصطفى كامل .

عام ١٩٠٦ أيضاً شهد تعيين سعد زغلول ناظراً للمعارف ، وأدت الأصول المصرية الصميمة للرجل بالإضافة إلى وقفاته الصلبة من المستر دنلوب المستشار الإنجليزى فى نظارته إلى تركيز قدر من الأضواء حوله والتى زادت إلى حد كبير خلال العام التالى - ١٩٠٧ - خاصة بعد صدور «الجريدة» فى مارس من هذا العام واهتمامها بمسائل التعليم ودعمها بقوة للناظر المصرى، وإن كنا نلاحظ أن صحفاً كثيرة غير « الجريدة » كانت تهتم كثيراً بسعد زغلول وأعماله فى نظارته . .

وقد تفردت « اللـواء » بموقف العداء من الرجل حتى على غير موقف الصحف التى كانت تميل لجماعة مصطفى كامل وتدعمه . .

وتحاول « الجريدة » أن تفسر هذا الموقف فترى أن سبب هذه الحملة من « اللواء » واقتصارها على سعد رغم مواقفه الصلبة من المستشار البريطانى دون سواه من النظار المتخاذلين يعود إلى غيرة مصطفى كامل من أن ينافسه على زعامة الأمة المصرية سواه من المصريين[2] .

---

(١) مذكرات محمد فريد — القسم الثانى — كراسة (١) ص ١ — ٢

(٢) مقال بعنوان متى ظهر السبب بطل العجب — الجريدة فى ١٩/١٠/١٩٠٧

ونحن وإن كنا لا نعتنق ما ذهبت إليه الجريدة فى تفسيرها لا نشك أن الزعيم المصرى قد ساورته الوساوس من صعود نجم سعد زغلول ، وربما تصور أن الإنجليز وراء هذا الصعود ، وأنه واتجاهه الوطنى مستهدفان بذلك ، وأن عليه المبادرة بوضع زعامته موضع التجسيد قبل أن ينجح الآخرون فى سحب البساط من تحت قدميه .

أما عام ١٩٠٧ فقد حدث فيه ما قضى تماما على تردد مصطفى كامل وبدد قناعاته القديمة .

كما سبق وتمت الإشارة فقد تم فى سبتمبر من هذه السنة تأليف «حزب الأمة» كما ترددت الأقوال عن اتجاه الشيخ على يوسف إلى تأليف «حزب الإصلاح» .

وقد وجد مصطفى كامل نفسه فى مأزق حرج إذا ما استمر فى تمسكه بعدم بناء هيكل محدد للحزب الوطنى . .

فهو من ناحية قد تعرض لحملة عنيفة فى أعقاب تأسيس حزب الأمة ، فيتحدث بعض الكتاب عن أن مؤسس هذا الحزب قد أتى بمعجزة لأنه «أرانا حزباً سياسيا فى مصر ننظره بعيوننا ونسمعه بآذاننا ونلمسه بأيدينا وأبان لنا أن هذا الحزب مؤلف من رجال فهو إذاً قد وضع حدا لتلك الأرواح التى تصبح وتمسى على صفحات الجرائد والخيالات التى تروح وتجىء»[1] وواضح أن المقصود هنا هو جماعة مصطفى كامل الذين كان عليهم أن يستمروا فى التعرض لحملات السخرية والتشهير أو يعمدوا إلى الحركة .

وهو من ناحية أخرى تخوف من أن يؤدى استمرار غياب «الكيان

---

(١) مقال بعنوان هدى حزب الأمة بقلم الدكتور سعادة — الجريدة فى ١٩٠٧/١٠/٧

التنظيمى ، للحزب الوطنى إلى أن تنجح الأحزاب ذات الكيانات التنظيمية فى استقطاب الأنصار القدامى لحزبه حيث يستطيعون التعبير عن نوازعهم السياسية فى إطارات محددة وهى إطارات يفتقدها أنصار مصطفى كامل إذا استمروا على موقفهم من عدم تحويل أنفسهم إلى حزب سياسى بكل المقومات المعروفة للأحزاب .

عند هذا الحد قررت الزعامة الوطنية التخلى عن خطتها القديمة واصطناع خطة جديدة مؤداها تأسيس الحزب الوطنى وهو ما سجله مصطفى كامل فى خطاب له من أوربا إلى محمد فريد جاء فيه « . . إن ظهور حزب الأمة من أولئك الذين خبرنا نفسيتهم وميلهم إلى مسايرة المحتلين وفقا لما يسمونه سياسة اللين والتدرج . وإن ما علمته كذلك من عزم صاحب المؤيد على تأليف (حزب الإصلاح) لخدمة سياسة السراى هذان الأمران يحتمان علينا كل التحتيم أن نظهر الحزب الوطنى بالرغم منا مظهره الحقيقى حتى يعلم العالم أن للوطن المصرى حزباً يطلب بعزيمة صادقة الجلاء والدستور . . أى أنه لا يقبل لا حكم الأجنبى ولا حكم الفرد ، عاملا لاستقلال بلاده وحرية أمته باسترداد حقها فى الإشراف على أمورها العامة »[1] .

وقد شهدت الأسابيع الأولى من شهر أكتوبر عام ١٩٠٧ ، وبمقاييس تلك الأيام ، حملة سياسية كبيرة خطط لها ونفذها مصطفى كامل تخطيطاً وتنفيذا دقيقاً .

كان الهدف الأساسى من هذه الحملة أن يؤسس الحزب الوطنى وسط ما هو جدير به من مظاهر الشعبية تأكيداً لحجمه الذى كان لا بد وأن يتجاوز بمرات حجم الأحزاب الأخرى التى ظهرت أو كانت فى طريقها إلى الظهور

---

(١) جولييت آدم / انجلترا فى مصر ص ٧٣

وما يمكن أن يترتب على ذلك من وضع هذه الأحزاب فى حجمها الحقيقى على اعتبار أنهـــا ، من الناحية الشعبية على الأقل إن لم يكن من الناحية الايديولوجية ، أحزاب هامشية .

وقد تعددت ميادين هذه الحملة ..

فى الداخل امتلأت صفحات اللواء وطبعتيه الأفرنجيتين (لتندار اجيبسيان وذى اجيشيان استندرد) بالحديث عن الحزب الجديد وبالدعوة للانضمام إليه .. وقد طبعت إدارة اللواء فى نفس الوقت الوفا من طلبات العضوية تدفع بها لمن يشاء تسجيل اسمه .

فى الوقت ذاته كتب مصطفى كامل لأصدقائه فى الخارج ، وبالذات مدام جوليت آدم يدعوها إلى تدعيم حملته ، ففى خطاب كتبه لها من على ظهر الباخرة بريمن فى ٤ أكتوبر ١٩٠٧ التى كانت تقله إلى أرض الوطن قال « ستكون هذه السنة أهم سنة فى حياتى . أرجو منك أن تنشئى لنا مقالة عنوانها (كيف وبماذا نجحنا) تذكرين فيها تاريخ تأليف حزبك فى عهد الامبراطورية وعدد رجاله ونظامه وخضوعه لجمبتا ولما تجب الطاعة للرئيس الذى تتوفر الثقة به الأمر الذى بدونه لايتم النجاح وأملى أن تسهبى فى بيان هذه النقطة وأن تذكرى كذلك مايمثـــل للمصريين الوسائل المؤدية للنجاح[١] .

ووصلت الحملة إلى ذروتها لدى وصول مصطفى كامل إلى الإسكندرية وإلقائه لخطبته الشهيرة فى « مسرح زيزينيا » فى ٢٢ أكتوبر والتى أعلن فيها تكوين الحزب الوطنى ومبادءه .

---

(١) رسائل مصرية فرنسية — الخطابات الخصوصية التى أوسلها المرحوم مصطفى كامل باشا فى حياته إلى مدام جوليت آدم الكاتبة الفرنسية الشهيرة — ترجمها على فهمى كامل .

وقد قدرت صحف الأحزاب المنافسة عدد الحضور لسماع الخطبة بخمسة آلاف[1] إلا أن مصادر الحزب الوطنى كذا المصادر المحايدة قدرت هؤلاء بما لا يقل عن سبعة آلاف[2] وهو عدد كبير جداً من الناس يقصدون إلى اجتماع سياسى فى ذلك الوقت خاصة إذا كان اجتماعا سياسيا معاديا للسلطة .

ويكفى لبيان حجم هذا الاجتماع الضخم أن صحيفة المقطم الاحتلالية قد كتبت تهدد وتتوعد أهل الإسكندرية الذين وصفتهم بالطيش وقلة التعقل على عكس أهل العاصمة الذين وصفتهم بالتعقل والذين لم تجد أعمال (الهجاص) كما كان يحلو لها أن تصف مصطفى كامل . . لم تجد أعماله صدا لديهم . . ووصل بها الأمر إلى أن تذكر السكندريين بموقفهم أثناء أحداث الثورة العرابية وماجره ذلك من وبال عليهم[3] .

ويصف الأستاذ عبد الرحمن الرافعى هذه الخطبة بأنها « أقوى خطب الفقيد وأعظمها شأنا ، بل أنها كانت أعظم خطبة ألقيت فى مصر والشرق منذ أقدم العصور[4] » وهذه الحماسة التى تملكت الرافعى ودعته إلى تسجيل مثل هذه العبارات ، تعبر عن مكانة الخطبة سواء فى تاريخ الحركة السياسية خلال تلك الحقبة أو فى تاريخ الحزب الوطنى .

وقد أسرعت اللواء فى أعقاب إلقاء الزعيم لخطابه إلى طبعه فى كتيب تحت عنوان « رغائب الحزب الوطنى » كان بمثابة ميثاق الحزب الجديد وكان

---

(١) الجريدة فى ١٩٠٧/١٠/٢٣

(٢) اللواء فى ١٩٠٧/١٠/٢٣

(٣) المقطم فى ١٩٠٧/١٠/٢٤

(٤) عبد الرحمن الرافعى — مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية ص ٢٦٤

لكل عضو فيه أن يحصل عليه مجانا كما كان لغير الأعضاء أن يحصلوا عليه مقابل ثمن رمزى .

وبالإضافة إلى « المبادىء العشرة » للحزب الوطنى التى أعلنها الزعيم المصرى فى هذه الخطبة والتى سيتم تناولها عند الحديث عن مبادىء الحزب فقد طرح الزعيم المصرى مجموعة من القضايا التى مست بشكل أو بآخر الحركة السياسية التى يقودها وسجل رأيه فى كل منها .

من هذه القضايا تهمة (التطرف) التى ظل أعداء الحزب الوطنى يرمونه بها وكان رأيه أن حزبه يطالب الأمة بالعمل والحفاظ على السكينة وبأخذ أوفر قسط من العلم وبعدم التعصب وبرفض استعباد الشعوب واستعمار بلاد الغير « فكيف بجماعة تطالب بهذه المطالب توصف بالتطرف » .

منها أيضا موقف الحزب الوطنى من الأحزاب التى بدأت فى الظهور آنذاك وقد دمغها بالعداوة للوطنية ووصف سياستها بسياسة المغالطة وأدلى بحججه التى تؤكد فساد هذه السياسة ثم انطلق من ذلك إلى الحديث عن سياسة الحزب الذى يتزعمه .. سياسة السعى إلى الحصول على الاستقلال ووسائل الوصول إليه .

ولم ينس فى هذا الصدد بالطبع أن يهاجم سياسة المحتلين ويؤكد على فساد حكمهم مذكراً باتفاقية السودان وحادثة دنشواى ومحاربة الأكفاء من المصريين

أيضا انتهز مصطفى كامل الفرصة ليفند مزاعم خصومه بأن الحزب الوطنى يريد إخراج الإنجليز من مصر ليعطيها لتركيا كولاية عادية ، وأعان

أن هذه التهمة مسبة للمدنية والمتمدينين وقضاء على الأمة المصرية بأنها لا ترقى أبداً ولا تبلغ مبلغ غيرها من الشعوب[1]» .

وانتهى الزعيم المصرى من خطبته الكبيرة ليبدأ بعدها مباشرة فى عملية إخراج حزبه إلى حيز الوجود .

بناء هيكل الحزب الوطنى :

تم تشكيل « لجنة مؤقتة » برئاسة مصطفى كامل لتقوم بالأعمال التمهيدية لبناء الحزب .

وقد شملت هذه الأعمال جانبين أساسيين :

الجانب الأول : بالتحضير لاجتماع « جمعية عمومية » للحزب والذى تقرر انعقادها فى ٢٧ ديسمبر ١٩٠٧ .

الجانب الثانى : بوضع لائحة الحزب لتقره « الجمعية العمومية » لدى انعقادها .

تم التحضير لاجتماع « الجمعية العمومية » بطبع بضعة ألوف من طلبات الانضمام التى جاء فى مطلعها أن الحزب الوطنى يقصد « جمع كلمة الوطنيين الصادقين على المبادىء التى ذكرها ليكون الحزب الوطنى منظما » لتوزع على كل من يرغب فى هذا الانضمام، وكان للمواطنين أن يحصلوا على تلك الطلبات من إدارة اللواء فى القاهرة أو من مكاتبها فى الأقاليم .

وقد أقبلت أعداد كبيرة من المصريين، بمقاييس هذا العصر، على الالتحاق

---

(١) اللواء فى ١٩٠٧/١٠/٢٣

أو بالأحرى على الانتظام فى سلك الحزب الجديد من حيث التنظيم ، والقديم من حيث الرسوخ فى الوجدان الوطنى المصرى .

بلغ مجموع الحضور من الأعضاء فى اجتماع الجمعية العمومية ١٠١٩ عضواً وبلغ عدد المعتذرين ٨٤٦ عضواً[1] معنى ذلك أن الذين سارعوا بالانضمام للحزب نحو ألفين من الأعضاء العاملين فى فترة شهرين فحسب هذا بالإضافة إلى غيرهم ممن اعتبروا من الأعضاء غير العاملين عن تمنعهم طبيعة أعمالهم أو وظائفهم من المشاركة فى أعمال الحزب على نحو فعال .

تبع ذلك طرح « لائحة الحزب » التى تضمنت الهيكل التنظيمى للحزب الوطنى .

تضمنت هذه اللائحة ٢٥ مادة تناولت مختلف جوانب هذا الهيكل ... هى على توالى تناولها زعامة الحزب ونظام عضويته والجمعية العمومية واللجنة الإدارية ثم اللجنة التنفيذية ، كما تناولت ميزانية الحزب وناديه بالاضافة إلى الأحكام العامة .

الجانب الخاص « بزعامة الحزب » تضمن مادتين إحداهما عن التمسك بانتخاب مصطفى كامل للحزب مدى الحياة والأخرى عن طريقة اختيار الرئيس الجديد فى حالة وفاة رئيس الحزب .

وبالرغم من مجموع الملاحظات المتصلة بمختلف جوانب اللائحة التى تم اقرارها والتى يمكن القول معها أنها قد التزمت بنهج ديموقراطى إلا أنه فيما يتصل بهذا الجانب فمن الصعب القول أنه من قبيل الديموقراطية اختيار شخص ما رئيساً لحزب سياسى لمدى الحياة .

---

(١) اللواء فى ١٩٠٧/١١/٢٧

ويبدو أن الأحزاب المصرية الجماهيرية ، الحزب الوطنى قبل الحرب الأولى وحزب الوفد بعد ذلك .قد اقتنعت دائماً بضرورة استمرارية الزعامة، ولعل هذه القناعة قد نبعت من مصدرين :

أولها : صعوبة قبول المبادىء السياسية المجردة بعكس الحال لو تجسدت هذه المبادىء فى شخصية بعينها .. بمعنى آخر فقد كان من الصعب على العقلية السياسية للجماهير الفصل بين الزعيم وبين مبادئه ، ومن هنا جاء التمسك باستمرارية زعماء الأحزاب الجاهيرية باعتبار أن هذه الاستمرارية إنما هى استمرارية لمبادئهم .

ثانيهما : أن زعامات الأحزاب الجاهيرية وهى تحارب فى ميادين شتى ضد الاحتلال والقصر وأحزاب الاقليات قد رغبت فى تأمين نفسها من محاولات ضربها أو ما يمكن أن نسميه الاستيلاء على الحزب من الداخل وهى محاولات عرفها الحزب الوطنى على امتداد تاريخه بعد وفاة مصطفى كامل وحتى عام ١٩١٩ كما عرفها الوفد بعد ذلك .

لعل نفس هذا الباعث الأخير هو الذى دعا واضعى اللائحة إلى تخصيص مادتين من المواد الخمس التى تنظم عضوية الحزب لمنع نفس الاحتمال .

إحدى هاتين المادتين (المادة ٤) ترفض بتصميم قبول عضوية أى عضو فى حزب آخر غير الحزب الوطنى .

المادة الأخرى (المادة ٧) تحذر من صدور أى أقوال أو تصريحات لأحد الأعضاء بصفته عضواً للحزب دون الحصول على الموافقه المسبقة للجنة الإدارية .

تتناول لائحة الحزب الوطنى بعد ذلك تركيب الحزب والذى يلاحظ أنه قد اتخذ الشكل الهرمى المعروف فى الأحزاب الديموقراطية والذى يبدأ من القاعدة ليتدرج للقمة .

القاعدة تمثلت فى الجمعية العمومية للحزب والتى تتكون من مجموع أعضائه العاملين يجتمعون مرة فى شهر ديسمبر كل عام تحت اسم « المؤتمر الوطنى » لانتخاب اللجنة الإدارية والموافقة على ميزانية الحزب وأعماله وتقديم المقترحات وطرح المشروعات .

ينبثق من الجمعية العمومية اللجنة الإدارية التى تتشكل من ٣٠ عضواً بخلاف الرئيس وتنعقد مرة كل شهر للنظر فى أمور الحزب وتراجع ميزانيته أو ترفض طلبات العضوية الجديدة .

ويصل التشكيل الهرمى إلى قمته « باللجنة التنفيذية » للحزب التى تتكون من ثمانية أعضاء تنتخبهم اللجنة الإدارية بخلاف الرئيس يكون منهم نائبان للرئيس وسكرتير وأمين صندوق . وتجتمع هذه اللجنة مرة على الأقل كل أسبوع لتصريف أمور الحزب .

تتطرق لائحة الحزب بعد ذلك إلى تنظيم ميزانيته، وبالإضافة إلى المواد الخاصة بضبط المصروفات الحزبية فلعل أهم ملاحظة فى هذا الشأن ما تقرر من عدم وضع اشتراك محدد لأعضاء الحزب بل ترك الحرية لكل عضو « ليدفع ما يريد حسب مقدرته » .

ومثل هذا النظام كما أن له مزاياه فان له عيوبه أيضا ... أهم المزايا أنه لم يغلق باب العضوية أمام غير القادرين كحزب الأمة مثلا الذى اشترط اشتراكا سنويا للعضو قدره خمسة جنيهات ، وهو مبلغ كبير فى تلك الأيام، فى نفس الوقت فانه فتح مجالا واسعا للقادرين من أعضاء الحزب أن يدفعوا ما يستطيعون دفعه بكل ما يترتب عن ذلك من دعم لماليته .

إلا أنه على الجانب الآخر فقد كان من الصعب وضع أى خطط مسبقة لمصروفات الحزب قبل إغلاق باب جمع الاشتراكات فى آخر ديسمبر من كل عام بالاضافة إلى أن مثل هذا النظام كان يمكن أن يوقع الحزب تماما

تحت سيطرة القادرين من أبنائه . إذ لم يقتصر أمر هؤلاء على الغلبة فى دفع الاشتراكات فقط وإنما تعداه ليتولوا تأسيس مقر للحزب أو ما عرف بنادى الحزب .

فقد تناولت المواد ٢١ و ٢٢ و ٢٣ و ٢٤ من لائحة الحـــزب كيفية تأسيس هذا النادى بأن يقوم عدد من أعضاء الحزب القادرين على تأسيسه فى مقابل أسهم معينه يستردونها بعد ذلك من قيمة الاشتراك السنوى لأعضائه والذى حدد بمبلغ ثمانية جنيهات ، وهو مبلغ كبير نسبيا آنذاك أيضا ، مما يمكن القول معه أن عضوية نادى الحزب وهو المكان الذى يستطيع منه أعضاؤه ممارسة نشاطهم وتكوين كوادره القيادية.. هذه العضوية اقتصرت أيضا على القادرين .

وقد انعكس كل هذا على انتخاب لجنة الحـــزب الإدارية كذا لجنته التنفيذية . . فمن بين الثلاثين عضوا من أعضاء اللجنة الأولى كان هناك أربعة باشوات و٢٤ من البكوات واثنان فقط من غير حملة الألقاب ، أما اللجنة الثانية فقد ضمت أحد الباشوات وثمانية من البكوات ، كلهم ، فيما عدا على فهمى كامل شقيق زعيم الحزب ، من أسر كبار ملاك الأراضى المعروفة .

ثم أن هذا الوضع له خطورته من جانب آخر ألا وهو تضييق مجال القاعدة المؤثرة فى الحزب وما ينتج عن ذلك من زيادة إمكانيات ضرب الحزب من جانب خصومه . . ويتضح مدى هـذه الخطورة من الانشقاقات التى توالت عن قيادة الحزب بعد وفاة مصطفى كامل وبعد أن دب الخلاف بين قيادته الجديدة وبين الخديو عباس نتيجة لانتهاج هـذا الأخير لسياسة الوفاق مع السير الدون جورست المعتمد البريطانى الجديد فى القاهرة . فهذا الخلاف أدى إلى خروج أعداد غير قليلة من هذه القيادة المؤثرة عن الحزب أو عن قيادته الجديدة على الأقل سواء تم هذا الخروج على اللجنة الادارية أو حتى على مستوى اللجنة التنفيذية .

أخيراً لا يمكن التسليم بأن تلك اللائحة قد وضعت الشكل النهائى لهيكل الحزب الوطنى . . صحيح أنه لم يدخل عليها تغييرات فى عهد مصطفى كامل نفسه (الذى توفى بعد أقل من شهرين من تأسيس الحزب) إلا أنه على عهد خلفه قد دخلت عليها تغييرات عديدة . .

أهم هذه التغييرات ما نتج عن استمرار تزايد أعضاء الحزب فقد قررت لجنته الإدارية فى أبريل عام ١٩٠٨ أن تنتدب لجاناً فرعية تمثلها فى المدن الكبرى للرجوع إليها فى أعمال الحزب(١) .

وللحق فان هذه « اللجان الفرعية » كانت ميداناً واسعاً لنشاط أولئك الوطنيين الذين لم تمكنهم ظروفهم المادية من الاشتراك اشتراكا إيجابياً فى القيادات الحزبية العليا مما يمكن القول معه أن الحزب الوطنى قد تجنب بإنشاء هـــذه اللجان استمرار استئثار الطبقة القادرة بالعمل الفعال فى صفوفه .

الحقيقة الثانية أن ديناميكية الحزب كما وضعتها اللائحة لم تأخذ فرصتها الكاملة لأن توضع موضع التطبيق نتيجة لأعمال الاضطهاد والقمع التى واجهها بعد اشتعال الخصومة بينه وبين الخديو وما ترتب عليها من تشريد زعاماته فى السجن أو المنفى مما أصبح معه من الصعوبة بمكان تنفيذ ما جاء فى اللائحة بشأن الاجتماعات الدورية للجان الادارية والتنفيذية أو حتى لاستكمال عضوية تلك اللجان .

مبادىء الحزب الوطنى :

يبقى أخيراً النظر فى مبادىء الحزب الوطنى وهى مبادىء عشرة

---

(١) اللواء فى ١١ أبريل ١٩٠٨

اكتسبت شهرة كبيرة خلال تلك الحقبة من تاريخ الحركة الوطنية المصرية .

وقد تناولت هذه المبادىء القضايا الأساسية التى كانت تشغل الرأى العام المصرى آنذاك .

على الصعيد السياسى كان مطلبا الاستقلال والدستور يمثلان أهم مايتطلع إليه المصريون آنذاك لذا فقد تضمنتهما المادتان الأولى والثانية . . وعلى الصعيد السياسى أيضاً حرص الحزب الوطنى على طمأنة الأجانب سواء على مستوى الحكومات أو على مستوى الجاليات المقيمة فى البلاد .

على مستوى الحكومات بما جاء فى المادة الثالثة من احترام المعاهدات الدولية والاتفاقيات المالية التى ارتبطت بها الحكومة المصرية ، وعلى مستوى الجاليات المقيمة بمصر بما جاء فى المادتين التاسعة والعاشرة عن تقوية روابط المحبة والصفاء بين الوطنيين والأجانب .

على الصعيد السياسى أيضاً تمسك الحزب بحق المواطنين فى « انتقاد الأعمال الضارة بكل صراحة » كما جاء فى المادة الرابعة ، وبالسعى إلى تحقيق الوحدة الوطنية أو على حد تعبير المادة السابقة « بث الشعور الوطنى فى الأهالى ودعوتهم للاتحاد والائتلاف وتمكين المحبة بين عنصرى الأمة المسلمين والأقباط » .

يبقى من مبادىء الحزب الوطنى التى أعلنها مصطفى كامل فى زيزينيا ثلاثة مبادىء أحدها خاص بالتشجيع على نشر التعليم (المبدأ الخامس) والآخر يتحدث عن ترقية الزراعة والصناعة والتجارة (المبدأ السادس) ، والأخير يتصل بالاجتهاد فى تحسين الأحوال الصحية (المبدأ الثامن) .

ويلاحظ فى هذا الصدد أن الحزب الوطنى قد خصص أغلب مبادئه

للقضايا السياسية ويختلف فى هذا مع الحزب السياسى الكبير الآخر، حزب الأمة، الذى لم يخصص سوى مبدأ واحد من مبادئه الستة للمطالب السياسية وهو المبدأ الثانى الذى طالب فيه بتوسيع اختصاصات المجالس النيابية القائمة .

* * *

لعل أهم القضايا التى أثيرت حول المبادىء العشرة للحزب الوطنى ما جاء فى المبدأ الأول من هذه المبادىء الذى ظل يثير كثيراً من التنقلات حول وطنية الحزب من ناحية ، وحول إخلاص زعيمه لمصر من ناحية أخرى .

نص هذا المبدأ كما جاء فى خطبة زيزينيا، كان :

« استقلال مصر كما قررته معاهدة لوندرة فى عام ١٨٤٠ وضمنته الفرمانات السلطانية ، ذلك الاستقلال الضامن عرش مصر لعائلة محمد على والضامن للاستقلال الداخلى للبلاد (ويدخل تحته كافة البلاد التى ضمت لمصر بمقتضى فرمانات سلطانية) وهو الاستقلال الذى وعدت انكلترا باحترامه وتعهدت رسمياً بذلك » .

وقد تعرض مصطفى كامل شخصياً ، ومعه الحزب الوطنى بالطبع ، لحملة شديدة نتيجة لهذا المبدأ . . كان أساس تلك الحملة أن الرجل وحزبه إنما يسعيان إلى استبدال سيد بسيد . استبدال الانجليز بالأتراك . . وكانت المقطم على رأس الصحف التى شنت الحملة .

دعا ذلك اللواء إلى محاولة توضيح الأمور فى مقالة طويلة له تحت عنوان « الحزب الوطنى والاستقلال » .

لخصت لسان حال الحزب فى تلك المقالة الأسباب التى دعت إلى ورود المبدأ الأول من مبادئه على النحو الذى ورد به فيما يلى :

١ — تدحيض ما يتقول به أعداء الحزب بأنه لا يرغب فى الإبقاء على عرش محمد على فى مصر مما دعاه إلى القول بأنه ضد أى تغيير للمعاهدات الدولية والفرمانات التركية .

٢ — ثم إن الباب العالى احترم دائماً استقلال مصر الثانى ولم يحاول أبداً المساس به مما يبدو فى أنه لم يبعث بقواته للقضاء على الثورة العرابية .

٣ — أيضاً فان التمسك بالفرمانات السلطانية سيؤدى فى النهاية إلى عدم شرعية الشركة الإنجليزية مع مصر فى حكم السودان فان هذه الفرمانات تمنع مصر من التخلى عن أى جزء من أراضيها أو ملحقاتها(١) .

ولكن بالرغم من ذلك فان هجمات خصوم الحزب الوطنى عليه لم تتوقف اتهاماً له بتغليب ولائه التركى على ولائه المصرى . . ولعـــل ذلك ما دعا الحزب الوطنى خلال عام ١٩٠٨ وبعد وفاة مصطفى كامل بفترة قصيرة إلى أن يدخل تغييراً على نص هذا المبدأ ليصبح على الوجه الآتى « استقلال مصر مع سودانها استقلالا تاماً غير مشوب بأية حماية أو وصاية أو سيادة أجنبية أو أى قيد يقيد هذا الاستقلال » .

ويلاحظ الباحث أن التغيير لم يقتصر فقط على المبدأ الأول من مجموع المبادىء التى أعلنها مصطفى كامل فى خطبة زيزينيا وإنما تعداه إلى عدد آخر من المبادىء . .

المادة الثالثة كان نصها احترام المعاهدات الدولية والاتفاقيات المالية

---

(١) اللواء فى ٣١/١٠/١٩٠٧

التى ارتبطت بهـــا الحكومة المصرية لسداد الديون وقبول مراقبة مالية كالمراقبة الثنائية وما دامت مصر مدينة لأوربا وما دامت أوربا تتطلب هذه المراقبة » .. تغيرت هذه المادة لتصبح « احترام المعاهدات الدولية والاتفاقيات المالية التى ارتبطت بها الحكومة المصرية لسداد الديون احتراماً لا يمس سيادة البلاد » .

المادة التاسعة وكان نصها « تقوية روابط المحبة والصفاء بين الوطنيين والأجانب وإزالة سوء التفاهم بينهم والسعى لجعل محاكمة المجرمين الأجانب أمام المحكمة المختلطة » . . تقلصت هذه المادة وأصبح نصها الجديد « المحافظة على روابط المحبة والصفاء بين الوطنيين والأجانب » .

نفس التقلص أصاب المادة العاشرة التى كان نصها « بذل الجهود لتقوية علائق المحبة والارتباط والتعلق التام بين مصر والدولة العلية وإنماء علائق المحبة بين مصر ودول أوربا . . ونفى كل تهمة عن مصر والعمل لإيجاد أنصار لها فى كل أنحاء العالم حتى تكون لها قوة أدبية سامية تساعدها على اعتراف الغير بحقوقها الشرعية والتغلب على المساعى التى تعمل ضدها ويراد بها إخفاء الحقيقة » .. تحولت لتصبح « أحكام العلاقات الودية وتبادل الثقة بين مصر والدول الأخرى » .

والسمة الغالبة على كل التغييرات السابقة إنها تتجه نحو قدر أقل من التنازلات وقدر أكبر من التشدد الوطنى .

ويمكن أن تعزى تلك التنازلات ، أو بالأحرى الرغبة فى الظهور بمظهر الاعتدال ، والتى غلفت مبادىء الحزب الوطنى لدى إعلانها لأول مرة إلى مخاوف الزعامة الوطنية من تهمة التطرف أو الثورية . .

ومصدر تلك المخاوف يعود إلى إيمان عميق من جانب مصطفى كامل

إلى أن السلوك الثورى المتطرف الذى سلكه العرابيون قد أدى فى النهاية إلى إنزال الكارثة الوطنية بالبلاد بتمكين الإنجليز من احتلالهـــا ، وأن الالتزام بمثل هذا السلوك يمكن أن يؤدى فى النهاية إلى تذرع المحتلين بوجود حالة الهياج والفوضى لتكريس وجودهم فى مصر ، بل يمكن أن تودى إلى ما هو أخطر من ذلك بضم مصر إلى الامبراطورية وهو ما ظلت تلوح به بعض الصحف الناطقة بلسان الاحتلال بين الحين والآخر وبالذات صحيفة المقطم وصحيفة الاجبشيان جازيت ..

ويبدو نزوع الزعيم المصرى عن أسلوب العرابيين وتمسكه بالأساليب السياسية فى كفاحه الوطنى فى نفيه الدائم لتهمة التطرف أو الثورة عما ظل يرميه به خصومه ... فهو فى جانب من خطبة زيزينيا يرفض القول بأنه والحزب الوطنى متطرفون ويذكر أن الحزب يطالب الأمة بالعمل والحفاظ على السكينة وبأخذ أوفر قسط من العلم وبعدم التعصب ... وينفى تهمة الثورية فى جانب آخر حين يقول بالحرف الواحد « قالوا إننا نريد أحداث ثورية دينية فى البلاد وأنه أوعز إلينا من الآستانه بها ... وهو قول الجاهل أو المتجاهل المتعنت ... لأن المصرى الذى يدعو لفتنة أو يعمل لها يكون عدواً لبلاده » .

ولعل فلسفة الزعيم المصرى فى هذا الصدد قد بدأت منذ وقت مبكر ، ففى أغسطس ١٨٩٥ جاء فى أحد خطاباته لعلى فهمى كامل ما نصه « من الحكمة ألا نمكن العدو من رقابنا بل نجتهد فى توجيه السهام إليه مع احتراسنا من سهامه وإنى لا أود أن يدخل الضباط فى حركتنا دخولا ظاهراً لأن هذا يضر بالمسألة المصرية ضرراً بليغاً حيث يجد الاحتلال مسوغا لاختلاق التهم الثورية بمصر وغير ذلك مما لا يخفى عليكم »(١) .

---

(١) مصطفى كامل فى ٣٤ ربيعاً جـ٣ ص٩٧

هذا ما يمكن أن نفسر به موقف الاعتدال الذى التزم به الحزب الوطنى لدى إعـــلان مبادئه فى أكتوبر ١٩٠٧ ، ولكن بدلا من أن يؤدى ذلك الموقف إلى تحقيق أهدافه إذا به يؤدى إلى موقف معاكس حين وجدها خصوم الحزب فرصة للامساك بتلابيبه واتهامه بالتهاون .

وإذا كانت شخصية مصطفى كامل بكل ما وراءها من تاريخ وبكل ما اتخذته من مواقف كانت قادرة على الإلقاء بمثل هذه الاتهامات جانباً فان خلفاءه وليس لهم ما له من تاريخ أو من جماهيرية لم يكن أمامهم من بد سوى التخلى عما بدا اعتدالا فى مبادىء الحزب وتطويرها بما يلائم الموقف بعد رحيل زعيمه ومؤسسه فكانت التغييرات التى حدثت .

مصطفى كامل والجامعة الاسلامية

للأستاذ محمد عمارة

كان مصطفى كامل من أنصار الجامعة الاسلامية ، بل من دعاتها ، وسواء فى عصره أو بعد موته فلقد وجهت إليه الانتقادات والاتهامات لرفعه هذا الشعار ونضاله تحت ألويته وأعلامه، وفى العديد من خطبه ومقالاته ورسائله نقرأ دفاعا عن الجامعة الاسلامية وتفسيرا لمفهومه لها والمضمون الذى يعنيه عندما يرفع هذا الشعار .

ولم يكن غريبا أن ينخرط مصطفى كامل والتيار الوطنى الذى بلوره وقاده ورعاه مع القوى العديدة التى اتجهت للعمل الفكرى والسياسى تحت شعار الجامعة الاسلامية ، لأن هذا الشعار كان أبرز الشعارات التى عرفها الشرق كله فى القرن التاسع عشر ، وعلى الأخص فى النصف الثانى منه . ولكن الغريب هو عدم التمييز بين التيارات المختلفة والمتميزة التى استظلت بشعارات الجامعة الاسلامية وأعلامها ، تلك التيارات التى رفعت جميعا هذا الشعار ، ولكن من منطلقات غير متحدة ، ولأهداف متعددة ، وإن جمعت بينها جميعا بعض القسمات والغايات ... ونحن نعتقد أن هذا الخلط الذى قاد أصحابه للنظر إلى حركة الجامعة الاسلامية باعتبارها تياراً فكرياً وسياسياً واحداً لا عدة تيارات ، هو المسئول عن تلك الأفكار المغلوطة ، التى تبلورت فى شكل عدد من الاتهامات التى وجهت إلى نضال مصطفى كامل تحت هذا الشعار ...

فالجامعة الإسلامية ، تعنى ، فى الأساس ، ذلك التيار الفكرى والسياسى

الذى أبصر قادته وأنصاره أن هناك عدداً من التحديات التى تواجه الفكر الإسلامى والشعوب والأمم الإسلامية سواء كانت تلك التحديات آتية من داخل الأوطان الإسلامية ، كالتخلف الفكرى والروحى والانحدار الحضارى والسياسى والصراعات الإقليمية والقبلية ، أو آتية من الخارج فى شكل المد الاستعمارى والإمبريالى الذى زحف من أوربا على الشرق ، وخاصة فى القرن التاسع عشر ... تيار الجامعة الإسلامية هو الذى أبصر أصحابه هذه التحديات ، من ثم آمنوا بأن تشخيصها ، فى مختلف بلاد الإسلام والمسلمين ، واحد ، من ثم فإن علاجها ومواجهاتها والانتصار عليها فى مختلف هذه البلاد له كذلك طريق واحد يؤدى إلى تلك الغاية الواحدة المنشودة ، وهى التغلب على هذه التحديات والعودة بهذه الأمم والشعوب الإسلامية إلى دائرة التأثير الانسانى والعطاء الحضارى كما كانت قبل أن تقهرها هذه التحديات ...

ذلك هو الوصف العام لتيار الجامعة الإسلامية ، الفكرى والسياسى ، كما عرفه الشرق فى ذلك التاريخ ... ولكن وحدة هذا الشعار لم تخف فى يوم من الأيام عن عين الباحث المتأمل تلك الفروق الجوهرية التى جعلت ، فى الحقيقة والواقع ، من تيار الجامعة الإسلامية عدداً من التيارات ، بينها من عوامل الاختلاف والتمايز ، أحيانا ، أكثر مما بينها من أوجه الوفاق والاتفاق ... ومن ثم فإن الحديث عن (مصطفى كامل والجامعة الإسلامية) يتطلب أولا أن نحدد موقعه الفكرى والسياسى من « خريطة » تيارات الجامعة الإسلامية ، وهو الأمر الذى يستدعى فى البداية إلقاء نظرة على « خريطة » هذه التيارات .

تيارات فى اطار الجامعة الاسلامية :

* ونحن نستطيع أن نذكر الحركة الوهابية التى أسسها زعيمها محمد بن عبد الوهاب (١٧٠٣ — ١٧٩٢م) كأقدم تيار فكرى وسياسى يمكن أن يندرج تحت شعار « الجامعة الإسلامية » فى عصرنا الحديث ، فلقد كانت الوهابية — فى الفكر — حركة ترمى إلى تجديد شباب الإسلام والمسلمين عن طريق طرح ركام البدع والخرافات التى دخلت فى عقائد المسلمين ، وهى البدع والخرافات التى كانت تكون الجزء الأساسى من تصور السلطنة العثمانية ومؤسساتها عن عقائد الإسلام ، ومن ثم كانت الوهابية - سياسيا - حركة مناهضة للعثمانيين(١) .

* ولقد كانت الحركة السنوسية التى أسسها بالمغرب محمد بن على السنوسى (١٧٨٧ — ١٨٥٩م) هى الامتداد الوهابى إلى بلاد الشمال الافريقى ، بعد أن أدخلت فى بنيتها الفكرية ونشاطها العملى خصائص المكان وتحديات الاستعمار الغربى ، وخاصة الفرنسى ، التى كانت تزحف على تلك المنطقة فى ذلك الحين ... ومن ثم فان السنوسية كذلك ، بطابعها الصوفى الذى تميزت به عن الوهابية كانت هى الأخرى تيارا يعمل ويناضل تحت هذا الشعار(٢) .

* بل أن تيار الحركة الاسماعيلية الحديثة ، التى كان من أبرز قادتها « أغاخان » (١٨٧٧ — ١٩٥٧م) قد عمل هو الآخر تحت شعار الجامعة الإسلامية ، وفى ذلك يقول أغاخان : « إن هناك جامعة إسلامية حقة صريحة ينضم إلى لوائها الحر كل مسلم مؤمن مخلص ، أعنى بذلك الرابطة الروحانية

---

(١) انظر (حاضر العالم الاسلامى) تأليف : لوثروب ستودارد . ترجمة عجاج نويهض . مجلد ١ جـ١ ص٢٩١ طبعة بيروت سنة ١٩٧١م .

(٢) المصدر السابق . مجلد ١ جـ١ ص ٢٩٠

الوجدانية والوحدة الجامعة بين أتباع صاحب الرسالة الإسلامية ، فهذه الوحدة الإسلامية الروحانية التهذيبية يجب أن تتعهد فتنمو أبدا ، لأنها عند اتباع النبى أس الحياة وجوهر النفس(١) .

فتحت شعار الجامعة الإسلامية،إذاً ، نجد: الوهابية بقسماتها السلفية . . والسنوسية باتجاهاتها الصوفية .. والإسماعيلية بما تتميز به من أسرار باطنية تستدعى وضع العديد من علامات الاستفهام ؟ !

ثم ، هناك ذلك التيار الذى كان أبرز تيارات الجامعة الإسلامية فى النصف الثانى فى القرن التاسع عشر ، والذى تزعمه فيلسوف الشرق وموقظه جمال الدين الأفغانى (١٨٣٩ — ١٨٩٧م) والذى زامله فيه الأستاذ الإمام محمد عبده (١٨٤٩ — ١٩٠٥ م) ولقد تميز هذا التيار بعدد من الخصائص فى مقدمتها :

١ — الإصلاح الدينى من مناطق العقلانية ، إيماناً بأن الشرق لن ينتصر فى صراعه مع الغرب إلا إذا تسلح بسلاح العقل ، ذلك السلاح الذى ضمن للغرب تفوقه فى هذا الصراع .

٢ — تجديد الصلات الحضارية مع الغرب ، واقتباس المناسب منها — كما صنع العرب فى العصر العباسى — حتى يتمكن الشرق من العودة إلى دائرة التأثير والعطاء الحضارى .

٣ — المحافظة على بقاء السلطنة العثمانية ، وتنمية جوانبها الإيجابية ، والعمل على تجديد شبابها ، لا من منطلق الإيمان بها كخلافة إسلامية وإمارة للمؤمنين ، وإنما من منطلق الضرورات التى يحتمها التصدى للعدو الرئيسى

---

(١) المصدر السابق مجلدا . جـ١ ص ٣٢٠

وهو الاستعمار الأوربي الزاحف على بلاد الإسلام . فهو يحافظ عليها سياسياً ويحاول تنمية قواها السياسية ، ويهاجم فكريتها الرجعية المتخلفة بهدف تطويرها وتجديد شبابها .

ومن أجل ذلك لم يناصر هذا التيار — فى كثير من الأحيان — حركات الاستقلال القومى العربى عن الإمبراطورية العثمانية ، لأنه كان يبصر تربص الاستعمار الأوربى كى يكون هو الفائز الأول ، وربما الوحيد من وراء هذا الصراع القومى ضد العثمانيين . ويعبر عن هذه الحقيقة رأى الإمام محمد عبده فى أهلية عرب شبه الجزيرة العربية للاستقلال عن تركيا ، إذ يقول :

« إن العرب أهل لذلك، ولكن الترك لا يمكنونهم منه، وعندهم من القوة العسكرية المنظمة ما ليس عندهم، فإذا شعروا بذلك أو رأوا بوادره قاتلوهم ، حتى إذا وهنت قوة الفريقين وثبت دول أوربه الواقفة لهما بالمرصاد ، فاستولت على الفريقين أو على أضعفهما ، وهذان الشعبان — (العرب والأتراك) — هما أقوى شعوب الإسلام . فتكون العاقبة إضعاف الإسلام وقطع الطريق على حياته(١) » .

٤ — وانطلاقاً من هذا التأييد السياسى للسلطنة العثمانية اجتهد هذا التيار كى يجعل من « علاقة الدين والمعتقد » بديلا للعلاقات القومية — (الجنسية) — التى كانت تنمو يومئذ فى عدد غير قليل من الأقطار المحكومة بسلطة آل عثمان . ولقد عبرت مجلة (العروة الوثقى) عن هذه الخاصية التى كانت من أبرز خصائص هذا التيار ، فكتبت : أنه « لا جنسية للمسلمين

---

(١) الأعمال الكاملة للامام محمد عبده . دراسة وتحقيق محمد عمارة . ج ١ ص ٧٣٥ طبعة بيروت ١٩٧٢ م .

إلا فى دينهم »[١] و « إن المسلمين لا يعرفون لهم جنسيـــة إلا فى دينهم واعتقادهم[٢]» وإن المسلمين تاريخياً « لايعتدون برابطة الشعوب وعصبيات الأجناس ، وإنما ينظرون إلى جامعة الدين فلهذا ترى المغربى لا ينفر من سلطة التركى ، والفارسى يقبل سيادة العربى ، والهندى يذعن لرياسة الأفغانى ، ولا اشمئزاز عند أحد منهم ولا انقباض ، وأن المسلم فى تبدل حكوماته لا يأنف ولا يستنكر ما يعرض عليه من أشكالها وانتقالها من قبيل إلى قبيل ما دام صاحب الحكم حافظا لشأن الشريعة ذاهباً مذاهبها ... »[٣] .

ولقد واصل الامام محمد عبده ، بعد (العروة الوثقى) التبشير بنفس الأفكار ، ففى إحدى فتاواه سنة ١٣٢٢ هـ — قبل وفاته بعام واحد — يقول: إن « الجنسية ليست معروفة عند المسلمين ، ولا لها أحكام تجرى عليهم ، لا فى خاصتهم ولا عامتهم ، وإنما الجنسية عند الأمم الأوروبية تشبه ما كان يسمى عند العرب : عصبية ... جاء الاسلام فألغى تلك العصبية فالجنسية لا أثر لها عند المسلمين قاطبة ... لا جنسية فى الاسلام ... »[٤] .

٥ — ولكن هذا المفهوم المناهض للتمايز القومى وحركات التبلور المرتكزة على أسس قومية لم يجعل هذا التيار من تيارات الجامعة الاسلامية ينكر الاستقلال الذاتى على الشعوب الاسلامية المؤهلة لذلك عن سلطة العثمانيين ، يشهد لذلك أن هذا التيار هو الذى رفع شعار « مصر للمصريين » قبيل الثورة العرابية ، من خلال (الحزب الوطنى) السرى الذى قاده الأفغانى

---

(١) الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى . دراسة وتحقيق محمد عمارة . ص ٣٤٢ طبعة القاهرة ١٩٦٨م .

(٢) المصدر السابق . ص ٣٠٧

(٣) المصدر السابق ص ٣٤٩ ، ٣٥٠

(٤) الأعمال الكاملة للامام محمد عبده جـ٦ ص ٢٥٤ ، ٢٥٥

فى مصر ، وأن هذا التيار قد شارك — من موقع الاعتدال — فى الثورة العرابية ذات الطابع القومى المصرى ، فهو لم يكن يدعو إلى « وحدة الدولة» بين كل المسلمين ، لاعتبارات عملية كثيرة جملته يطلب « وحدة السياسة » و« التضامن » الاسلاميين ، بدلا من « وحدة الدولة » والأفغانى يعبر عن ذلك المطلب فى (العروة الوثقى) فيقول : أنا لا أطلب « أن يكون مالك الأمر فى الجميع شخصاً واحداً ، فان هذا ربما كان عسيراً ، ولكنى أرجو أن يكون سلطان جميعهم القرآن ، ووجهة وحدتهم الدين ، وكل ذى ملك على ملكه ، يسعى بجهده لحفظ الآخر ما استطاع ، فان حياته بحياته وبقاءه ببقائه .. (١) .

كما يعبر عنها الإمام محمد عبده فيقول فى رده على « جبريل هانوتو » : « يكثر المسلمون اليوم من ذكر الدولة العثمانية ، والسلطان عبد الحميد، ويعلقون آمالهم بهمته ، وكثير منهم يدعون إلى عقد الولاء له ، وهذا أمر لا ينبغى أن يدهش أحداً ، فان هذه الدولة هى أكبر دول الاسلام اليوم ، وسلطانها أفخم سلاطينهم ، ومنه يرتجى إنقاذ ما بين يديه من المسلمين عما حل بهم ، وهو أقدر الناس على إصلاح شئونهم ، وعلى مساعدة الداعين إلى تمحيص العقائد وتهذيب الأخلاق بالرجوع إلى أصول الدين الطاهرة النقية ...(٢) » .

٦ — كما يمتاز هذا التيار من تيارات الجامعة الاسلامية بدعوته الدائمة إلى توحيد العناصر الوطنية للأقطار الاسلامية بصرف النظر عن العقائد والأديان ... فتيار الجامعة الاسلامية — فى هذا الحقل — هو عندهم تيار الجامعة الشرقية العامل فى سبيل يقظة الشرق ونهضته ، وما الحديث عن

(١) الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى ص ٣٤٥
(٢) الأعمال الكاملة للامام محمد عبده ج٣ ص٢٣٢ ، ٢٣٣

المسلمين إلا بسبب من أن الأغلبية مسلمة والكثير من الامراض إنما مصدرها ما أصاب عقائد المسلمين الدينية من تخلف وجمود أبعدها عن جوهرها النقى الأصيل ... فالأفغانى لا يميز بين الناس على أساس من الدين والمعتقد ، بل يقطع بأنك « لاترى فى الأديان الثلاثة ما يخالف نفع المجموع البشرى، بل بالعكس تحضه على أن يعمل الخير المطلق مع أخيه وقريبه ، وتحظر عليه عمل الشر مع أى كان ... أما اختلاف أهل الأديان ، فليس هو من تعاليمها ولا أثر له فى كتبها . وإنما هو صنع رؤساء الأديان الذين يتجرون بالدين ، ويشترون بآياته ثمناً قليلا . ساء ما يفعلون(١) » والامام محمد عبده ، الذى كون فى منفاه بيروت جمعية لتوحيد الأديان ، يحذر من التفرقة بين أبناء الوطن الواحد بسبب تعدد الأديان ، لأنه « إذا تنافرت الطوائف تشاغلت كل منها بما يحط شأن الأخرى ، فكانت كل مساعيهم ضرراً على أوطانهم»(٢) .

٧ - هذا عن الوحدة الوطنية فى الداخل ... أما عن الخارج فان هـذا التيار لم ير فى الجامعة الاسلامية حركة يواجه فيها إسلام الشرق مسيحية الغربيين ، فهى ليست عودة إلى الصراعات الدينية والحروب المقدسة ، وإنما هى تيـار سياسى وحضارى يبغى يقظة الشرق كى يدفع عن نفسه التحديات الداخلية والخارجية على السواء ... وعن هذه القسمة من قسمات ذلك التيار يقول الامام محمد عبده : إنه « لم يخطر ببال أحد ممن يدعو إلى الرجعية إلى الدين ، سـواء فى مصر أو غيرها ، أن يثير فتنة على الاوربيين وغيرهم من الأمم المجاورة للمسلمين ، وبعضهم يظن أنه لو انتبه المسلمون... لاستغنوا عمن أدخلوه فى أعمالهم من غيرهم ... وهو سوء ظن ، فإن أهل الوطن الواحد لا يستغنى بعضهم عن بعض ... نعم ... يعرض فى طريق الدعوة إلى الدين،

(١) الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى ص٢٩٢

(٢) الأعمال الكاملة للامام محمد عبده ج١ ص٦٥٣

من هذا الوجه ، أن يلتمس مسـلم بمصر معونة من مسلم بسوريا أو بالهند أو بالعجم أو بأفغانستان ، أو بغير هذه الأقطار ، لأن غرض الجميع واحد ، وهو البدعة فى الدين فاذا نجح الدواء فى موضع كان السليم أسوة لمريض فى موضع آخر(١) » .

فهو ، إذاً تيار سياسى وفكرى ناضل تحت شعار الجامعة الإسلامية من أجل يقظة الشرق كله ، على أساس من وحدة العقيدة الاسلامية كبديل للتقسيمات والتجزئة القومية . وعلى أساس من التأييد والمساندة للسلطنة العثمانية التى رام تجديدها وتقويتها — فى ذات الوقت — كراية يحتشد الشرق من خلفها ضد الزحف الاستعمارى الأوربى . وعلى أساس من تجديد الفكر الدينى وتطويره بالعقل والعقلانية . وعلى أساس من الانفتاح على الحضارة الأوربية والاستفادة من عطائها الملائم والضرورى . واستناداً إلى وحدة وطنية تجمع أبناء الأديان الشرقية الثلاث ، وخاصة المسلمين والمسيحيين . تلك هى ملامح ذلك التيار الذى كان أبرز تيارات الجامعة الإسلامية فى ذلك الحين .

ثم هناك التيار الذى مثله المفكر العربى الإسلامى عبد الرحمن الكواكبى (١٨٥٤ — ١٩٠٢م) ، وهو الذى رام تجديد حياة العالم الإسلامى ، ولكن تحت قيادة العنصر العربى ، فكانت الجامعة الإسلامية عنده تياراً مناهضاً للأتراك العثمانيين(٢) .

ثم هناك أخيراً التيار العثمانى فى الجامعة الإسلامية ، وهو الذى قاده السلطان عبد الحميد الثانى (١٨٤٢ — ١٩١٨م) نحواً من ثلاثين عاماً .. وهو

---

(١) المصدر السابق جـ ٣ ص ٢٣٢

(٢) انظر الدراسة التى قدمنا بها لأعماله الكاملة ، وخاصة صفحات ٣٤ — ٥٦ طبعة القاهرة ١٩٧٠ م .

التيار الذى كانت تعنى فكرة الجامعة الإسلامية لديه وحـــدة دولة الامبراطورية العثمانية وإحكام قبضتها على كل أجزاء العالم الإسلامى ، واستبعاد كل العوامل والتيارات التى تعرقل الوصول إلى هذا الهدف الأصيل .

تلك هى التيارات الأساسية التى عرفتها حركة الجامعة الإسلامية ... فأين كان موقع مصطفى كامل وحزبه الوطنى وتياره السياسى والفكرى من هذه الخريطة التى رسمنا أهم معالمها ؟ وإذا كان التيار الذى عبر عنه الأفغانى ومحمد عبده قد كان أكثر تيارات الجامعة الإسلامية عمقاً وتقدماً ، فما مكان مصطفى كامل – كداعية من دعاة الجامعة الإسلامية – من هذا التيار بالذات ؟ أكان عن يمينه ومتخلفاً عنه ؟ أم تقدمه ، واستشرف آفاقاً أكثر تطوراً وتقدماً من تلك التى وصل إلى آفاقها ذلك التيار ؟؟ وإذا كانت علاقته بالعثمانيين وسلطانهم قد كانت دوماً مغمزاً لخصومه ومناوئيه ، فما مكانه من التيار العثمانى فى حركة الجامعة الإسلامية ؟ ومن ثم ما هى القيمة الموضوعية للاتهامات التى وجهت إليه فى هذا المجال ؟؟ .

الاتهام :

ليس هناك من طعن ، أو من يستطيع أن يطعن فى وطنية مصطفى كامل وحبه ، بل عشقه لمصر وهيامه بها ، والوطنية كانت هى الرسالة الأولى ، إن لم تكن المهمة الوحيدة لهذا الزعيم العظيم فى هذه الحياة ... ولكن هناك من طعن فى موقفه من حركة الجامعة الإسلامية ، وعلاقته بتركيا والسلطان العثمانى ، ثم اتخذ الطعن فى هذا الجانب من جوانب فكر مصطفى كامل ونشاطه سبيلا للطعن فى وطنيته ... ومن هنا كان جلاء هذه الصفحة من صفحات نضاله ضرورياً لرد السهام التى وجهت بطريق غير مباشر إلى لب

القضية والرسالة التى عاش لها ومات فى سبيلها ... ومن هنا كذلك كان اختيارنا للمنهج الذى نتبعه فى هذه الدراسة ... منهج جلاء الحقيقة من خلال مناقشة الاتهامات ...

ونحن نستطيع أن نلخص الاتهامات التى وجهت إلى فكر مصطفى كامل ونشاطه الخاص بحركة الجامعة الإسلامية فيما يلى :

أولا : أن مصطفى كامل كان يعنى بشعار الجامعة الإسلامية العودة بمصر، بعد تحريرها من الاستعمار الانجليزى . إلى حظيرة الدولة العثمانية ، سواء أكانت عودتها تلك كولاية عادية ، أو كولاية ممتازة ، تتمتع باستقلال ذاتى عن آل عثمان .. وفى ذلك يقال عنه : أنه « لم يرفع شعار استقلال مصر التام ، بل ناضل لإعادة البلاد إلى حظيرة الإمبراطورية العثمانية ، وبهذه المناسبة بشر بفكرة الجامعة الإسلامية ... »[1] .

وكما ترددت هذه الاتهامات بعد وفاة مصطفى كامل ، فلقد وجهت إليه فى حياته ، وانبرى للرد عليها[2] .

ثانياً : أن شعار الجامعة الإسلامية عند مصطفى كامل كان ذا مضمون طائفى ، فحديثه كان عن المسلمين دون الأقباط من أبناء مصر ، ودعوته كانت لمواجهة بين إسلام الشرق ومسيحية الغرب ، وفكره كان رجعياً متخلفاً عن روح العصر وعن المدنية الأوربية على وجه التحديد ...

---

(١) لوتسكى (تاريخ الأقطار العربية الحديث) ص ٢٨٩ ، ٢٩٠ . طبعة موسكو العربية ، سنة ١٩٧١م .

(٢) عبد الرحمن الرافعى (مصطفى كامل ، باعث الحركة الوطنية)ص ٥٠٧ ، ٥٠٨ ، ٣٥١ ، ٥١٠ ، ٥١١ . الطبعة الرابعة سنة ١٩٦٢م .

وإذا كانت هذه هي الاتجاهات الأساسية التي وجهت وتوجه إلى موقف مصطفى كامل من شعار الجامعة الإسلامية وحركتها ، فإننا واجدون — لحسن الحظ — فى فكره ونشاطه ومواقفه ما يفندها وينقضها ، جميعاً وبلا استثناء .

العلاقة بين مصر وتركيا :

ونحن نعتقد أن الذين اتهموا مصطفى كامل بالسعي من وراء شعار الجامعة الإسلامية إلى إعادة مصر إلى حظيرة الإمبراطورية العثمانية ، إنما كانوا يفترون على الرجل افتراء ليس له مايبرره ، حتى لو كان هذا المبرر أنواعاً من الشك أو ضرباً من الأوهام ... ذلك أن فكر مصطفى كامل وعقيدته ونشاطه العملي إنما كانت تصب جميعاً فى إقامة ذلك البناء الذى أسهم فيه أكثر من أى معاصر له ، بناء « القومية المصرية » و « الذاتية المصرية » و « الوطنية المصرية » ، وهى كلها أحجار عثرة فى سبيل أية محاولة تبذل لإعادة البلاد مرة ثانية إلى حظيرة امبراطورية آل عثمان ...

هذا عن النتيجة الطبيعية التى يفضى إليها ، بالقطع والحتم ، فكر مصطفى كامل ونشاطه ... وبالطبع فلقد كانت وقائع نضاله تسير فى ذات الطريق ...

لقد كانت العلاقة القانونية التى تربط مصر بالدولة العثمانية ، قبل الاحتلال الإنجليزى لمصر سنة ١٨٨٢م ، علاقة واهية تبرز أساساً فى نطاق « الشكل » أكثر مما تتبدى فى مضامين جوهرية تحد من الاستقلال الحقيقى للبلاد ... ذلك أن القيود التى فرضتها معاهدة لندن سنة ١٨٤٠ م والفرمان الهمايونى الصادر فى ١٢ فبراير سنة ١٨٤١ على الاستقلال الحقيقى الذى تحقق لمصر تحت سلطة محمد على ، أن هذه القيود قد زالت بالفرمان الذى صدر

من السلطان الغازى عبد العزيز خان لصديقه الخديوى إسماعيل فى ٨ يونيو سنة ١٨٧٣ م ، والذى نص فيه أن « يكون هذا الفرمان الجديد قائم مقام الفرمانات السابقة ، والذى أعطيت فيه مصر الحرية الكاملة فى شئونها الداخلية والخارجية ، بما فى ذلك عقد المعاهدات مع الدول الأجنبية « بصورة لاتستلزم إخلال معاهدات الدولة العلية البولتيقية (السياسية) » كما ألحق هذا الفرمان بحدود مصر — فضلا عن السودان — « قائمقاميتى (سواكن) و (مصوع) وملحقاتهما وأدخل حكم هذه الملحقات فى إطار مصر ، بحيث يسرى عليها نظام توارث العرش الذى حدده هذا الفرمان ... ولم تكن هناك قيود تحد من الاستقلال الحقيقى لمصر ، اللهم إلا « الويركو » السنوى البالغ « مائة وخمسين ألف كيس » ، وصدور العملة باسم السلطان ، ووحدة أعلام الجيش العثمانى ... وهى قيود تدخل فى نطاق الشكل أكثر منها فى نطاق الأمور الجوهرية التى تحد من الاستقلال الحقيقى للبلاد ...

وبعد ذلك بعامين — فى ٢٧ جمادى الأولى سنة ١٢٩٢ هـ — ألحقت بحدود الخديوية المصرية « مدينة (زيلع) وملحقاتها التابعة للواء الحديدة على الشاطىء اليمنى للبحر الأحمر(١) » .

كانت هذه هى العلاقة القانونية التى تحكم صلات مصر بالعثمانيين ... فحتى الذين كانوا يريدون تحرير مصر من الإنجليز كى تعود « ولاية ممتازة » فى الإطار العثمانى لايمكن القول — بموضوعية وجدية — أنهم كانوا يريدون استبدال احتلال باحتلال ، لأن مصر لم تكن مستعمرة عثمانية قبل أن يحتلها الإنجليز سنة ١٨٨٢م . فإبالنا ومصطفى كامل — كما سيتضح بعد — لم يكن أبداً من أنصار العودة — أية عودة — إلى حظيرة الامبراطورية العثمانية .

(١) محمد فريد (تاريخ الدولة العلية العثمانية) ص ٣٠٤ — ٣٠٨

« إن القرن التاسع عشر ، وخاصة نصفه الثانى كان يشهد قمة الزحف الامبريالى على أجزاء الامبراطورية العثمانية ، ومن ثم فان هذه الامبراطورية وسلطانها — رغم تاريخها المظلم مع العالم العربى — كانت طرفا تتناقض مصالحه تناقضاً عدائياً مع الموجة الامبريالية الزاحفة على بلاد الشرق، ومن ثم فلقد كانت الروابط والعلاقات بالدولة العثمانية أحد الأسلحة — بصرف النظر عن مدى فعاليتها — فى مناوأة الاستعمار الأوربى وعرقلة زحفه على البلاد — ولم يكن هـذا الأمر خاصاً بمصر نظراً لأهميتها واهتمام المجتمع الدولى بها ، بل كان قانوناً عاماً حكم أحدث ذلك الصراع .

فمثلا عندما وضحت نيات فرنسا فى استعمار تونس والاستيلاء عليها وجدنا أن أحد السبل التى لجأ إليها حكام تونس لعرقلة الغزو الفرنسى هو إعلان ارتباط تونس بالدولة العثمانية ودخولها ضمن امبراطوريتها . وكما يقول محمد فريد : إنه لما بلغ السلطان عبد العزيز « أن بعض الدول تطمح إلى الاستيلاء على تونس أراد أن يؤيد حقوق دولته عليها جهاراً ليرتدع من ينظر إليها بسوء ، إذ تصير جزءاً من ممالكه المحروسة التى تعهدت الدول بصيانتها فى معاهدة باريس المبرمة سنة ١٨٥٦ م ، فأصدر السلطان فرمانا يحدد فيه ويعلن علاقة تونس بالدولة العثمانية فى ٢٤ أكتوبر سنة ١٨٧١[1] وهو فرمان يعطى لتونس الاستقلال الحقيق الذى أعطى لمصر فى سنة ١٨٧٣ م .

ومن هنا كان حرص مصطفى كامل على العـلاقات الحسنة مع الدولة العثمانية ، لأنها الطرف الأول ، بعد الحركة الوطنية المصرية ، صاحب المصلحة فى جلاء الإنجليز ، وبعدها تأتى دول أوربا التى تتناقض مصالحها مع

(١) المصدر السابق ص ٣٠٨

أنفراد انجلترا بحكم البلاد ... ولقد أعلن مصطفى كامل فى خريف سنة ١٨٩٦ : « إن سياسة مصر نحو الدولة العثمانية ، وهى السياسة التى يجرى عليها الوطنيون الصادقون ، هى سياسة حسن التقرب منها ، وتوطيد العلاقات الحسنة معها »(١) ... وكانت لديه مبررات كثيرة تقف وراء ذلك الموقف الثابت الذى تبناه :

١ — فانجلترا كانت دائمة السعى ، ودائبته أيضاً ، كى تقنع تركيا بالتنازل عن سيادتها الإسمية على مصر ، وذلك حتى تتخلص من آثار الالتزام القانونى الذى تقضته باحتلالها أرضاً عثمانيـة تنص معاهدة باريس سنة ١٨٥٦ على وجوب صيانتها ... وهذا الالتزام القانونى هو الذى منع إعلان الحماية على مصر حتى قيام الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ م عندما سقط أو أسقط حق تركيا فى السيادة بدخولها الحرب إلى جانب الألمان ضد الحلفاء ... ومنذ دخول انجلترا مصر كان اللورد « دفرين » مندوبهـا السامى فى مصر ، يسعى لشراء حق تركيا فى الجزية التى تدفعها مصر ، وذلك حتى ينقطع هذا الخيط الذى يعرقل سعى انجلترا للكشف عن أهـدافها فى ضم البلاد والتخلص من تبعات وعودها بالجلاء عنها .

ولقد كان المندوب السامى العثمانى فى مصر ـ أحمد مختار باشا الغازى ـ يسعى جهده لمناوأة الاحتلال الانجليزى وعندما كان يفشل كان يقول شعاره الشهير : « إنه احتجاج حى على الاحتلال » : ومن هنا كانت العلاقات الودية بين الحركة الوطنية المصرية والدولة العثمانية استمساكاً بعلاقة قانونية تعرقل ضم مصر لأملاك بريطانيا . وفى ذاك الوقت لا تمثل أى قيد عن حرية مصر واستقلالها بعد تحقيق الجلاء .

٢ — إن مصطفى كامل كان يدرك أن الصراع بين السلطة فى مصر وبين

---

(١) الرافعى (مصطفى كامل) ص ٣٦٤

السلطان العثمانى قد استغلته انجلترا فى تحقيق احتلالها للبلاد سنة ١٨٨٢م، فهم قد أوقعوا بين الخديوى توفيق وبين السلطان ، وعندما توجس خيفة من علاقة عرابى بالسلطان ارتمى فى أحضان الإنجليز . كان مصطفى كامل يدرك أبعاد هذه اللعبة الاستعمارية وأهدافها ، ويعى أن الصراع يجب أن يكون ضد قوات الاحتلال ، وفى ذلك يقول « إن التاريخ يعلمنا : إنه إذا كان الإنجليز قد احتلوا مصر فالسبب فى ذلك ولا شك هو النفور والخصام اللذان كانا مستحكمين قبل الاحتلال بين السلطان والخديو السابق توفيق باشا ، وقد نجح الإنجليز فى التفريق بينهما ، باتباع سياسة ذات وجهين ، فأفهموا السلطان وقتئذ أن خديو مصر عدو له ، يعمل على إسقاطه كما سعى لذلك من قبل محمد على ، وأفهموا توفيق باشا من جهة أخرى أن السلطان يعمل ضده ، ويسعى لخلعه عن كرسى الخديوية ليعيد مصر ولاية عثمانية كما كانت قبل الأسرة الخديوية ، فلما قامت الحركة الوطنية رأى الإنجليز من تمام المهارة، وتوسيعاً لهوة الشقاق أن يبرهنوا للخديو على كراهية السلطان له ، فسعوا عند السلطان سعى الصديق حتى حملوه على تقليد عرابى الوسام العثمانى الأول ، وعرابى هو الذى كان يدعى يومئذ بأنه المدافع عن حقوق السلطان فى مصر ، وقد أوغر هذا صدر توفيق باشا وألقاه فى أحضان الانجليز ... إن سياسة المحاسنة والتقرب من الدولة العثمانية هى السياسة التى فى اتباعها سلامة الكرسى الخديوى والوطن المصرى... »[1] .

٣ — فى سنة ١٨٩٧ قامت الحرب اليونانية التركية ، ووقفت أوروبا تناصر اليونان ، لا من موقع المدافع عن الحرية والاستقلال فقط ، وإنما بمشاعر الحروب الصليبية والعداء للشرق والشرقيين ... وكانت القــــوى المناصرة للانجليز واحتلالهم لمصر تتعاطف مع اليونان ضد تركيا ... ولكن مصطفى

---

(١) المرجع السابق ص ٣٦٤ ، ٣٦٥

كامل والحركة الوطنية أعلنت تعاطفهـا مع تركيا ، وجمعت الاكتتابات للجيش العثمانى فى حركة جماهيرية واسعة ... ولم يكن مصطفى كامل يناصر بموقفه ذلك استعماراً تركياً ضد حرية اليونان بقدر ما كان يريد الاستفادة من هذه الأزمة كى يجعل ملف القضية المصرية يفتح من جديد ، فاذا كان أوربا تريد جلاء تركيا عن اليونان فلتطالب . مقابل ذلك بجلاء الانجليز عن مصر ... ولقد كتب العديد من المقالات ، وألقى الخطب ، وكتب الرسائل التى جعلت الكثيرين من أحرار أوربا — وهم الذين يناصرون اليونان ضـد تركيا — يقتنعون بوجهة نظره ، بل لقد امتد عمله الجماهيرى إلى الجاليات الأجنبية فى مصر — ومنهم الجالية اليونانية — حتى اقتنعت بوجهة نظره وحكمتها ... ونحن نرى أن موقفه السياسى هـذا إنما يقدم نموذجاً للنضج السياسى الذى يدرك صاحبه أصول لعبة التوازن والصراع فى الساحة الدولية إلى حد كبير ... يقول مصطفى كامل فى شرح موقفه من هذه القضية : « إن أهم معنى سياسى لاكتتاب المصريين لإعانة الجيش العثمانى هو القيام بمظاهرة من الأمة بأسرها ضد الاحتلال الانجليزى ، فان المصريين يعلمون علم اليقين أن كل دسائس انجلترا فى الشرق ترمى إلى امتلاك وادى النيل ، وإن الانجليز لما لم يستطيعوا استمالة السلطان إليهم ضد مصر والخديوى ، أخذوا يعملون لتقسيم الدولة العثمانية آملين أخذ مصر وبلاد العرب ، وإعلان سيطرتهم على الإسلام كله. وسواس أوربا لا يجهلون مطلقاً أنه يصبح من العسير علينا حل المسألة المصرية إذا اتفقت تركيا مع الإنجليز على احتلالهم وادى النيل[1] ... إنه وإن كان المصرى لا يعرف إلا وطناً واحداً وهو مصر ، فن الأمور الطبيعية المحضة أن يساعد المصريون دولة الخلافة ، ويظهروا بذلك امتنانهم لها ، لأنها لم ترد

(١) المرجع السابق ص ٩٨ ، ٩٩ . (من تصريح لجريدة « برلنربوست تخرختن » الالمانية) .

أن تكون آلة فى يد الإنجليز (١) ... واشتراك أفراد الأمة على اختلافهم فى الاكتتاب للجيش العثمانى هو اقتراع عام ضد الإنجليز فى مصر . هبوا أن لا علاقة بين مصر والدولة العليـة غير العلائق العادية بين الأمم ، أليس من واجباتنا الوطنية أن نعترف بالجميل لدولة رفضت القضاء على حياتنا ومساعدة أعدائنا ضدنا ؟(٢) ... إننا بسرورنا واحتفالاتنا بالانتصارات التركية نسر ونحتفل بهزيمة السياسة الانكليزية ، أى بأجل وأبهى شىء يتمناه كل مصرى وطنى علـى الدوام(٣) ...

وفى ١٢ مايو سنة ١٨٩٧ م أرسل مصطفى كامل برقية يهنىء فيها السلطان بعيد الأضحى ، وبانتصارات الجيش العثمانى ، وه أعرب فيها عن رجائه أن يشترط السلطان على دول أوروبا لعقد الصلح جلاء الإنجليز عن مصر مقابل جلاء الجيش العثمانى عن اليونان ... ، وفى ٧ يونية من نفس العـام اتخذت الجماهير التى خطب فيها بالاسكندرية قراراً سياسياً بهذا المعنى يطلب الربط بين انسحاب اليونان من تركيا وجلاء الانجليز عن مصر(٤) ..

وفى ١٢ يونية من نفس العام يكتب إلى مدام جوليت آدم يحدثها عن موقفه فيقـول :

« إنك تعلمين خطتى نحو تركيا ، وما أراه واجباً نحوها ، فقد أفصحت عن ذلك فى خطبتى – (فى ٧ يونية) – واعترف كثير من أصدقائنا

(١) المرجع السابق ص ٩٨ (من تصريح لجريدة (برلنرتاجبلاط) .

(٢) المرجع السابق ص ١٠٠ (من خطبة ألقاها بالاسـكندرية فى ٧ يونيه سنة ١٨٩٧م) .

(٣) المرجع السابق ص ١١٣ (من مقال كتبه فى صحيفة (فوسيشة ريتنج) الألمانية فى ٥ أكتوبر سنة ١٨٩٧ م) .

(٤) المرجع السابق ص٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠٢

اليونانيين بأنه من السياسة القومية لمصر أن تكون حسنة العلائق مع تركيا ما دام الانجليز محتلين وطننا العزيز »[١] .

فمصر إذن هى شغله الشاغل ، والعلاقة بتركيا والنضال تحت شعار الجامعة الاسلامية إنما الهدف منه عرقلة سير المخطط الانجليزى الرامى إلى ضم مصر وتكريس احتلالها ، وأيضاً العمل على كسب تركيا أكثر وأكثر فى مناوأة استمرار الاحتلال الانجليزى للبلاد ... فالمصرى — كما يقول مصطفى كامل — لا يعرف له إلا وطناً واحداً ، هو مصر ؟

٤ — وفى سنة ١٨٩٨ م أرادت انجلترا بيع السكك الحديدية فى السودان إلى شركة بريطانية ، تحت ستار الحاجة إلى الأموال اللازمة للانفاق على حملة السودان ... فاعترض الخديوى عباس الثانى ، ولكن كرومر أصر على تنفيذ الصفقة الاستعمارية المشبوهة ... وعندئذ وجدت مصر فى العلاقة القانونية التى تربطها بتركيا سنداً لها فى موقفها ضد هذا المشروع الانجليزى الذى يمهد لسيطرتهم على السودان ، فاستعانت مصر بالدولة العثمانية كى تتدخل فى الأمر ، وجاء جواب السلطان مؤيداً لموقف مصر ، حيث أن « السكك الحديدية أنشئت للجيش ، وأن بيعها مخالف للسيادة التركية[٢] .

فتراجع اللورد كرومر ولم تتم الصفقة ... وكان هذا الموقف نموذجاً لحسن استخدام العلاقة مع تركيا فى عرقلة نفوذ الانجليز ومشاريعهم فى وادى النيل .

٥ — وعندما عقدت اتفاقية السودان فى ١٩ يناير سنة ١٨٩٩ م ، تلك الاتفاقية التى ظاهرها مشاركة انجلترا لمصر فى حكم السودان ، وباطنها انفراد

---

(١) المرجع السابق ص ١٠٣

(٢) المرجع السابق ص ٣٣٣ ، ٣٣٤

الانجليز باستعماره ، رأى مصطفى كامل فى العـــلاقة مع تركيا السند القانونى لبطلان هذه الاتفاقية فكتب يقول: « إن اتفاقية السودان المزعومة بين مصر وانجلترا قد جاءت برهاناً جديداً على عدم مراعاة انجلترا للعهود والمؤتمرات ، الشيء الذى يعتبره المصريون جميعاً باطلا لأنه يخالف للنظامات الأوربية والقوانين الدولية ، فإنه أولا: ليس لحكومة مصر أى حق فى عقد اتفاقية كهذه الاتفاقية لأنها تخالف نصوص الفرمانات السلطانية الصادرة إلى خديوى مصر ... أن نصوص الفرمانات صريحة فى أن ليس لمصر الحق فى التنازل أو استبعاد أى جزء من أجزائها بإرادتها ... »[1] .

ولقد ظل هذا المنطق الذى حكم به مصطفى كامل ببطلان اتفاقية السودان، ظل هو منطق الحركة الوطنية المصرية حتى بعد وفاته بسنوات طويلة ، وحتى « الوفد المصرى » الذى تألف فى نهاية سنة ١٩١٨م كانت حجته على بطلان هذه الاتفاقية أن الحكومة المصرية التى عقدتها — وهى حكومة مصطفى فهمى العميلة للإنجليز — ما كان فى اختصاصها أن تعقد مثل هذه الاتفاقية التى تنازلت فيها عن حقوق هى من صلب السيادة العثمانية على تلك البلاد .

٦ — وفى سنة ١٩٠٦ أرادت تركيا أن تمد خطاً جديداً يربط بين « معان » و « العقبة » ورأى الانجليز أن امتداد هذا الخط على حدود مصر الشرقية يقوى من مركز العثمانيين ، فأقام الإنجليز نقطاً عسكرية على خط « العريش — العقبة » واحتل الأتراك موقع « طابة » غربى « تبة » العقبة بثمانية أميال ، وحدث نزاع بين الدولتين ، رأت انجلترا أن تظهر فيه بمظهر الحامى عن حدود مصر وأراضيها ورأى العثمانيون فيه إثارة قضية

---

(١) المرجع السابق ص ١٣٨ ، ١٣٩ (من مقال فى صحيفة (الجولوا) الفرنسية فى ٦ فبراير سنة ١٨٩٩) .

علاقتهم القانونية بمصر وعدم شرعية الاحتلال الانجليزي لها ، ورأى فيه مصطفى كامل مناسبة لفتح ملف القضية المصرية من جديد ... فناصر موقف تركيا وطالب الانجليز بالجلاء ... وهاجم الذين يدعون إلى الابتعاد عن تركيا ، قائلا « أن اتفاقنا مع تركيا كان دائماً أساساً من أسس سياستنا ... وأنى أسأل الذين ينكرون هذه الحقيقة أن يفكروا لحظة فيما يؤول إليه حال مصر لو عقدت تركيا في يوم من الأيام اتفاقاً مع انجلترا مشابهاً للاتفاق الودى الفرنسي — الانجليزي ؟ ألا تفقد بلادنا عندئذ البقية الباقية من استقلالها ؟ فكيف مع هذا يندهش البعض من الروابط التي تربط مصر بتركيا ؟ أو ليس هذا الارتباط في ذاته أحسن احتجاج على استمرار الاحتلال بغير حق؟ أني أسأل الذين لا يكتفون بانتقاد سياستنا ، بل يتحاملون علينا، أن يجيبوني : لماذا يجدون من الأمور المعقولة الطبيعية تحالف فرنسا مع الروسيا ، واتفاقها مع انجلترا ، ويعتبرون من الجنايات ومخالفة الوطنية الحقة اتفاقنا مع تركيا .

فهي مصلحة مصر إذن التي تقضي بإقامة العلاقات الحسنة بين مصر وتركيا ، وشعار الجامعة الإسلامية لم يكن يعني عند مصطفى كامل العمل على إعادة مصر إلى حظيرة الدولة العثمانية كما زعم خصومه ومتهموه ، بل أن الرجل يحسم القول في نوع هذه العلاقات الحسنة المنشودة ، فيقول أنها « المحالفة ، لا التبعية » ، وذلك عندما يخطب في ذكرى تأسيس الدولة العثمانية في ٢٧ يناير سنة ١٩٠٧ فيقول : أنه « يستحيل علينا أن يطلب واحد منا

---

(١) المرجع السابق ص ٣٦٦ ، ٣٦٧ (من مقال في صحيفة (الطان) الفرنسية في ٨ سبتمبر سنة ١٩٠٦ م) .

مالكا أجنبياً عنا ، فنحن لا نود إلا أن نكون قوة محالفة للدولة العلية تنصرها وتنصرنا ، ونعتز بها وتعتز بنا[1] .

فهو إذن داعية للاستقلال المصرى التام ... ولم يكن شعار الجامعة الإسلامية عنده يعنى العمل على استبدال نير الانجليز بنير العثمانيين ! .

بين فكر مصطفى كامل وفكر الدولة العثمانية :

الأمر المؤكد ، الذى نحرص على إبرازه وتدعيمه بالأدلة والبراهين ، هو أن مضمون شعار الجامعة الاسلامية عند مصطفى كامل لم يكن هو مضمون هذا الشعار عند السلطان عبد الحميد وغيره من العثمانيين ودعاة التبعية لسلطنة آل عثمان ... وذلك أن مضمون هذا الشعار كما كان يعنيه العثمانيون ويهدفون إليه كان يعنى معارضة حركات الاستقلال والانفصال عن الدولة العثمانية ، سواء أكان الدافع إليها والمحرك لها طموح شخصى للولاة الذين يقومون بها أو سمات قومية قد أخذت فى التبلور والنضوج لدى الأمم والأقطار التى تشرع فى الاستقلال والانفصال ... ومن هذا المنطق كان شعار الجامعة الاسلامية، بمضمونه العثمانى ، يعنى الرفض لتلك التجربة التى قام بها محمد على باشا مصر فى طريق الاستقلال ، كما كان يعنى كذلك السعى لخفض صوت العقيدة الوطنية والروح القومية لحساب الروابط الدينية التى تجمع شعوب الامبراطورية المتعددة الأجناس ، والتى لا يربطها بحاكمها سوى رباط الدين ... فإذا كانت دعوة مصطفى كامل وأفكاره ونشاطه العملى قد انصب بشكل كلى وأساساً على السعى لاستقلال مصر التام ، والتمجيد لتجربة محمد على الاستقلالية ، وكذلك السعى لغرس العقيدة الوطنية المصرية والقومية المصرية فى عقول

(١) المرجع السابق ص ٣٦٧

الشعب المصرى ووجدانه ... إذن كانت دعوة مصطفى كامل ونشاطه ، بل وحياته بالتأكيد ، غير طريق العثمانية والعثمانيين ، ومن ثم فان مضمون شعار الجامعة الاسلامية عنده هو ، بالتأكيد ، مغاير ، بل مناقض من هذه الزاوية الاستراتيجية لمضمون هذا الشعار لدى العثمانيين ... فالاتفاق هنا لا يتعدى الاتفاق فى « تكتيك » المواجهة المشتركة ضد الاستعمار الأوربى ، عدوهما المشترك ، أما بعد ذلك فان مصطفى كامل باعث الروح الوطنية والقومية ، بينما الفلسفة التى تقوم عليها الدولة العثمانية هى استبـــدال العقيدة الوطنية والرابطة القومية برابطة الدين ... ومن هنا نستطيع أن نقول : أن مضمون شعار الجامعة الإسلامية عند مصطفى كامل لم يكن فقط مناقضاً لمضمونه لدى العثمانيين بل وكان مضمونه عنده أكثر تقدماً ومسايرة لروح العصر ، عصر القوميات ، منه عند التيار الذى مثله وقاده جمال الدين الأفغانى والامام محمد عبده ...

أما الدلائل التى تؤكد أن دعوة مصطفى كامل وأفكاره ونشاطه العملى إنما كانت فى إطار العقيدة الوطنية والبعث القومى والعمل على بلورة قسمات الأمة المصرية ... فإنها كثيرة جداً ، تطالعنا فى كل لحظة من لحظات حياته ، وصفحة من صفحات نضاله ... وهذه بعض الأمثلة ذات الدلالة فى هذا المقام :

١ — تقييم تجربة محمد على الاستقلالية :

فى الوقت الذى كان فيه الحديث عن تجربة مصر الاستقلالية فى عهد محمد على يثير حفيظه دعاة الجامعة الاسلامية ، بمفهومها العثمانى بل ويوغر صدور سلاطين آل عثمان ضد حكام مصر ، كان يقيم مصطفى كامل هذه التجربة تقييم المدرك لأبعادها القومية ودورها فى تقدم مصر قومياً وحضارياً ، فلقد كان يتخذ منها نموذجاً يدعو لاحتذائه ، وبفضل هذا النموذج لا على

الوضع الذى انتهت إليه مصر فى ظل الاحتلال الانجليزى ، بل وبفضله كذلك على وضعها السابق على حكم محمد على لها ، عندما كانت ولاية تابعة لآل عثمان ... فهو يرى أن محمد على قد أسهم إسهاماً بارزاً فى بناء وحدة مصر القومية عندما « جمــع شملها ، بعد أن كانت مفرقة موزعة على المماليك ... فصارت وطناً واحداً لأمة واحدة يجمعها لواء واحد[١] ثم يمضى ليفصل فى أوجه الحياة المصرية مقارناً بين عهدها العثمانى وعهدها الذى استقلت فيه زمن محمد على ، فيقول : ارجعوا البصر كرة أخرى إلى مصر قبل عصر محمد على ، وقارنوا بين حالها فى ذلك الحين وما صار إليه فى عهده ، تجدوا أرضاً بلقعاً تحولت إلى رياض وجنان ، وفضاء واسعاً صار فيه الألوف والملايين يحرثون الأرض ويزرعون ويستثمرون ، وشقاء تولى ونعيم أقام ، وفوضى زالت وأمناً استتب ، وزراعات جديدة دخلت إلى البلاد فأحيتها وأنمت ثروتهـا وملأت نواحيها رغداً وسعداً ... انظروا كيف سار محمد على بمصر ، وكيف أنقذها من مهاوى الهلاك ، وكيف أخرجها من عالم الظلمات إلى النور ، وكيف فتح بها وضرب وغلب ، وكيف ساد ولم يسد ، وكيف ملأ من جنودها الديار وأخضع لسلطانهـا البحار والأنهـار ، وكيف رفع ذكرها إلى أعلى منار ، وجعلها عاصمة الشرق ومصدر الأنوار ، وكيف أبهج هذا الثغر بتزاحم الجوارى فى ثغره ؟ وعمم المعامل والمصانع فى المدن والقـــرى ونشر المدارس والمكاتب فى أنحاء البلاد وأخرج من أبنائها نجوم علم يهتدى بهم ولا يضل بنورهم ؟...

ثم يمضى للحديث عن دور العنصر الوطنى المصرى فى هذه النهضة القومية فيتساءل : « هل استعان محمد على بغير المصرى على تحقيق غاياته ؟ ... كلا !

---

(١) المرجع السابق ص ٤٧٢ (من خطبة له فى ذكرى اختيار الشعب المصرى محمد على حاكما لمصر — ٢١ مايو سنة ١٩٠٢م) .

« لم يصل إلى ذروة المعالى وأقصى غايات الرجال إلا بعقلك وبأسك أيها المصرى العزيز . . . السر فى هذا الانقلاب وذلك التغيير أن الرجل العظيم الذى تولى مصر أدرك بواسع عقله أن فى أمتها كنوزاً من الشهامة والذكاء مدفونة فكشف عنها الغطاء ، وأظهرها للعاملين ساطعة بهية تخطف الأبصار[1] » .

وبالتأكيد فان هذا التقييم لتجربة محمد على الاستقلالية لم يكن ليتفق مع الموقف العثمانى من هذا الحدث الذى شهدته مصر فى مطلع القرن الماضى، والذى بدأت به عصرها الحديث . .

٢ — دور مصر التاريخى :

وحديث مصطفى كامل عن دور مصر الرائد والقائد والمتميز على مر العصور والتاريخ ، هو بالتأكيد لا ينسجم مع الموقف العثمانى الذى يعطى القيادة للعنصر التركى ، ويجعل من مصر وكل أجزاء الامبراطورية مجرد توابع للعثمانيين . .

فعنده « إننا نطالب الاستقلال لتكون بلادنا مصدر النور والعرفان فى الشرق كله » . . وعنده أن « الأمة المصرية قد سبقت كافة الأمم فى العلم والمدنية والأدب وكان شعبها أستاذ الشعوب البشرية ومربى العالم كله » وعنده أن « مصر هى مهد المدنية والنور ، ومصدر كل تقدم إنسانى ، إننا الوارثون لمدنيتين كبيرتين : المدنية الفرعونية والمدنية العربية ، فمن حقوقنا ومن واجبنا أن نجلس بين الأمم المتمدنة ، ونطالب بحقنا فى هذه المدنية»[2] . .

---

(١) المرجع السابق ص ٤٦٨ ، ٤٦٩ ، ٤٧٠

(٢) المرجع السابق ص ٥٠٧ ، ٤٣٢ ، ٢٤٥

فنحن هنا بإزاء شحنات من الروح الوطنية والمجد القومى ، تتحدث عن الأمة المصرية حديثاً يتناقض مع الغايات العثمانية من وراء شعار الجامعة الإسلامية الذى أرادوه نفياً للوطنية والقومية من أقطار الامبراطورية وولاياتها .

٣ — مصر للمصريين :

ومصر هذه صاحبة الدور الرائد المتميز عبر التاريخ ، ناضل مصطفى كامل حتى تكون للمصريين من أهلها ، لا لأى حاكم أجنبى عنها ، مهما كانت بينه وبين أهلها من روابط أو علاقات ، فعلى العكس من مفهوم شعار الجامعة الإسلامية عند العثمانيين ، الذى كان يعنى فرض سلطتهم على أجزاء العالم الإسلامى ، ومنه مصر ، وعلى عكس مفهوم هذا الشعار كما عبرت عنه (العروة الوثقى) عندما تحدثت عن قبول المغربى لسلطة التركى ، والهندى لرياسة الأفغانى ، والفارسى لحكومة العربى : الخ .. الخ ... لوجود رابطة الدين والمعتقد بينهم : على عكس هذا المفهوم لهذا الشعار نجد أن مصطفى كامل قد أعلن فى وضوح وحسم أن مصر للمصريين، وأن المصريين لمصر ، وأن شعار الجامعة الإسلامية لا يمكن أن يعدو نطاق التضامن والتحالف ضد الاستعمار إلى نطاق التبعية أو القبول بسلطة غير مصرية على أرض مصر ، أو استبدال النير الانجليزى بالنير العثمانى ، ذلك لأن « سلاسل الاستعباد هى سلاسل على كل حال ، سواء كانت من ذهب أو من حديد »[1].

فعنده أن العلاقة التى أقامها العثمانيون بمصر قبل استقلالها على يد محمد على « احتلال » ، وإن مصر لا تريد أن تستبدل احتلالا باحتلال ، ذلك

---

(١) المرجع السابق ص ٤٣٠ (من رسالة بعث بها مصطفى كامل لرئيس الوزراء الانجليزي هنري كامبل بانرمان سنة ١٩٠٧م) .

« لأننا نبغض المحتل من حيث هو محتل ، ولو كان أقرب الناس إلينا ، لأننا أمة حية متمدنة نريد أن نحكم أنفسنا بأنفسنا ، ولا نرضى أن نبقى قصراً تحت حكم وصى ننظر إلى تقدم الأمم الأخرى نظرة الكئيب التعيس دون أن نستطيع محاكاتها ومجاراتها ...[1] » .

وعندما يتهمه الانجليز — فى مجلة « الديلى جرافيك » — بالسعى لاستبدال النير الانجليزى بالنير العثمانى يرد فى نفس المجلة بمقال عنوانه (مصر للمصريين) — ١٥ أغسطس سنة ١٩٠٦م — يقول فيه : « إننا نريد أن تكون مصر للمصريين ، ونرفض قطعياً كل نير أجنبى ، وإذا كانت مصر محتلة بأى دولة أخرى لكان شعور المصريين هو ذاته ، لأن ضياع الاستقلال لا يمكن احتماله بأى حال من الأحوال . »[2] .

وفى ١٤ سبتمبر سنة ١٩٠٧ م يكتب إلى رئيس وزراء انجلترا ، السير هنرى كامبل بانرمان ، يقول : « لعل دروس التاريخ لا تكفى فى نظر أنصار التوسع فى الاستعمار من الانجليز لأن تثبت لهم أنه لا يمكن أن يملك مصر أحد سوى المصريين إلا أن يقظة الأمة المصرية من شأنها أن تظهر لهم من الآن مستقبلها القائم على الحرية والاستقلال »[3] .

وفى ٦ أكتوبر من نفس العام يكتب ليرد على أحد محررى صحيفة (لاند بندنس بلج) فيقول : « إن المحرر أخطأ كثيراً بقوله : إننا نريد حرية مصر لإعادتها إلى حكم الأتراك . فقد صرحنا ألوف المرات بأننا

---

(١) المرجع السابق ص ٤٥٦ (من خطبة له بالاسكندرية فى ٣ مارس سنة ١٨٩٦ م) .

(٢) المرجع السابق ص ٢٢٧ . ٢٢٨

(٣) المرجع السابق ص ٢٥٤

نريد مصر للمصريين ، وبأن انعطافنا أو نفورنا من دولة لا يؤثر شيئاً على هذا المبدأ الرئيسى لحياتنا وأفعالنا »[١].

ثم يعرض لنفس القضية مرة أخرى فى خطابه بالاسكندرية — ٢٢ أكتوبر سنة ١٩٠٧ م — فيقول : « رمانا الطاعنون بأننا نريد أن نخرج الإنجليز من مصر لنعطيها لتركيا كولاية عادية ، أى أننا نريد تغيير الحاكمين ، لا طلب الاستقلال والحكم الذاتى ، وما هذه التهمة إلا تصريح بأن علوم الغرب وآدابه التى نقلت إلى مصر من مدة قرن من الزمان ما زادتنا إلا تمسكا بالعبودية والمذلة ، وإن معرفتنا لحقوق الأمم وواجباتها لم ترشحنا إلا أن نكون عبيداً أرقاء فهذه التهمة هى مسبة للمدنية والمتمدنين ، وقضاء على الأمة المصرية بأنها لا ترقى أبداً ولا تبلغ مبلغ غيرها من الشعوب ، لأنه إذا كان المتعلمون من أبنائها يطلبون إحلال نير محل نير ، واستبدال استعباد باستعباد فكيف يطمع الطامع فى تقدمها وارتقائها ووجود ضمير أهلى — (وطنى) لها ؟ .

« فليعلم أعداء مصر أننا نطلب لها الاستقلال ونطلب لها ذلك الاستقلال بأعلى أصواتنا وعلى مسمع من أمم الأرض كلها وإننا إذا أخلصنا الود لأمة أو لدولة فإنما نعمل كغيرنا ونتبع ناموس الطبيعة بأن من اتفقت مصالحهم يجتمعون ويتناصرون »[٢].

هكذا رأى مصطفى كامل دور مصر ، وهكذا رفع ، دائماً أبدا ، شعار (مصر للمصريين) ، ولم يكن شعار الجامعة الإسلامية يعنى عنده

---

(١) (اللواء) فى ٦ أكتوبر ١٩٠٧م .

(٢) الرافعى (مصطفى كامل) ٥٠٨ ، ٥٠٩

الخروج من نطاق التضامن والتحالف السياسى مع العثمانيين ضد الاستعمار الانجليزى إلى نطاق العودة بمصر إلى حظيرة الدولة العثمانية بأى حال من الأحوال .. فهو رائد للحركة الوطنية ومفجر للأحاسيس القومية ، ودوره فى بلورة قسمات الأمة المصرية الحديثة دور رائد عظيم بكل المقاييس ولقد أبصر ذلك الجانب من فكره ونشاطه بعض الذين كتبوا عنه وعن عصره عندما وصفوه بأنه « كان ناشراً مقداماً ، من الطراز الأول ، لدعوة العصبية الجنسية (القومية) لا ينى له عزم ولا يفل له حزم .. كان لا نظير له فى العصبية الجنسية (القومية) المصرية »(١) .

ومن هنا أيضاً كانت دقة ذلك الوصف الذى وصفته به صحيفة « الديبا » الفرنسية عندما قالت عنه : « إنه هو الذى أنشأ الروح المصرية من العدم ، لم تكن مصر قبله إلا قسما من الأقسام الجغرافية ، ولم يكن سكانها إلا فرقاً منقسمين بعوامل الجنس والدين .

« لقد تولى محمد على شئون مصر .. فتمكن من إنشاء جنسية (قومية) مصرية ممتازة عن الجنسية العثمانيـــة ، ولكنه لم ينشىء أمة مصرية .. لقد أنشأ مصطفى كامل الوطن المصرى ، فهو بذلك قد أتم أشرف عمل أدبى يخلد له الذكر الحسن على مر الأجيال وأضاف إلى هذا العمل الأدبى عملا سياسياً ، وهو السعى فى تحرير مصر من رق الاحتلال الانجليزى ، وجعلها أهلا لهذا التحرير »(٢) .

فهل بعد ذلك يجوز اتهام الرجل الذى اكتملت على يديه نشأة

---

(١) (حاضر العالم الاسلامى) مجلد جـ٤ ص ٩٥

(٢) الرافعى (مصطفى كامل ص ٤٤٦) عن مقال صحيفة « الديبا » فى أبريل سنة ١٩٠٨م .

الأمة المصرية الحديثة بأنه كان داعية لطمس معالم هذه الأمة المتميزة بالعودة بها إلى حظيرة دولة آل عثمان تحت شعار الجامعة الإسلامية ؟ إن مصطفى كامل هو آخر من يوجه إليه هذا الاتهام .

٤ - عقيدة الوطنية المصرية :

وفكرة « الوطنيـــة المصرية » التي ألح على إبرازها مصطفى كامل ، واتخذ منها عقيدة ناضل لغرسها في عقول الشعب ووجدانه ، ورأى فيها الخيوط التي لا تبلى والتي يستطيع الشعب بواسطتها أن يقترب من الوطن ويتحد به ويدافع عنه وينقذه من براثن الاحتلال . . . فكرة « الوطنية المصرية » هذه قد لعبت على يد مصطفى كامل ، أبرز الأدوار في بلورة قسمات الأمة وتوحيدها ، فإذا علمنا أن الرجل قد اتخذ منها حجر الأساس في دعوته ونشاطه ، وأنها كانت لديه الفكرة المحورية التي يدور حولها في كل ما يصـــدر عنه ، وأنه قد جعلها العقيدة والأيديولوجية للتيار السياسي الذي كونه وبلوره ، إذا علمنا ذلك علمنا دوره كمفكر من مفكري البعث القومي ، وأدركنا مدى التناقض الموضوعي بينه وبين مفهوم الجامعة الإسلامية عند العثمانيين وغيرهم من الذين رأوا في وحدة العقيدة الدينية البديل الإسلامي للقومية والارتباط بوطن معين من أوطان المسلمين ...

ولما كانت الفترة الزمنية التي ظهر فيها مصطفى كامل قد تميزت بذلك اليأس القاتل الذي أطبق على الأمة المصرية ، بل والشرق بأجمعه ، بعد الاحتلال الانجليزي لمصر سنة ١٨٨٢ فلقد استدعت متطلبات اليقظة الوطنية والقومية من رائدها مصطفى كامل أن لا يغفل الحديث عن الوطنية في محفل من المحافل ، أو مقال من المقالات ، أو لحظة من اللحظات . . ومن كلماته ، في الوطنية ، التي بلغت في العمق والشاعرية مستوى أجود الشعر

لأعظم الشعراء نجد الكثير من العبارات والصياغات التى تركز على أن الوطنية هى العقيدة التى دعا المصريين إلى اعتناقها ...

فهو القائل :

« إنى أريد أن أوقظ فى مصر الهرمة مصر الفتاة ؟ إننى أجد حياتى فى هذه العقيدة الوطنية ، وبغير هذه الشعلة الوطنية لا أستطيع الحياة .. إنى لا أترك لحظة تمر من حياتى دون أن أغرس حب مصرنا العزيزة فى قلوب مواطنى ، إن روحى تتغذى من حب الوطن ، وبغيره لا أستطيع الحياة .. وما دامت هذه الشعلة الوطنية تغذينى وتؤازرنى فإنى لا أهاب شيئاً ولا أحداً فى الوجود .. الوطنية هى العماد لكل مملكة ، والأساس المتين لكل دولة ، الوطنية : هى الروح العاملة فى كل بلاد العالم المتمدن ، الوطنية : هى أم المعجزات وأصل كل تقدم وارتقاء ، الوطنية : هى التى تنقل الشعب الجبلى إلى الحضارة والعمران والاقتدار وسمو القدر فى قليل من الأعوام ، الوطنية : هى الدم فى عروق الأمم ، والحياة لكل ذى حياة ، الوطنية : هى الغذاء الذى يحتاج إليه جسم مصر وروحها قبل كل غذاء ... ولا قوام لأمة ولا سلامة لبلاد إلا بقوة العقيدة الوطنية .. يجب أن نكون خدام العقيدة الوطنية .. إن إدخال الروح الوطنية فى نفوس المصريين لهو أكبر الأعمال .. إن مصر جديرة بأن تحب بكل قوة ، بكل عاطفة ، بكل جارحة ، بكل نفس ، بكل حياة »(١) .

وإذا كان الذين يؤرخون لتبلور الوطنيـة المصرية وقسمات الأمة المصرية الحديثة يضعون فكر المرحوم الأستاذ أحمد لطفى السيد بالمكان

---

(١) المرجع السابق ، ص ٤٢٣ ، ٤٢٤ ، ٤٢٩ ، ٤٨١ ، ٤٩١ ، ٤٩٢ ، ٤٩٦ ، ٤٨٩

الممتاز فى هذا الحقل من حقول الفكر ، فإن كلمات لطفى السيد عن مصطفى كامل خير شهادة على دوره فى بلورة حركة «الوطنية المصرية» التى ارتكزت عليها النشأة الحديثة للأمة المصرية يقول لطفى السيد : «إن مصطفى كامل كان شعاره الوطنية ، ووسيلته الوطنية ، وغرضه : الوطنية ، وكلماته : الوطنية ، وكتاباته : الوطنية ، وحياته : الوطنية ، حتى لبسها ولبسته ، فصار بينهما التلازم الذهنى والعرفى ، فإذا ذكرت مصطفى كامل بخير فإنما تطرى الوطنية ، وإذا قلت : الوطنية ، فإن أول ما يتمثل فى خيالك شخص مصطفى كامل فكأنما هو والوطنية شيء واحد .. إن مصطفى كامل كان تمثال الوطنية .. إن مصطفى كامل كان مصرياً لجميع المصريين ...»(١) .

وعنه قالت مدام جولييت آدم : «إنه جدير بلقب «الوطنى» الذى صبغته عليه أمته فى كل شيء : الخطيب الوطنى ، ورئيس الحزب الوطنى.. لقد كان يقول : إن هذا اللقب يحيينى بحياة بلادى كلها ، وهو جزائى الأعظم»؟(٢) .

فأين هذا الفكر الذى اتخذ من الوطنية المصرية «عقيدة صارت هى المحور والأساس والغاية والوسيلة ، أين منه ذلك الفكر الآخر الذى تمثل فى المضمون العثمانى لشعار الجامعة الإسلامية ، والذى كان يناصب الفكر الوطنى والقومى العداء ؟

---

(١) المرجع السابق ص ٤٤٤

(٢) المرجع السابق ص ٤٤٦

٥ — بين الوطنية والدين :

إذا كان هذا هو مبلغ الوضوح والحسم الذى تميز به فكر مصطفى كامل عن « الوطنية المصرية » فإن خصومه قد وجدوا لأنفسهم شبهة تعلقوا بها وقالوا : إنه يخلط الوطنية بالدين ، وإن إيمانه بشعار الجامعة الإسلامية قد جعل حديثه ، فى الغالب عن المسلمين فقط ، وإنه يدعو إلى إدخال الدين فى التعليم . . . قالوا ذلك ، واتخذوا منه سبيلا للطعن فى وطنيته . . . أما نحن فإننا لا نرى لهذه الشبهة أساساً متيناً تنهض عليه وتثبت من فوقه فى البحث والتمحيص . . . ذلك أننا نعتقد أن « الوطنية المصرية » كانت هى « العقيدة » التى بشر بها مصطفى كامل ، وليست « العقيدة الدينية الإسلامية » ، وإن دعوته إنما كانت لمصر بكل من فيها بصرف النظر عن اختلاف المذاهب والأديان .

فهو لم يخلط الدين بالوطنية ، بالمعنى الذى نراه عند دعاة الحكم الدينى وأنصار « الحق الإلهى » ، سواء منهم أولئك الذين عاشوا فى العصور الوسطى أو فى العصر الحديث . . وإنما الذى أراد أن يقوله هو أن « الدين » لا يتناقض مع « الوطنية » وان تلازمها وزمالتها فى نفس الإنسان المتدين بأى دين من الأديان حقيقة ظاهرة للعيان ـ وهو بذلك إنما كان يرد بشكل مباشر على تيار التجديد والعصرية الذى يسقط من حسابه ما فى الوطن من طاقات تستطيع أن تؤدى دوراً هاماً حتى فى ساحة النضال الوطنى ، كما كان يرد ، بشكل غير مباشر ، على دعاة الجامعة الإسلامية بمضمونها « اللاقومى » ، عندما أنكروا أهمية الرابطة القومية والوطنية ورأوا فى العقيدة الدينية بديلا لها . .

وهو يعرض لهذه القضية ، ويناقش خصوم فكرته عنها فيقول : « قد يظن بعض الناس أن الدين ينافى الوطنية ، أو أن الدعوة إلى الدين ليست

عن الوطنيـــة فى شىء ولكنى أرى أن الدين والوطنية توأمان متلازمان ، وان الرجل الذى يتمكن الدين من فؤاده يحب وطنه حباً صادقاً ، ويفديه بروحه وما تملك يداه »[١] . .

أليس فى قوله هذا الرد ، غير المباشر ، على دعاة الجامعة الإسلامية الذين يرون أن « الذى يتمكن الدين من فؤاده » سواء عنده أرض مصر أو الشام أو الهند أو إيران ؟ وسواء عنده أكان الحاكم لوطنه تركيا أم كردياً أم أفغانياً ؟ المهم هو عقيدة الموطن ودين الحكام ؟

أما دعوته إلى إدخال الدين فى التعليم — وهى ، كما نعلم ، غير الدعوة إلى التعليم الدينى — فان هدفه من ورائها — علاوة على تدينه وإيمانه بما فى الإسلام من طاقات للتقدم والمدنية والعمران — كان القضاء على التعصب الدينى الذى شاع فى العصور المظلمة لهذه الأمة ، والذى كان يهدد الوحدة الوطنية الضرورية لتحرير البلاد من الاستعمار .

فلقد أدرك أن الخرافات التى تراكمت على الفكر الإسلامى قد شوهته وعطلت ما فيه من طاقات ، وإن هذه الخرافات هى التى تقف وراء التعصب الدينى المفتت للوحدة الوطنية ، وأن السبيل إلى التخلص من هذه الخرافات هو إشاعة « الحقيقة الدينية » بواسطة التربية والتعليم .. وهو يطرح فكره هذا ويناقش خصومه فيه فيقول : « اننا إذا طلبنا إرشاد أمتنا إلى الحقيقة الدينية ، فما ذلك إلا لأن الأضاليل والأكاذيب والخزعبلات التى راجت بين العامة باسم الدين قلبت حقيقة هذا الدين ، فصار الجهـــل والتأخر والإنحطاط وكل الآفات مما يلقى على الدين وينسب إليه ، والدين منه براء

---

(١) المرجع السابق ص ١٤٨ ، ١٤٩ (من خطبته فى الاسكندرية فى ٢ يوليو سنة ١٩٠٠م) .

لذلك كان من المستحيل إحياء الأمة وإنهاضها بغير الحقيقة الدينية ، لأنه لا سبيل لإبادة جيش الباطل الذى ألف و نظم باسم الدين إلا بالدين نفسه . فالتعليم الدينى ليس فرضاً من الوجهة الدينية فحسب ، بل هو كذلك أيضاً من الوجهة الوطنية .. ان بث الحقيقة الدينية بين المسلمين من أكبر الأسباب الموجدة للتسامح والتقرب من الشعوب الأخرى ، إذ لا تعصب مع علم ، ولا نفره مع نور ورشاد ، فمن منفعة العناصر كلها أن يعرف المسلمون دينهم على حقيقته ، وأن تزول أوباء الجهالات والخرافات من بينهم[1] « فالحقيقة الدينية » هى السبيل لإبادة جيش الخرافة والتعصب الذى نسب زوراً إلى الإسلام .. ولعل عصر مصطفى كامل لم يكن يعرف لجيش الباطل هذا موطناً أوسع من موطن الخلافة العثمانية بفكريتها « الإسلامية » الغارقة فى الخرافة والتخلف والخزعبلات ؟ !

وإذا كان مصطفى كامل قد رأى فى « الحقيقة الدينية » الخلاص من الخرافة والجمود والتعصب ، فلقد رأى كذلك الاستعانة بما فى الفكر الإسلامى من طاقات وأفكار وقيم لا تزال صالحة للعطاء فى مضمار التقدم والحضارة والعمران ، ولم يكن يرى أى تعارض بين استلهام هذه الأفكار والقيم الإسلامية وبين الانفتاح على المدنية والحضارة الغربية ، بل لقد كان صوتاً من الأصوات التى ارتفعت بطلب التجديد دون رفض للجيد والصالح من تراثنا الإسلامى ، وللأصالة دون رفض للعطاء الحديث الذى تقدمه الحضارة الأوروبية الحديثة . . ولقد ضرب لنا مثلا بالإنجازات التى أنجزتها مصر فى عصر محمد على ، معتبراً إياها النموذج الذى أحسن الاستفادة من صالح القديم وجيد الحديث . . فعنده أن محمد على قد « وفق فى عمله بين

---

(١) المرجع السابق ص ٥٠٩ ، ٥١٠ من خطبته بالاسكندرية فى ٢٢ أكتوبر سنة ١٩٠٧م) .

مبادىء المدنيـــة العصرية ومبادىء الدين الإسلامى ، فإذا اقتدينا به ـ (محمد على) واعتمدنا على الإسلام وقواعده وأوامره وإرشاداته ، وأخذنا من المدنية الغربية فوائدها ومنافعها ، واعتبرنا بعبر التاريخ ، وتركنا النزاع الذى أضر بمصر والإسلام ، واجتنبنا كل افتراق وشقاق ، بلغنا أقصى ما يرام من مجد وعز وسؤدد ومقام رفيع[1] » .

كان هذا هو موقف مصطفى كامل من العلاقة بين الوطنية والدين ، فهو لا يسقط الدين من حسبانه كما فعل بعض الذين قلدوا ما أرادت لنـا أوربا أن نقلده فى تلك القضية ، ولم يسقط الوطنية من حسابه كما أراد دعاة الجامعة الإسلامية بمفهومها العثمانى . وهو لم يسقط التراث الإسلامى الصالح للعطاء فى حركة التقدم والعمران كما صنع « متفرنجو » عصره ، ولم يدع إلى العزلة والعزوف عن المدنية الأوربية ، كما دعا إلى ذلك «الجامدون» و «المحافظون» وإنما اتخذ موقفاً وسطا ، موقف من يستلهم كل العناصر الصالحة للعطاء فى معركة التحرر والتقدم ، من أى عصر ، ومن أية حضارة ومن أى مكان .. كان هذا هو موقفه · وموقعه .. ولقد عبر عنه بدقة الخديوى عباس الثانى ، فى مذكراته عندما قال أنه « لم يكن يريد أن يقطع صلته بالماضى دون فترة إنتقال ، وكان يخشى أن يعرض النتائج التى حصل عليها للخطر إذا هو بدا فى صورة المجدد المبالغ فى تجديده . وأياً ما كان الأمر ، فان أساس تعاليمه لم يكن فى الحقيقة عصرياً مفرطاً فى عصريته ، بل لعل أفكاره كانت أقرب إلى التقليد الشرقى مما يعتقد أكثر الناس .. كان قد جرد وطنيته من كل رداء دينى ولكنه ظل متدينا ومتعلقا بروح القرآن . . ومع أنه تربى فى أوربا ،

---

(١) المرجع السابق ص ٤٨٢ من خطبته فى ذكرى تنصيب محمد على حاكما على مصر ٢١ مايو سنة ١٩٠٢م) .

فلقد كان يستخدم النظريات الأوربية كوسيلة ، ولكنه لا يعتبرها غاية في ذاتها »[١] . .

٦ — **الوحدة الوطنية :**

والأمر الذى يؤكد أن « الوطنية المصرية » كانت هي الأساس والمحور في فكر مصطفى كامل ونشاطه العملي ، وانه استهدف من وراء السعى لإشاعة « الحقيقة الدينية » بواسطة التربية والتعليم ـ غرضاً وطنيا ، وبالتحديد إشاعة حب الوطن وتحقيق الوحـــدة الوطنية حول مطلب الاستقلال والحكم الدستورى النيابي ، والأمر الذى يؤكد أن تلك كانت هي غايته ذلك الموقف الثابت والواضح من ضرورة الوحدة الوطنية لأبناء الأمة المصرية ، بصرف النظر عن اختلاف المذاهب وتعدد الأديان .

ونحن نخطىء إذا توهمنا أن بعض المشاكل الطائفية التى حدثت بعد موت مصطفى كامل بين المسلمين والأقباط في مصر ، والتى كان البعض من زعماء الحزب الوطنى طرفاً في الصراع الصحفى والفكرى الذى دار بشأنها نخطىء إذا توهمنا أن قد كان لفكر مصطفى كامل أدنى صلة بمثل هذه الأمور ذلك أن الاستعمار الانجليزى الذى وقف خلف أحداث تلك الفتنة هو الذى زج باسم الحزب الوطنى فيها ، وهو الذى اجتهد كى يثير بعض الدوائر القبطية ضد الحزب الوطنى زاعماً أن شعار الجامعة الإسلامية لدى مصطفى كامل وحزبه إنما يعنى نفس المضمون لذلك الشعار لدى السلطان العثمانى ، وهو الأمر الذى يلقى بذور الشك والريبة ما بين الأقباط والحزب الوطنى[٢] .

أما مصطفى كامل فإن موقفه من أهمية وضرورة الوحدة الوطنية لكل

---

(١) المرجع السابق ص ٣٥٥

(٢) كارل بروكلمان (تاريخ الشعوب الاسلامية) ص ٧١٩ . ترجمة نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي . طبعة بيروت سنة ١٩٦٨م .

أبناء الأمة المصرية هو موقف ثابت وواضح وحاسم لا لبس فيه ولا غموض فهو يقول : « كيف يستطيع رجل وطني أن يدعو للشقاق والبغضاء وهذه الدعوة مناهضة للوطنية الصحيحة . فالأقباط أخوة لنا في الوطن ، تجمعنا بهم أشرف رابطة ، وقد عشنا معهم القرون الطوال على أتم وفاق وأكمل اتفاق[١] ... وهو يخاطب الأمة محذراً إياها من الانقسامات والعداوات الدينية فيقول : « إياك والانقسامات فإنها منشأ الخراب والدمار ، إياك وهوس العداوات الدينية . فإنها آفة الآفات[٢] » .

ويعود إلى الحديث عن طبيعة العلاقة القائمة بين مسلمي مصر وأقباطها ، ووحدتهم التاريخية ، الأزلية الأبدية . فيقول : « إن المسلمين والأقباط شعب واحد ، مرتبط بالوطنية والعادات والأخلاق وأسباب المعاش ، ولا يمكن التفريق بينهما مدى الأبد[٣] .

ولم يكن هذا الموقف الداعي للوحدة الوطنية والحريص عليها والعامل في سبيلها نابعاً من مناسبات عارضة ، ولا كلمات تقال رداً على اتهامات توجه لمصطفى كامل — ولقد وجهت بالفعل تلك الاتهامات — وإنما كان تعبيراً أصيلا ، عن إدراك عميق لأهمية الوحدة الوطنية وضرورتها ، بل وانتفاء أي مبرر للتمزق الوطني والفرقة والصراع ، في مواجهة الاحتلال وفي مرحلة النضال من أجل الاستقلال . فمصطفى كامل يهاجم أولئك الذين يقسمون وحدة الأمة غير مدركين ما تفرضه طبيعة المرحلة وضرورات

---

(١) الرافعي (مصطفى كامل) ١٤٩

(٢) المرجع السابق ص ٤٨٧ (من خطبة بالاسكندرية في ٢٢ أكتوبر سنة ١٩٠٧ م) .

(٣) المرجع السابق ص ١٠٣ (من خطبته بالاسكندرية في ٨ يونية سنة ١٨٩٣ م) .

الموقف من وحدة فيقول « يروق لبعض الجهلاء والمسخرين لخدمة الانجليز أن يلقبونا « بالمتطرفين » ويقسمون الأمة فرقاً وأقساماً ، ومادروا أنه لا يصح أن يوجد فى البلاد الفاقدة استقلالها . المتحكم فيها الأجنبى إلا حزب واحد هو حزب الوطن ، حزب الحرية ، حزب الاستقلال . وقد جهلوا ، أو تجاهلوا أنه ليس للبلاد التى يحتلها الأجنبى إلا سياسة واحدة : وهى سياسة المطالبة بالاستقلال وأن كل قول أو عمل يؤدى إلى إضعاف الروح الوطنية وهدم جزء أو كل من ثقة الأمة بنفسها ومستقبلها هو أ كبر أذى يلحق بالبلاد ... »(١) .

ونحن نود أن ننبه إلى أن نوع العلاقة التى رآها مصطفى كامل قائمة ومتحققة بين المسلمين والأقباط بمصر ، هى علاقة « المواطنة » و « الإخوة الوطنيـة » القائمة على « الوطنية والعادات والأخلاق وأسباب المعاش » ومن ثم فلقد كان بهذا التقييم لهذه العلاقة ابنا باراً لعصر التنوير المصرى الذى بدأه رفاعه رافع الطهطاوى (١٨٠١ — ١٨٧٣ م) ، وامتداداً لذلك الإنجاز الذى حققته مصر فى ظل تجربة محمد على عندما أقامت الدولة المدنية للمرة الأولى فى تاريخ الشرق الحديث ، كما كان بهذا الفكر وذلك الموقف « مفكراً ومناضلا قوميا » قد ابتعد عن المفهوم العثمانى للجامعة الإسلامية ، وهو المفهوم الذى كان يرتب عناصر الأمة درجات وطبقات وفق ما تعتنق هذه العناصر من أديان ...

كما نود أن نشير إلى أن التيار الوطنى الذى تبلور من حول مصطفى كامل قد ضم يومئذ القيادات الوطنية فى مصر ، بصرف النظر عن أديانها ، بل أن أبرز القادة الوطنيين الأقباط الذين شاركوا فى تكوين الوفد المصرى عقب

---

(١) المرجع السابق ص ٤٨٧ (من خطبته بالاسكندرية فى ٢٢ أكتوبر سنة ١٩٠٧م) .

الحرب العالمية الأولى كانوا من الذين انخرطوا فى حركة مصطفى كامل ...
ومن هؤلاء القادة مرقس حنا باشا ، الذى يتحدث عن دور مصطفى كامل فى وحدة مصر الوطنية فيقول أن مصطفى كامل « قد كون الوحدة الوطنية، وأرانا طريق الإخاء والحرية ... ورسم لنا طريق الوفاق والتآلف ، طريق الحرية والاستقلال ... أنه لم يكن صديقا لفريق من المصريين بل كان صديقا لجميع الوطنيين على السواء ، أن حياته تعنى أن الأمة نمت وسمت وتغارست أغصانها حول جذع واحد هو مصر ، هو الوطن العزيز ... »[1] .

بل نقول ، مع محمد فريد (١٨٦٧ — ١٩١٩م) أن خيوط الوحدة الوطنية التى نسجها مصطفى كامل قد أحاطت ، لا بالمسلمين والأقباط فحسب، بل وكذلك باليهود الوطنيين المصريين ، ويؤرخ لهذه الحقيقة الهامة محمد فريد عندما يخاطب مصطفى كامل — بعد وفاته ، فى حفل التأبين — فيقول « لقد تحقق ما كنت تؤمله وما قضيت زهرة شبابك للوصول إليه ، وأصبحت الأمة بعناصرها الثلاثة ، مسلمين ومسيحيين وإسرائيليين كلها مجتمعة كرجل واحد متحدة الأفكار والقلوب[2] .

نعم ... لقد كانت معركة من المعارك المقدسة ، أحرز فيها مصطفى كامل وتياره الوطنى انتصاراً يشهد لمفهوم الجامعة الإسلامية عنده بالتميز والتقدم عن كثير من التيارات التى رفعت هذا الشعار فى ذلك التاريخ .

٧ — وضد التعصب القومى :

وكما تنفى هذه الحقائق عن مصطفى كامل والحركة الوطنية التى كونها

---

(١) المرجع السابق ص ٤٤٨ ، ٤٤٣ (من كلمته فى حفل تابين مصطفى كامل فى ٢٠ مارس سنة ١٩٠٨م) .

(٢) المرجع السابق ص ٢٨٥

وقادها تهمة التعصب الدينى فى جبهة مصر الداخلية ، فانه لم يؤمن فى يوم من الأيام بأن شعار الجامعة الإسلامية يعنى تعصب الأمم المسلمة ضد الأمم التى لاتدين بالإسلام بل لقد برىء فكره حتى من التعصب القومى ضد الشعب الإنجليزى الذى تحتل حكومته البلاد وكان دائما يدرك وينبه غيره إلى الفرق بين الدوائر الاستعمارية الانجليزية وبين الأمة الانجليزية التى يجب أن تكسبها الحركة الوطنية المصرية إلى صف السعى لجلاء جيش الاحتلال عن البلاد ...

فعنده أن نطاق الخلاف وإطاره هو مشكلة الاحتلال فقط « فنحن مسلوبون والإنجليز هم السالبون ، ونحن طلاب حق مقدس ، والانجليز هم مغتصبو هذا الحق .

« فلاسبيل إلى الاتفاق بيننا وبينهم إلا باعترافهم بحقنا ورده إلينا »[1].

أما مراده « بالانجليز الذين يدور الصراع بينهم وبين الحركة الوطنية فيتضح من عباراته التى يقول فيها: «ضد من نجاهد نحن؟ أضد الأمة الإنجليزية كلا ! ليس جهادنا ضدها ، إنمـــا هو ضد فريق من الناس يعملون لتأييد الاحتلال الإنجليزى فى مصر إلى الأبد ... أما فيما يختص بالأمة الإنجليزية؟ فلا نستطيع إلا احترامها ،ومهما وقع فاننا نحترمها دائماً ، كما نحترم كل الأمم الأخرى إذ أنه لا يصح بغض أية أمة ، ولا يقضى على شعب من الشعوب خطأ بعض أفراد من أبنائه ...»[2] « إن الخلاف حقيقة بيننا معشر المصريين وبين بعض الانكليز ... إننا لا نبغض الانجليز بل نبغض المحتل من حيث

---

(١) المرجع السابق ص ٥٩٢ (من خطبته بالاسكندرية فى ٢٢ أكتوبر ١٩٠٧ م) .

(٢) المرجع السابق ص ٥٦٠ (من خطبته بالاسكندرية فى ١٣ أبريل سنة ١٨٩٦ م) .

هو محتل ، ولو كان أقرب الناس إلينا ... ونقطة الخلاف الوحيدة بيننا وبين بعض الانكليز هى أن زمن الجلاء على رأينا حان ، وعلى رأيهم لم يحن إلى الآن ...[1] .

صحيح أن مصطفى كامل يتحدث عن أن الخلاف هو مع أفراد من الشعب الإنجليزى ، ولم يبد أنه قد أدرك علاقة الاستعمار والامبريالية بالمرحلة التى وصلت إليها الاحتكارات الانجليزية وعلاقة ذلك بالطابع الاستغلالى والنهب الاستعمارى للبورجوازية هناك ـ وليس هذا موضوعنا ـ ولكن الذى يعنينا هنا هو أن الرجل لم يتخط ، فقط . نطاق المفهوم العثمانى لشعار الجامعة الإسلامية إلى نطاق الفكر القومى ، بل لقد تقدم على هذا الدرب إلى الحد الذى تبرأ فيه من التعصب القومى حتى وهو يتحدث عن الشعب الإنجليزى والأمة الإنجليزية ...

٨ — الموقف من الحضارة الغربية :

وربتبط بهذه القضية ، قضية الاستنارة القومية ، ورفض التعصب القومى ، النظرة الموضوعية التى تحلى بها مصطفى كامل وهو يقيم حضارة الغرب ومدنيته فلقد كان نصيراً للاستفادة من هذه المدنية والاقتباس من هذه الحضارة وهو الأمر الذى يميزه ، ولا شك ، عن تيارات أخرى رفعت شعار الجامعة الإسلامية ، ثم توهمت أن السلامة فى إغلاق النوافذ وسد الأبواب وإدارة الظهر لكل المنجزات والقيم والنظريات التى ابتدعها المخالفون فى الدين ...

فنى الجوانب الوطنية لا يستلهم فقط تجاربنا وتراثنا الوطنى عبر التاريخ

---

(١) المرجع السابق ص ٤٥٤ ، ٤٥٥ (من خطبته بالاسكندرية فى ٣ مارس ١٨٩٦ م) .

ولا يقتصر الزاد الذى يقدمه لبعث هذه الأمة على التذكير بماضيها المشرق وصفحاتها الزاهية ، وإنما هو يستلهم كذلك تراث الأمم الأوربية فى هـذا الميـدان .

فعندما يعتزم إصـدار صحيفة (اللـواء) يكتب إلى مدام جوليت آدم يقول « أشكرك كثيراً إذا تفضلت بارشادى إلى المؤلفات الخاصة بالتاريخ القومى والقصص الوطنية عن كل البلاد ، لـكى ألقن الشعب إياها ، فانه يجب أن أنشر المثل العليا فى الوطنية»[1] . ثم يكتب إليها ثانية حول ذات الموضوع فيقول « رجوت منك أن تـكتبى لنا بين آن وآخر مواعظ وطنية مما جرى فى عصرك أو فى بطون التاريخ ... »[2] .

ثم يكتب عن تجربة النضـال الوطنى للشعب المجرى فيقول : « إن تاريخ هذا الوطن المجرى هو أكبر مدرسة لرجل مثلى وهب حياته لخدمة وطنـه وإعلاء شأنه ... »[3] .

أما عن تقييمه للحضارة الأوربية والمدنيـة الغربية ، فإنه التقييم الذى يجعل منه أحـد الأبناء البررة لعصر التنوير المصرى الذى استفاد استفادة ملحوظة من حضارة الغرب ومدنيته ، فهو يتحدث إلى الأمة المصرية قائلا: « نقول للأمة : إياك وسوء ظن الملأ المتمدن بك ، فان الشعوب فى المدنية متضامنة ، ويا شقاء من سار ضدها ... »[4]

---

(١) المرجع السابق ص ٤٢٧ (من خطاب مؤرخ فى ٢٤ ديسمبر سنة ١٨٩٩م) .

(٢) المرجع السابق ص ٤٢٧ (من خطاب مؤرخ فى ٢٤ ديسمبر سنة ١٨٩٩) .

(٣) (اللواء) مقال عنوانه (حزب وطنى حر فى مصر) بتاريخ ٢ يوليو سنة ١٩٠٠ م .

(٤) الرافعى (مصطفى كامل) ص ٤٨٧ (من خطبته بالاسكندرية فى ٢٢ أكتوبر سنة ١٩٠٧ م) .

ثم نراه يشرح نظرته تلك وموقفه هذا من المقال الشهير الذى كتبه عن حادثة « دنشواى » فيقول : « إننا أدركنا من أكثر من قرن إنه لا يمكن للأمم أن تعيش عيشة كرامة ، إذا لم تسلك طريق المدنية الغربية ، وإننا أول شعب شرقى صافح أوربا ، وإننا مستمرون على السير فى الطريق الذى سلكناه ... »(١) .

فنحن هنا بإزاء موقف متميز لتيار شهدته ساحة النضال تحت شعار الجامعة الإسلامية ، وهو التيار الذى أراد أن يزاوج ما بين العناصر الصالحة فى تراث الشرق وما هو صالح وملائم فى حضارة الغرب ومدنيته ... ولقد صدق الكاتب الفرنسى « لويس برتران » عندما وصف نموذج المدنية الذى راود خيال مصطفى كامل فقال : إنه « كان يحتقر مدنية لا غاية لها إلا الرقى المادى دون عناية بتحرير النفس أدبياً »(٢) .

ولعل هذا الموقف من الحضارة الغربية كان أشبه بموقف الطهطاوى والأفغانى ومحمد عبده بموقف الذين أرادوا «محاكاة» هذه الحضارة ... كما كان بموقع قصى من موقف الجامدين والمحافظين والعثمانيين ...

٩ — دائرة التضامن والتعاطف :

وأخيراً ... فان مصطفى كامل يحدد أن شعار الجامعة الإسلامية لا يتعدى حدود روابط « التضامن والتعاطف » ولا يرقى إلى « الدولة الواحدة » أو « العصبة الدينية » ، ومن ثم لا يمثل أى قيد على استقلال مصر التام القائم على تبلورها كاملة تمتلك كل قسمات الأمة بمعناها العلمى والحديث ... فالرجل

---

(١) المرجع السابق ص ٢١٥ (والمقال منشور فى صحيفة (الفيجارو) فى ١١ يوليو سنة ١٩٠٦م) .

(٢) المرجع السابق ص ٤٤٧

الذى أسهم الإسهام الأكبر فى بعث روح مصر الوطنية والقومية الحديثة قد أبصر وراء دائرة مصر القومية دائرة أوسع من التضامن والتعاطف الأدبى والسياسى ، فتتمثل فى نوع من « الأممية الإسلامية » — إن جاز التعبير — وهذه الأممية لاتقوم على وحدة المشاكل ، ووحدة أسباب التخلف ، ووحدة المعركة التى تخوضها شعوبها ضد الاستعمار الأوربى الزاحف على أوطانها بكل الوسائل ومن مختلف الاتجاهات ...

وفى النداء الذى وجهه مصطفى كامل إلى العالم عقب حادثة «دنشواى» يقول عن علاقة «التضامن والتعاطف» هذه « إن عطفنا على الشعوب الإسلامية لأمر طبيعى ، ولا تعصب فيه ، وإنه لا يوجد مسلم مستنير واحد يظن لحظة واحدة أنه من الممكن اجتماع الشعوب الإسلامية فى عصبة واحدة ضد أوربا ، والذين يقولون بذلك إما الجاهلون أو راغبون فى إيجاد هاوية بين العالم الأوربى والمسلمين ... إنه لا سبيل لنهضة الشعوب الإسلامية بغير حياة إسلامية جديدة تستمد قوتها من العلم والفكر الواسع الرقى(١) .

وعندما تكتب جريدة (الطان) الفرنسية عن تخوف أوربا من حركة الجامعة الإسلامية يكتب مصطفى كامل ، رداً عليها ، مقالا يقول فيه « لقد فسرت كلمة الجامعة الإسلامية فى أوربا تفسيراً لا يتفق ومعناها الحقيقى ، إن حركة الجامعة الإسلامية بالمعنى المقصود منه فى أوربا ، أى الحرب الدينية ، لا وجود لها بالمرة ، لأن المسلمين أدركوا من زمان بعيد أنه يستحيل على أية أمة أن تعيش فى معزل عن العالم ، وأن الأمة التى تحاول ذلك تقضى على نفسها بالموت ، أما الشعور الموجود ، وبلا نزاع ، عند كافة الشعوب الإسلامية فهو شعور

---

(١) المرجع السابق ص ٢١٥ ، ٢١٦ من مقال « الجامعة الانجليزية والعالم المتمدن » المنشور فى صحيفة (الفيجارد) فى ١١ يونيو سنة ١٩٢م) .

انعطافها وحنانها لبعضها البعض ، فكل مسلم يرغب من صميم فؤاده أن يرى أبناء دينه معاملين أحسن من المعاملة الحالية ، ومعتبرين كجزء حي من الإنسانية ، ومحترمين في كل مكان ، ومن كل إنسان ، وإنه لما كان لتأخر الشعوب الإسلامية أسباب واحدة ، وأن هذه النهضة لاتصير حقيقة تشاهد بالعيان بفضل أوهام تأليف عصبة إسلامية ضد المسيحية بل بالتعليم والنور ، وبما أن الإسلام ليس عقيدة دينية فقط ، بل قانون اجتماعي ، فإن إحياء الأفكار ونشر المعارف لا يتمان إلا باظهاره على حقيقته ، وإن ميل كل مسلم لأبناء دينه أمر طبيعي وشرعي ، ولا يوجد رجل منصف ينتقد ذلك الميل ... »(١) .

* * *

تلك هي أفكار مصطفى كامل عن الجامعة الإسلامية ... رفع شعارها وناضل تحت رايتها ، ولكن من منطلق قومي مصري مستنير ، فكان نموذجا متقدما من بين النماذج المتعددة التي شهدتها ساحة حركة الجامعة الإسلامية في ذلك التاريخ ... نعم ... كان أكثر تقدماً من أولئك الذين رأوها رباطاً يصنع دولة واحدة للعالم الإسلامي ، عثمانية كانت تلك الدولة أو غير عثمانية ، لأنه لم ينكر الدائرة القومية كما أنكروها ... وكان أكثر تقدما من أولئك الذين رأوا فيها مجرد حركة روحية ، لأنه أبصر قيمتها السياسية في التصدي للاستعمار ... وكان أكثر تقدما من أولئك الذين رأوها سياجا تقبع من خلفه الشعوب الإسلامية كي يصد عنها الرياح الحضارية الآتية من خلف البحار ، لأنه كان سياسياً مستنيراً ، حاول أن يزاوج ، قدر طاقته ، بين

(١) المرجع السابق ص ٤٤٨ ، ٤٤٩ .

تراثه الإسلامى وتقاليده الشرقية وبين عطـــاء الحضارة الغربية ومدنية الأوربيين ...

وإذا كان الفكر الاجتماعى لمصطفى كامل قد اتصف بشىء من المحافظة فى بعض القضايا ، كقضية تحرير المرأة وأمثالها ، فليس ذلك من آثار إيمانه بحركة الجامعة الإسلامية ، لأنها كانت عنده شعاراً سياسيا ، ولأن المحافظة فى مثل هذه القضايا الاجتماعية ليست وقفا على الذين اعتنقوا هذا الشعار ... فلقد كان الأفغانى ومحمد عبده قطبى تيار واحد من تيارات الجامعة الإسلامية ، ومع ذلك تميز فكر الأفغانى إزاء تحرير المرأة بالمحافظة والتحفظات ، بينما استشرف فكر الإمام محمد عبده فى ميدان حريتها وتحريرها آفاقاً جعلته ينشر بعض أفكاره الخاصة بها باسم قاسم أمين(١) ، لأنها قد تجاوزت الحدود التى يسمح بها عصره لمن يتزيا بزيه ويتولى مثل مسئولياته الدينية ؟ !

وإذا كان لأحد أن ينتقد غياب الموقف النقدى عن هذه الصفحات التى قدمناها عن مصطفى كامل والجامعة الإسلامية ، فإننا نود أن نقول : إنه ليس فى فكر مصطفى كامل إزاء هذه القضية شىء يعتذر عنه محبوه أو ينتقده عليه دارسوه ، فلقد كان أكثر الأصوات التى ارتفعت بشعار الجامعة الإسلامية تقدما ، وإذا كان عبد الرحمن الكواكبى قد أسس القومية العربية ورأى فى الجامعة الإسلامية دائرة التضامن الأدبى والفكرى والسياسى التى تليها ، فإن مصطفى كامل قد اتخذ من « الوطنية المصرية » قاعدة انطلاقه ، ثم رأى فى الجامعة الإسلامية دائرة التضامن الأدبى والفكرى والسياسى التى تلى

---

(١) انظر الدراسة التى قدمنا بها للأعمال الكاملة للامام محمد عبده . جـ١ ص ٢٤٥ وما بعدها .

ـ ثرة الأمة المصرية وهو فكر لا نقول أنه قد كان صالحاً لعصره فقط ، بل وصالح كذلك للعصر الذى نعيش فيه ، لأنه يلمس بعمق تلك الحقيقة التاريخية التى تحتم الربط بين مصر وبين المحيط الذى يكتنفها ... فهذا الربط هو ضرورة حياة لمصر ، كما هو ضرورة حياة لبلدان ذلك المحيط .

* * *

مصطفى كامل وقضايا الإصلاح الاجتماعى

للاستاذ صلاح عيسى

جريدة الجمهورية

قيم الأستاذ غربال موقف مصطفى كامل من قضايا عصره الاجتماعية تقييما صحيحاً ، فهو عنده ينشط انطلاقاً من قاعدة خالية من كل تعقيد ومن كل شطارة ، لمصر عدو واحد هو الاحتلال ، ولمصر مقصد واحد هو الجلاء وماعدا ذلك فتفصيل له وقته : الإصلاح الحكومى وغير الحكومى ، الحكومة النيابية ، تسوية أمر الامتيازات ، السيادة العثمانية ، كلها حقاً أشياء مهمة ، وأشياء ينبغى ألا تهمل ، ولكنها لاينبغى مطلقا أن تطغى على المقصد الأسامى : الجلاء ، أو تضعف من مقاومة العدو الأصلى : الإنجليز(١) .

ذلك موقف نجد شبيها له فى مقولة سعد زغلول « يقولون أين برنامجكم ؟ فتقول : نحن لسنا بحزب ، وإنما نحن وفد موكل عن الأمة يعبر عن إرادتها فى موضوع عينته لنا وهو الاستقلال التام ، فنحن نسعى لهذه الغاية وحدها وأنى أعدكم إن شاء الله أنى عند بلوغها أن أتنحى عن العمل فلا تروننى أعمـــل ولا تسمعوننى أتـكلم . أما المسائل الداخلية : هل يكون التعليم إجباريا ؟. مجانا أو بمصاريف؟ . هل يجب فى الأمور الاقتصادية أن يكون هناك فوائد على الديون ؟ . هل نزرع القطن فى ثلث الزمام أو نصفه ... فهذه مسائل أترك الأمر فيها لمن هو أعرف بها منى(٢) » .

---

(١) محمد شفيق غربال : تاريخ المفاوضات المصرية البريطانية حـ ١ ـ ط ١ القاهرة ١٩٥٢ ص ٢٧ .

(٢) خطبة سعد زغلول فى ١٩٠٣/٩/٢٠ — مجموعة خطب ســـعد زغلول باشا الحديثة . جمعها محمود فؤاد — ط١ — القاهرة

وصحيح أن نشاط الزعيمين العملى لم يخلو من إدلاء بالرأى فى هذه المسائل ، لكنه كان خافتا على أى حال ، دفعت إليه استحالة الفصل بين مسألة الجلاء أو الاستقلال ، وبين مسائل الإصلاح الاجتماعى ، إذ لم يكن الاستعمار مجرد إحساس نفسى لدى المصريين لكنه كان حقيقة مادية واقعية تؤثر فى حياة الناس ومصالحهم ، وتؤثر على فوائد الدين ومساحة المنزوع من القطن وعلى سياسة التعليم ، وبهذا فرض المستعمر على من ينشط ضده أن ينشط ضد واقع اجتماعى محدود له خصوصيته ، وأن يصوغ بالتالى مطالبا محددة فى مسائل الإصلاح الاجتماعى ، أياكان حظ هذه المطالب من الصواب أو التكامل .

بيد أن الظاهرة الواضحة فى حلقات الثورة الوطنية المصرية ذات الأفق البرجوازى ، هو ذلك الانفصال النسبى فى رؤيتها بين قضية التحرر السياسى ، وقضية الإصلاح الاجتماعى لا نعنى بهذا أنه كان عليها أن تمد بصرها إلى أفق اشتراكى ، ولكن أن تعطى اهتماما للقوى الاجتماعية التى تتحالف معها فى عدائها للاستعمار ، والتى تشكل جيشها المقاوم ويدها الضاربة ، وأن تصوغ ـ وقد وضعتها ظروف النمو الاجتماعى فى مركز القيادة ـ برنامجا يكفل حشد هذه القوى خلفها لمواجهة العدو الرئيسى والمشترك وهو الاستعمار .

تلك ظاهرة نراها بوضوح فى تردد قيادة الثورة العرابية عن صياغة برنامج فلاحى يكفل حشد الفلاحين معها بفاعلية فى جبهة الثورة ، إلى أن أملى عرابى على « صابونجى » رسالته الشهيرة إلى جلادستون ، وهى واضحة فى تركيز مصطفى كامل فى مرحلة طويلة من نضاله على القضية السياسية بالدرجة الأولى ، إلى أن استكمل خليفته محمد فريد بعض هذا النقص . وهى واضحة فيما قاله سعد زغلول ، وفيما انتهى إليه الأمر على عهد خليفته من تطور الاهتمام بمسائل الإصلاح الاجتماعى تبلور عندما عقد الوفد المصرى أولى مؤتمراته

فى عام ١٩٢٥ ، فأبدى آراء فيها بعض تفصيل عن تلك المسائل . ثم هى واضحة أيضا فى ضعف كافة المنظمات الحزبية للبرجوازية المصرية فى حلقات ثورتها المتتابعة ، وفهم هذه القيادات للوحدة الوطنية بشكل ينفى عنها أى طابع للتنوع الاجتماعى ، ولحقوق الطبقات الاجتماعية التى تتحالف على هدف مقاومة الاستعمار ، فالحزب الوطنى - فى مرحلته العرابية — هو الأمة كلها بلا قواعد تنظيمية وبلا برنامج اجتماعى متبلور ، والحزب الوطنى على النمط الذى قاده مصطفى كامل - هو ذلك نفسه ، أما الوفد المصرى فإن سعداً كان بليغا فيما وصفه به ، ولقد يصح مع هذا أن نعتمد — ببعض التحفظ — ماخرج به لانداو من دراسته للأحزاب المصرية ، إذ رأى أنها كانت تشترك فى النظرة إلى موضوع واحد هو التعليم ، وكانت أقل اهتماما بالمسائل الداخلية والثقافة والاجتماع والاقتصاد ... واختلفت نظرتهم فى الاهتمام ببقية المسائل ، لكنهم جميعا لم يعطوا الاهتمام الكافى لرفع مستوى أبناء جلدتهم البؤساء فى الريف ، تمركزوا فى المدن ووجهوا جهودهم المكثفة نحو الاحتلال ... وعلى كل حال ، ففى اتجاهم لمناقشة موضوع الاحتلال البريطانى ودرجات المقاومة التى أعلنوها أو أبدوها ... كان شكل الاختلاف بين حزب وآخر(١) .

وإذا كنا مع هذا كله نستطيع أن نسجل على حلقات الثورة الوطنية المصرية ذات الأفق البرجوازى - ماسبق منها حركة مصطفى كامل وماتلاها - هذا الافتقاد لشمول الرؤية ، وعدم وعيها بترابط قضية الاستقلال الوطنى بقضية الاصلاح الاجتماعى ، فان هذا التسجيل لا يكون كاملا ، إلا إذا رصدنا أن الطبقة الوسطى المصرية فى حركتها السياسية ، كانت تنقسم إلى

---

(١) لانداو ، جاكوب — ترجمة سامى الليثى : الحياة النيابية والأحزاب فى مصر من ١٨٦٦ — ١٩٥٢ ط١ بيروت ١٩٧٤ - ص ١٥١/١٥٢

« يعاقبة » يضعون القضية الوطنية فى بؤرة الاهتمام ، ويعادون الاستعمار بلا هوادة ، ويأنفون من الالتفات إلى مسائل فرعية كالإصلاح الاجتماعى، « وجيروند» يضعون مسألة الإصلاح الداخلى فى بؤرة اهتمامهم ، وقد يرون أن الأمة لم تؤهل بعد ماديا لنوال الاستقلال ، وقد نرى من الأولين قيادات مثل عرابى ومصطفى كامل ومحمد فريد وسعد زغلول ومصطفى النحاس ، وقد نرى فى الجيروند رجالا مثل شريف ولطفى السيد وعدلى يكن ومحمد محمود . لقد كان اجتهاد اليعاقبة صحيحا رغم نواقصه ، إذ أن أنفتهم من الخوض فى مسائل الإصلاح الداخلى خلخلت من قدرتهم على حشد كافة الطبقات الخاضعة لظروف النهب الاستعمارى وتنظيمها ، وقللت بذلك من قدرتهم على مواجهته بأسلم الطرق ، لكن اجتهاد الجيروند كان استدراجا للقوى الوطنية إلى دروب فرعية ، بتصوره أن هناك إمكانية للإصلاح الداخلى أو الاجتماعى فى إطار السيطرة الاستعمارية ، لكن الطرفين فى كل الأحوال كانا ينطلقان من أرضية مصالح شريحتين من شرائح طبقة واحدة ، وكان اجتهاد كل منهما هو الممكن الوحيد فى ظروف نشأتها ونموها ، وفى ظروف المد الاستعمارى العالمى على زمن محاولتها القيام بالحلقات المتتالية من ثورتها .

وسنكون بالقطع خاطئين وخطاة إذا لم نضع فى اعتبارنا الظروف التى كانت عسيرة المواجهة . فقد نشأ الرجل فى العصر الذى تلى اجهاض الثورة العرابية ، ووقوع مصر فى قبضة الاحتلال الانجليزى ، وقد شهدت السنوات التالية لذلك — بتلخيص الأستاذ الرافعى — « خضوع الحكومة المصرية لأوامر القنصل البريطانى العام » شهدت إلغاء الجيش المصرى ، وتأليف جيش جديد هزيل ، قائده وكبار ضباطه من البريطانيين ، شهدت النفوذ البريطانى يتغلغل فى شؤون الحكومة كافة من سياسية وحربية ومالية وتشريعية وإدارية ، شهدت إلغاء الدستور الذى نالته سنة ١٨٨٢ وتأليف هيئة شورية لا حول لها ولا قوة ، شهدت نوعا من الحماية مضروبا على مصر ، ثم شهدت

فوق ذلك استسلام رجالات مصر لإرادة العميد البريطانى ، وتقرب أكثرهم إليه ، والتماسهم الزلفى لديه ، واللورد كرومر هو صاحب الأمر والنهى فى شئون الحكومة ، يتدخل فى كل وزارة بواسطة الموظفين الانجليز الذين كانوا على رأس المصالح المهمة ، فالسردار والضباط البريطانيون على رأس الجيش ، والبوليس تحت امرة المفتش البريطانى العام ، والمالية فى يد المستشار المالى والأشغال فى يد وكيل الوزارة البريطانى ، والحقانية منذ سنة ١٨٩١ فى يد المستشار القضائى ، وفى رياسة الوزارة مصطفى فهمى باشا ، أكثر الوزراء خضوعا للاحتلال الانجليزى واستسلاما له [١] » .

فى تقريره الشهير الذى كتبه اللورد دوفرين إثر لاحتلال حدد خطوط السياسة الاستعمارية فى مصر ، تلك التى طبقها اللورد كرومر باقتدار على امتداد ربع قرن ، وهى سياسة تقوم على أربعة محاور ، فهى تسعى إلى سيطرة سياسية تتمثل فى المركز الممتاز للمعتمد البريطانى والتوسع فى توظيف الأوربيين فى الإدارة وسيطرتهم على البوليس والجيش ، وهى تسعى لاستكمال هذه السيطرة بالمجلس التشريعى الصورى ، لضمان صدور القوانين معبرة عن مصالح الاحتكارات الأوربية ، ثم هى تحرص على امتيازات الفئات العليا من البرجوازية الزراعية بهدف استغلال وضعيتها المسيطرة اجتماعيا لتطويع المجتمع كله للسيطرة الاستعمارية ، وهى أخيرا تنحو إلى البدأ بسياسة زراعية الهدف منها خلق طبقة من صغار الملاك يتمشى وجودها مع سياسة الاستغلال الاستعمارى ، إذ تلعب دور المستهلك النشط للسلع المصنعة فى انجلترا ، والمنتج للمادة الخام ، وتقوم سياسيا بدور الموازنة مع كبار الملاك الذين قد يطمحون فى المستقبل لتكرار محاولاتهم للمشاركة فى السلطة كما فعلوا على زمن الثورة العرابية . جوهر تلك المحاور كلها هو تطويع الاقتصاد

---

(١) عبد الرحمن الرافعى — مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية — ط ٢ — القاهرة ١٩٤٩ — ص ٤٥

المصرى للقوانين الاقتصادية المستعمرة ، أى تتحول مصر إلى جزء من السوق الاستعمارى ، تورد المواد الخام وتستورد السلع المصنعة ، وتصدر إليها رءوس الأموال[١] .

ومن الطبيعى أن تطبيق هذه السياسة قد ولد بعض الظواهر الجانبية،لعل أخطرها أن اللورد كرومر بدأ يطبقها فى أعقاب الفوضى المالية التى نتجت عن كارثة الديون ، وعقب ظروف التقلب الداخلى التى شهدتها مصر فى شهور الثورة العرابية ، وجاء تطبيق هذه السياسة ليوحى بأن هناك بعض الاستقرار السياسى والرواج الاقتصادى قد حدثا نتيجة لاحتلال الإنجليز لمصر ، وما أكثر ما فخر اللورد كرومر بأنه صديق أصحاب الجلابيب الزرقاء ونصير الفلاحين ، وما أكثر ما من عليهم — وعلى المصريين كافة — بأنه حسن وسائل الرى ونشر الرخاء وألغى الكرباج والسخرة وخفف الضرائب ، وأنقذ المصريين من مظالم عهد إسماعيل، لذلك لم يكن غريبا أن يصف سنوات عمله فى مصر بأنها «سنى الإصلاح» .

ونظن أن الدكتور هيكل كان مبالغاً فيما رصده من أن الحكم البريطانى لمصر قد خفف الأعباء المالية فقبل المصريون جهلهم وضعفوا أمام المحتل ، واعتبروا كل شىء هين ويسير ما دامت الضرائب المرهقة خففت وما دامت السخرة والكرباج قد ألغيت[٢]، وعنده أن ظلم إسماعيل قد هون على الناس استبداد الإنجليز[٣] .

لكن هذه المبالغة — أيا كانت أهدافها — لا تعنى خطأ القول بأن

---

(١) صلاح عيسى : الثورة العرابية — ط١ بيروت ١٩٧٢ — ص ٣١٨/٣١٩

(٢) د . محمد حسين هيكل : شخصيات مصرية وغربية — ط١ — القاهرة س ١٩ — ص ٤٧

(٣) المصدر نفسه ٤٩

المرحلة الأولى من تطبيق السياسة الاستعمارية ، تستفز عداء حاداً وخاصة لدى الشرائح ذات المصالح الاقتصادية التي أبدلها الاحتلال من بعد عسرها يسراً ، بيد أن هدف الإصلاحات الكرومرية كان تهيئة أوضاع تكفي مزيداً من النهب الاستعماري(١) .

على أن المناخ العام — بعد ذلك كله — كان مناخ يأس بالغ مميت ... يصفه الرافعي فيقول « كان الرجال البارزون في مصر إما منزوين في دواوين الحكومة ، متربعين في المناصب ، وبعضهم أعوان الغاصب ، وإما منصرفين لأعمالهم الخاصة في المحاماة أو الطب والزراعة والتجارة ، والذين أدركوا منهم الثورة العرابية أو كانوا من رجالها ، كانوا متأثرين بالروح العامة التي خيمت على البلاد ، روح الخضوع والاستسلام »(٢) .

في رسائل مصطفى كامل الخاصة إلى جوليت آدم كان يصف مصر دائما بأنها وطن شقي وتعس إلى آخر درجات التعاسة(٣) ، ويبدو أن سبب تلك التعاسة يرتبط بشكواه المتكررة — في رسائله لصديقه فؤاد سليم — مما يسميه « ضعف الهمم عندنا وخور العزائم »(٤) ، ودهشته لأن مصر يبلغ تعدادها ثمانية ملايين نسمة ومع ذلك « تريد أن تأتيها الحرية وهي نائمة فتوقظها من نومها »(٥) ، أنهم عنده « أموات أو متماوتين » ، لذلك صرخ

---

(١) هرشلاغ . م . هـ — ترجمة مصطفى الحسيني — مدخل الى التاريخ الاقتصادي الشرق الأوسط ط ١ — بيروت ١٩٧١ — ص ١٥٣/١٥٧

(٢) عبد الرحمن الرافعي — المصدر السابق ص ٢٥

(٣) على فهمي كامل : رسائل مصرية وفرنسية — الرسائل المتبادلة بين مصطفى كامل ومدام جوليت آدم .

(٤) رسالة من مصطفى كامل الى فؤاد سليم الحجازي مؤرخة في ١٨٩٥/٧/٢٧ — عبد العزيز حافظ دنيا — رسائل تاريخية — ط ١ — القاهرة ١٩٦٩ ص ٣٤

(٥) رسالة منه الي فؤاد سليم في ١٨٩٥/٨/٥ — المصدر نفسه ص ٣٩

يائساً من اليأس « دعني بالله من هذه الأمة التي بلاني الله بأن أكون واحداً من أبنائها[١] .

وإذن فإن مصطفى كامل كان ينشط ضد ريح قوية ، من هنا يكون طبيعياً أن تكون دعوته السياسية على ماهو معروف لنا جميعاً ، كما أنه كان طبيعياً أن تكون دعوته للاصلاح الاجتماعي أكثر خفوتاً ، وخاصة في بداية حركته ، إذ كان الاستعمار قد سحب بعض الأرض من تحت أقدامه بما أحدثه من تغيير في الأوضاع الاجتماعية ، خفت معه حدة التناقضات الاجتماعية بعض الوقت ، إذ كانت المقارنة دائماً بين عصر إسماعيل في مظالمه وإصلاح كرومر المزعوم .

والدائرة السياســـية لحركة مصطفى كامل أساس في خفوت اهتمامه بالإصلاح الاجتماعي ، فقد اعتمد في حركته السياسية أساساً على استغلال التناقضات داخل الجبهة الامبريالية ، محاولا حفز دول أوربا أن تحمى مصالحها في مصر بإجهاض محاولة انجلترا للاستئثار بكل شيء ، مؤكداً أن استقلال مصر يحمى هذه المصالح ، من هنا ظل نشاطه لفترة طويلة دعاية خارج الحدود ، لايستخدم فيها موضوعات الداخل إلا إذا أراد أن يؤكد لأوروبا أن الحكم الإنجليزي فاسد لايعمل من أجل سداد ديونها ، أويؤكد لها عمل هذا الحكم ضد مصالحها ، فهو يكثر من استفزاز الفرنسيين بتذكيرهم بتقلص نفوذهم في الثقافة والتعليم[٢] وينبههم - وغيرهم من الأوربيين —

---

(١) رسالة منه إلى فؤاد سليم في ١٨٩٥/٨/٢٩ — المصدر نفسه ص ٥٠

(٢) مصطفى كامل — رسالة منه إلى المستر لويد في أبريل ١٨٩٨ — على فهمي كامل . سيرة مصطفى كامل في ٣٤ ربيعاً ، حـ ١ — ط ٢ — القاهرة ١٩٢٥ ص ٣٩١ — هذا وقد جمع على فهمي كامل أعمال شقيقه في ٩ أجزاء طبعت عام ١٩٠٨ ثم أصدر طبعة ثانية أصــدر منها جزءاً واحداً في عام ١٩٢٥ ، وسوف نشير إليها فيما يلي بلفظ « سيرة » مع ذكر رقم الطبعة والجزء .

إلى أن هدف انجلترا هو هدم كل نفوذ أوربى فى مصر إلا نفوذها(١) . ومع وعيه بأن الحركة داخل مصر مهمة، وأن المصريين لن يكسبوا من تدخل الدول لطرد الإنجليز إلا أن يصبحوا مستعمرة دولية ، طالما هم لا يتحركون ولا يكونون قطباً فاعلا فى الصراع(٢)، إلا أن هذا الوعى لم يتحول إلى حركة فى الداخل إلا مع أوائل القرن ، بإنشاء « اللواء » والدعوة لإنشاء المدارس ولم تقوى هذه الحركة وتنتظم إلا قبيل وفاته بقليل عندما أنشىء الحزب الوطنى .

ومن الطبيعى أن تكون تحالفات مصطفى كامل السياسية عاملا مؤثراً فيما ينزع إليه من دعوات الإصلاح الاجتماعى ، فنحن نعرف أنه كان حليفاً للسلطان العثمانى، والخديو عباس، ولدول أوروبا ـ وخاصة فرنسا ـ فى مرحلة طويلة من كفاحه ، ولهؤلاء جميعا شروطهم للتحالف معلنة أو غير معلنة ، كان مصطفى كامل يضعها فى اعتباره باستمرار فى نشاطه المعلن ، لكن المؤكد أنه كان أكثر تحررا منها فى نشاطه غير المعلن ، فالخديو عباس مثلا ، كان يبيع الرتب والنياشين ، وكان يصارع من أجل السيطرة على الأوقاف ، ويرتكب فى ذلك جرائم لم يحتج عليها مصطفى كامل علنا ، لكنه وبخ الخديو عليها بشدة فيما بينهما كما روى محمد فريد فى مذكراته(٣) . ويدخل من بين هذه التحالفات أنه كان يضع حالة الشعب المصرى فى اعتباره ، حريصا على ألا يستفز تقاليده الاجتماعية وموروثاته الدينية والثقافية ، لكن هذا الحرص كان يتجه أحيانا إلى تملق هذه التقاليد والموروثات إذا رأى أن فى ذلك

---

(١) مصطفى كامل : المسألة الشرقية ط ١ — القاهرة ١٨٩٩

(٢) رسالة من مصطفى كامل إلى فؤاد سليم فى ٢٣ / ٨ / ١٨٩٥ — المصدر : مصدر سابق ص ٥١

(٣) مذكرات محمد فريد — حوادث أغسطس ١٩٠٤ — مجلة الكاتب المصرية ١٩٦٨/١٩٦٩!

استفزازا للمصريين لكي يعادوا الاحتلال ، أو خضوعا لاعتبارات أوضاع الصراع السياسي التي كانت قائمة في عصره .

في ضوء هذه الظروف كلها حدد مصطفى كامل إطار حركته بقوله « إننا نبني نجاحنا في عملنا على أمرين : الأول خارجي وهو انتهاز فرصة الحوادث الدولية . والثاني داخلي وهو نشر العلوم والمعارف بين إخواننا المصريين والتشهير بهفوات الاحتلال الإنكليزي لنرقى العقول ونبغض القلوب في الغاصبين ، وبذلك تقترب الأمة شيئا فشيئا من الوطن حتى تلتف حوله وتصير وإياه جسما واحداً لاقدرة لأية طائفة من الناس أو أية حكومة مهما كانت قوتها أن تعبث بكيانه أو تفصل أجزائه[1] .

برغم هذه الظروف كلها فان هذا المنهج العام الذي عالج مصطفى كامل من خلاله موضوعات الإصلاح الاجتماعي كان منهجا ليبراليا قوميا ، فهو يبعث الروح القومية لدى المصريين ويستفزهم لبناء حاضر مجيد كماضيهم المجيد . وهو ينحو إلى تحطيم الطابع الشمولي للدولة المصرية ، هادفا إلى نظام ديموقراطي على النمط الليبرالي . وصحيح أن التحالفات السياسية فرضت عليه أحيانا أن يبدو عثمانيا ، لكنه أصبح من المؤكد الآن أنه كان واعيا بحجم المناورة في هذه الدعوى[2] ، كما كان واعيا بظروف تحالفه مع فرنسا[3] .

(١) حديث بين مصطفى كامل وأحد الأمريكيين — سيرة ، حـ١ ط ٢ ص ٣١٨

(٢) يقول د. حسين هيكل وهذا من الذين كانوا يختلفون مع مصطفى كامل في اجتهاده السياسي إذ كان من أعضاء حزب الأمة « كانت سياسة الباب العالي في الآستانة تعمل على الاستفادة من هذه المناقشات الدولية ، فلم لا تقوم سياسة مصر على هذه القاعدة أيضاً ، ولم لا تستفيد مصر من تطلع الدول جميعاً لتتخلص منها جميعاً وتتصل إلى نوع من الحيدة يكفل لها ولو الاستقلال الداخلي الواسع النطاق الذي وصل إليه إسماعيل باشا ؟ [شخصيات مصرية وعربية ص ٥١] ، راجع أيضاً : مصطفى كامل والجامعة العثمانية — بحث للأستاذ محمد عمارة وندوة الاحتفال بالذكرى المئوية لميلاد مصطفى كامل — الجمعية المصرية للدراسات التاريخية — نوفمبر ١٩٧٤

(٣) د . محمد أنيس : صفحات مطوية من تاريخ الزعيم مصطفى كامل [الرسائل المتبادلة بين مصطفى كامل وعبد الرحيم أحمد] — ط ١ القاهرة ١٩٦٣ — ص١٥/١٦

وفى هذا الصدد يرصد صبحى وحيده ملاحظة جديرة بالالتفات حقا فعنده أن مصطفى كامل هو أول مفكر مصرى نقرأه فنكاد لانجد له إلا ثقافة غربية ، يختلف خطها من العمق والاتساع ولكنها غربية فى جوهرها وطابعها(١) ، فهو ابن مهندس تربى فى المدارس الأميرية وخدم فى الجيش ، واختلف هو أيضا إلى المدارس الأميرية فلم يتصل بالأزهر صغيراً أو كبيراً ، ثم التحق بالمعاهد الفرنسية فى القاهرة ثم فرنسا(٢) ، ويجزم صبحى وحيده بأن مصطفى كامل هو « بلا منازع أول مصرى اكتمل لديه الوعى المصرى ، وأدى هذا الوعى تأدية من يشعر بمعناه شعوراً لاتردد فيه(٣) » .

وانطلاقا من هذا الوعى كان مصطفى كامل واحداً من دعاة بناء مصر كدولة قومية متحضرة ، حدد غايته بأن يرى « مصر ، مصر العلم ، مصر الحرية ، مصر النعيم مرة أخرى . لأنها إذا كانت قد بلغت فى زمن من الأزمان من سمو الحضارة والعلم مالم تبلغه أمة فى الوجود ، فقد كان ذلك من عمل أبنائها الأولين ، ولما كنا نعتقد أننا من سلالة أولئك الذين تفخر بهم التاريخ وعدوا فى زمانهم أساتذة العالم بذلنا كل مافى وسعنا للتشبه بهم والنسج على منوالهم(٤) » وهذا الفخر بالقومية المصرية ، لاينظر إلى جانبها المتخلف ، لكنه ينحو إلى التمسك بجانبها المتحضر . فهو يرى أن تاريخ مصر « آهل بالعظمة وقوة السلطان حافل بأساطيل البحر وجيوش البر ودور العلم ومعامل الصناعة وكل صفوف القوة » ، لذلك يتذكر ويذكر غيره بأن « الأمة المصرية أمة اكتشف فيها التاريخ معدنا من أثمن المعادن قدراً وأسماها منزلة ألا وهو

---

(١) صبحى وحيده : فى أصول المسألة المصرية — ط ٢ — بيروت ١٩٧٤ — ص ٢٤٢

(٢) المصدر نفسه ٢٤٢

(٣) المصدر نفسه ٢٤٣

(٤) حديث مع صحيفة لاكوربيرى الإيطالية فى ١٥ / ٣ / ١٨٩٨ — سيره ج ؟ ط٢ س ٢٨٤

الذكاء المصرى(١) » ، ومع فخره الدائم بما بناه الأولون وشيده السالفون(٢)، فهو يدعو المصرى المعاصر إلى التحرك لبناء مصر الجديدة مؤكداً « إن المصرى إذا ترَبى وتهذب كان رجلا كاملا عارفاً لحقوقه قائماً بواجباته»(٣).

وعند مصطفى كامل أن هناك أمة مصرية هى « خير الأوطان وأشرفها، وأن أمتنا العزيزة أعرق الأمم فى المدنية وأكرمها(٤) » ، وبتعريفه فان الأمة « عائلة واحدة مرتبطة الأعضاء متماسكة الأجزاء متضامنة الحقوق والواجبات يفتخر كل فرد فيها بما أتاه بقية الأفراد(٥) » ، وحدتها الفرد ، فهى « الفرد متكرراً فاذا قام كل واحد بواجباته وأصلح المعوج من أموره صلحت أحوال المجموع وردت إلى الأمة حريتها وسعادتها ولبس الوطن ثياب الحياة والقوة والعافية(٦) » .

وهذه الأمة يجمع بين أفرادها تضامن قومى أو أهلى، وسنه هذا التضامن تفرض — كما يقول — « على كل فرد أن يعمل لتعميم السعادة والخير بين سائر الأفراد حتى تزداد رابطة هذا التضامن ، أى رابطة الوطنية ، قوة ومتانة »(٧) ، لذلك فان الوطنية تعنى المساواة فى التكاليف العامة ، «فلا تمييز فيها بين الصغير والكبير والغنى والفقير ، بل كلنا سواء أمام مصر ، وكل

(١) خطبة مصطفى كامل فى حفل افتتاح مدرسة قره جوللى — سيره مصطفى كامل فى ٣٤ ربيعاً ، جمعها على فهمى كامل — الطبعة الأولى — ح٩ — ص ٨١/٨٢

(٢) خطبته فى ١٨٩٨/١٢/٢٣ — المصدر نفسه ص ٧٣

(٣) المصدر نفسه .

(٤) مصطفى كامل : التربية الوطنية : المؤيد فى ١٨٩٨/١٠/١٠

(٥) خطبته فى التياترو الطليانى فى ١٨٩٨/١٢/٢٣ — سيره — ط ١ — ح ٩ — ص ٧٣

(٦) المصدر نفسه .

(٧) خطبته فى عيد الجلوس الخديوى فى ١٨٩٨/١/٨ — سيره — ط ٢ — ح ١ — ص ٢٨٢

واحد منا مسئول عن مصائبها مطالب بخدمتها واعلاء قدرها(١) ، وانطلاقا من هذه المسئولية ينبه إلى ضرورة الاتحاد أو الوحدة بين أفرادها ، وعنده أن أصل هذا الاتحاد « فى كل أمة شعورها باتحاد مصلحتها واتحاد واجباتها نحو الوطن المشترك(٢) » .

ومع صحة هذا المفهوم فى ظروفه بشكل عام ، إلا أن مصطفى كامل قد غفل عن رؤية أى نوع من أنواع الصراعات القومية أو الاجتماعية فى جسد هذه الأمة التى كان يوقظها . وفى هذا الصدد ينبه محمد زكى عبد القادر إلى أن أنصار مصطفى كامل البارزين كان من بينهم بعض كبار الأتراك والجراكسة أو من ينتمون إلى أصل تركى أو جركسى(٣) ، ويرصد « لاندار » أن مصطفى كامل كان يظن أنه لا يوجد صراع اجتماعى أو قومى فى مصر ، ويرى أن الخلاف بين الأتراك والجراكسة والمصريين قد طوته أسباب الإهمال(٤) ومما يؤكد ذلك أيضا أن تحليل مصطفى كامل لأسباب اجهاض الثورة العرابية أدان بشدة الخلاف بين الجراكسة والمصريين واعتبره عاملا هاما فى فشل الثورة واحتلال مصر(٥) .

وانطلاقا من هذا التحليل فان مفهوم مصطفى كامل للوحدة القومية اتجه إلى التأكيد على الوحدة بين عنصرى الأمة من المسلمين والأقباط ، رغم اتجاهاته الإسلامية الواضحة، ورغم تعقد هذا الموضوع آنذاك بحكم المحاولة الانجليزية الرامية إلى احتضان الأقباط تحت مظلة الوحدة الدينية التى

---

(١) المصدر نفسه .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) محمد زكى عبد القادر : محنة الدستور — ط ٢ — بيروت ١٩٧٤ — ص ٢٥

(٤) لا نداو — مصدر سابق ١٢١

(٥) مصطفى كامل : المسألة الشرقية .

نجمهم بالمحتلين من جانب ، وارتباط مصطفى كامل بالتحالف السياسى مع الخليفة العثمانى من جانب آخر ، وحرصه على عدالآة الشعور الدينى لجماهير الشعب من جانب ثالث . ونحن نلمح فى تاريخ محمد فريد للسنوات من ١٨٩٢ - ١٨٩٥ ضيقا شديدا يصل إلى حد التعصب ، سببه شعوره بممالآة الاحتلال للأقباط فى تولى الوظائف العليا قضائية وإدارية على حساب المسلمين[١] .

ويبدو أن مصطفى كامل فى بواكير حياته السياسية كان مقتنعاً إلى حد كبير بفكرة الدولة الثيوقراطية ، وهذا واضح فيما كتبه فى مجلة المدرسة مهاجماً الخسرة المموهين، والكفرة الخاسرين الذين يقولون أن القرآن أنزل لعصر لا لكل العصور ، ولقوم لا لكل الأقوام »[٢] وفى ربطه المتكرر بعد ذلك بين المدرسة والمسجد ودعوته لتعليم دينى بحرارة[٣]، لكننا نرجح أن مصطفى كامل كان ينحو فى ذلك نفس المنحى الذى نحاه عبد الله النديم — وهو فيما نعلم أحد الذين أثروا فيه — وقد كان يفرق بين « العصبية الدينية » بمعنى وحدة من يدينون بدين معين لأداء شعائره وإعلاء شأنه ، وبين « التعصب الدينى » بمعنى الحض على كراهية الأديان الأخرى[٤] .

لكن ذلك كله لم يمنع وجود تناقض واضح بين رؤية مصطفى كامل الليبرالية فى جملتها والتى كانت تفرض عليه أن يكون علمانياً ، وبين رؤيته للعلاقة بين الدين والدولة ، ومع اقراره بأن أمم الغرب قد بلغت من المدنية أقصى ما تبلغه الأمم بفضل تمسكها الشديد بأوطانها وتفانيها فى محبتها والدفاع

---

(١) مذكرات محمد فريد .

(٢) مختارات من مجلة المدرسة — سيره حـ ١ ط٢ — ص ٨٧ وما بعدها .

(٣) راجع خطبته فى ١٨٩٨/١٢/١٨ (سيره — ط ١ حـ ٩ ص ١٩٨) وخطبته فى ١٨٩٨/١٢/٢٣ (المصدر نفسه ص ٧٤) .

(٤) صلاح عيسى : الثورة العرابية — الباب الثالث .

عن استقلالها ؛ فهو ينفى الظن بأن المدنية الغربية تقتصر على الدعوة إلى محبة الوطن دون الدعوة إلى مجد الدين ، ويؤكد أن الصراع بين الامبراطورية العثمانية ودول أوربا إنما هو صراع دينى مؤكدا أن الدين فى أوربا أساس السياسة . لكنه يعود فى نفس النص ليؤكد فكرة مناقضة لهذا كله ، مبشرا بقومية مصر فيقول « نحن فى مصر أمة مشتركة ، جزء منها هو الأقباط ، وجزء عظيم هو المسلمون وعلينا واجبان عظيمان : واجب دينى وواجب وطنى ، فالواجب الدينى يحتم على الأقباط أن يحافظوا على عقيدتهم أشد المحافظة ويدافعوا عنا أقوى الدفاع ، ولاملامة عليهم إذا عطفوا على اخوانهم فى الدين والعقيدة ، أما واجبنا الوطنى فهو العمل باتحاد تام بين المسلمين والأقباط وغيرهم ممن صارت مصر وطنا لهم لخدمة هذه الديار العزيزة والسعى وراء استقلالها وحريتها ، ولم نجاهر بغير ذلك طول حياتنا ، بل جاهرنا بأن المسلمين والأقباط فى مصر أمة واحدة ، وأن الدم الذى يجرى فى عروق أغلب مسلمى مصر نفسه الدم الذى يجرى فى عروق الأقباط ، وإلى هذا تنتهى الدعوة للاتحاد الجنسى والاتفاق الوطنى »[1] .

وكما غفل مصطفى كامل عن الصراع القومى بين الأجناس التى تقطن مصر ، ووفق بين دعاة القومية ودعاة الثيوقراطية ذلك التوفيق غير المحكم بتشبيه بمصر كوطن ودعوته إلى تبعيتها لدار الخلافة ، وباحيائه للوطنية ومهاجمته أحيانا للقومية ، فقد غفل أيضا عن رؤية الصراع الاجتماعى أو رآه بدرجة معقده ومختلطة . ويؤكد « لانداو » أن برنامج الحزب الوطنى قد خلا من أى اهتمام بالمشكلة الاجتماعية فى مصر ، كما أن مصطفى كامل لم يبد أى اهتمام يذكر فى خطبه أو مقالاته بالفلاحين[2] .

---

(١) مصطفى كامل : الدين والسياسة — اللواء ١٥ رمضان ١٣١٧ (يناير ١٩٠٠) .

(٢) لانداو — مصدر سابق ص ٣٢١

وبينما نجد له أفكاراً اجتماعية صحيحة ، فان ما يرتبه على هـذه الأفكار ليس بنفس الدرجة من الصحة : فهو القائل « الأغنياء ليسوا فى سعة من العيش وراحة البال إلا بالفقراء ، فصاحب المزرعة لا يأخذ من أرضه ذهبا إلا بفأس الفقير وقوة ساعده ، وما لنا نذهب بعيداً وهـذه السراى العالية البنيان المشيدة الأركان لم تقم إلا بالفقراء ، هم قوة الأمة ، وساعدها العامل ، يحملون الأغنياء على اكتافهم فان أخلوا بهم يوما أسقطوهم إلى أسفل سافلين » ، لكن هذا التحليل ذو الطابع الراديكالى لا ينتهى إلى رؤية راديكالية كتلك التى دفعت عبد الله النديم من منطلق مشابه إلى تحريض الفلاح على شق بطن ظالمه بالفأس ، لكنها تنتهى عند مصطفى كامل إلى دعوة للصداقة والبر والخير « فواجب الأغنياء — ترتيبا على ما سبق — أن ينشروا المصابيح بين الفقراء لتنكشف أمامهم الحقيقة ويسيروا وإياهم فى طريق السلامة والسلام[1] » .

وانطلاقا من هذا المفهوم للغنى والفقر ، يتحولان عند مصطفى كامل إلى مفاهيم مجردة ، بعيدة عن أصولهما الاجتماعية ، فهو لا يقصد « بالفقير معدم المال وباليتيم المحروم من الأب ، وبالبائس ذا الخصاصة ، فان هؤلاء الثلاثة تجمعهم كلمة جاهل : هذه الكلمة التى لا يصح فى هذا الزمان أن تكون وصفا لبنى الإنسان »[2] ، ويصبح الفقر ، فقراً فى الوطنية .. « فالوطنية الحقيقية تجعل صاحبها فقيراً كان أو غنيا فى الصف الأول من الأمة فقد نكون فقراء أيها السادة فى المال ، ولكن شرف عواطفنا وصدق وطنيتنا واخلاصنا لمصر يجعلنا فى الطبقة العالية من الأمة »[3] وعندما يستخبر التاريخ يدله على

---

(١) خطبته فى افتتاح مدرسة حسين قره جولى — سيره — ط ١ — جـ ٩ — ص ٨٥/٨٦

(٢) المصدر نفسه ص ٨٤

(٣) خطبته فى حفل عيد الجلوس فى ١٨٩٨/١/٨ — سيره — جـ ١ ط ٢ — ص ٣٦٠

أن « أفراداً فقراء من آخر طبقات الهيئة الاجتماعية قاموا فى بلادهم بأكبر الأعمال وأشرفها »[١] .

وسوف نلاحظ الحاحا شديداً فى خطب مصطفى كامل بدعوة الفقراء لمساندته ، لكن هذا الالحاح لم يقترن ببرنامج اجتماعى يحدد لهم مفهوم الوطنية كحقوق اجتماعية . والواقع أن مصطفى كامل الذى نشأ فى أسرة من الشرائح الصغرى للطبقة الوسطى أميل للفقر ، كان يدرك أهمية الدور الذى يمكن أن تلعبه الطبقات العليا فى مسائل الاصلاح القومى والاجتماعى، وبينما سجل « إن الذين يطالبون الآن بتحقيق رغائب الشعب هم الأغنياء والنبهاء فهم القادرون على تأسيس المدارس الأهلية لتعليم البنات والبنين»[٢] فقد كان واضحا له ولمن درسوا وضعية مصر أن موقف كبار ملاك الأرض من حركته كان موقف المناوىء المتشكك أو المؤيد على حذر[٣] ، ومن هنا جاء هذا الالحاح على الفقراء ، « ولقد يعتذر البعض منا عن التقصير فى خدمة الوطن بأنه ضعيف وفقير مع أن الخالق جل جلاله أرسل الرسل والأنبياء وأغلب عظماء الرجال من طبقة الفقراء ليبعث فى كل إنسان روح الأمل وروح العمل فيا أيها الضعفاء ويا أيها الفقراء ليس الفقر أو الضعف عذرا يقدم للوطن المحبوب ، فالضعفاء قوة إذا اجتمعوا والفقراء غنى إذا اتحدوا »[٤] . على أن هذا التحريض ظل مفتقدا برنامجه الاجتماعى ، فيما عدا ما صاغه من دعوة إلى تمصير التعليم كفلت له أن يحشد جماهير حركته الأكثر عددا وهم الطلاب .

---

(١) المصدر نفسه .

(٢) خطبته بالتياترو الطليانى فى ١٨٩٨/١٢/٢٣ — سيره ح ٩ ص ٧٤

(٣) محمد زكى عبد القادر — مصدر سابق ص ٢٦ — و د. حسين هيكل — مصدر سابق

(٤) خطبته بالتياترو الطليانى — مرجع سابق ص ٩٤

لقد كان مصطفى كامل داعية لتصنيع مصر كجزء من دعوته للإصلاح الاجتماعي والبعث الحضاري ، ولكن هذه الدعوة لم تتجاوز ذلك إلى الاهتمام بالطبقة العاملة الاهتمام الكافي ، وصحيح أنه دعى إلى احترام الصانع واعتبره جدير بالتجلة والتوقير الاجتماعي ونقد سكان البلاد المتأخرة الذين طرحوا احترام الصانع خلف ظهورهم ولم يكفهم ذلك بل أنهم أهانوه واحتقروه وعدوه أقل الناس شرفاً وأحطهم مجداً وقدراً ، مبرراً ذلك بأن « احترام العناصر الشريفة ملازم للتقدم والتمدن » ، وصحيح أيضاً أنه أبدى إعجابه بما رآه فى أوربا من وجود طبعات شعبية مبسطة ورخيصة من الكتب والروايات والصحف للصناع[1] ، إلا أن ذلك لم يتضمن دفاعاً عن حقوقهم النقابية أو الاقتصادية .

ورغم أن الحركة العمالية كانت جنينية فى هذا الوقت ، وكانت معظم التحركات يقوم بها العمال الأجانب ، فنحن نلاحظ أن « اللواء » — فى حياة مصطفى كامل — كانت تأخذ موقفاً متحفظاً من هذه التحركات ، فعندما وقع إضراب عمال المركبات « الحوذية » فى ٩ فبراير ١٩٠٦ بسبب فرض ضرائب جديدة على الخيول التى يستخدمونها خصصتها بلدية الإسكندرية لجمع مبلغ تنشىء به مسرحا للجوقات الأوروبية[2] ، أيدت الأهرام « والمؤيد » العمال فى موقفهم[3] ، وهذا ما فعلته اللواء[4] لكنها عدلت عن موقفها فى اليوم التالى وهددت العمال المضربين باعتزام ولاة الأمر استخدام أتومبيلات بدلا من عرباتهم التى تجر بالخيول ورمتهم بالجهل بأصول الاعتصاب وأخذت عليهم استعمالهم الفظاظة مع الجمهور وخصوصاً الغرباء ، واحتجت على البلدية لأنها

---

(١) مختارات مجلة المدرسة — سيره ط ٢٠ — حـ١ ص ٩٧ .

(٢) الأهرام ١٩٠٦/٢/١٠ .

(٣) الأهرام ١٩٠٦/٢/١٣ — والمؤيد ١٩٠٦/٢/١٢ .

(٤) اللواء ١٩٠٦/٢/١١ .

فكرت فى رفع أجر الركوب لإنصاف الحوذية(١) ، منطلقة فى موقفها هذا كله من شعار مجاملة الأجانب القاطنين فى مصر لكى يؤيدوا قضيتها ضد الاحتلال الإنجليزى .

ويبدو هذا التحفظ واضحاً أيضاً ، فى عزوف اللواء عن التعليق على إضراب عمال توزيع التلغراف الذى تلا إضراب الحوذية ووقع بعده بأسبوع واحد . فقد نشرت الخبر مقتضباً ودون أن تعلق عليه بشىء(٢) ، بينما تبنته الأهرام وتحمست له (٣) ، لكن اللواء فيما هو معروف غيرت موقفها ذاك بعد وفاة مصطفى كامل ، وتحمست للحركة العمالية بعض التحمس .

إلا أن مصطفى كامل - رداً على البرنامج الاجتماعى الذى صاغه حزب الأمة فيما يبدو - صاغ برنامجاً لحزبه اهتم فيه بعض الشىء بجوانب الإصلاح الاجتماعى ، وقال فى خطابه أمام الجمعية العمومية للحزب الوطنى « يرى قبل كل شىء إلى أن يكون المصرى إنساناً بأسمى معانى الكلمة ، وأقصد بالمصرى ليس فقط ذلك الذى تراه فى المدائن يجد ويعمل ، بل أقصد بنوع خاص ذلك الفلاح الذى قضى القرون من السنين وهو يعتقد أنه ملك للحاكم ومتاع لا إرادة له ، فأسمى عمل نقوم به هو إنهاض ذلك الفلاح العزيز وإعلاء مكانته ، فهو ممثل النشاط المصرى ومصدر كل خير ونعيم ، فليحيى عصر ينطق فيه التاريخ بأن الفلاح ألقى أثقال القرون الماضية وصار رجلاً حراً بفضل أبناء وطنه المتعلمين المجاهدين فى سبيل حريته وسعادته »(٤) .

---

(١) اللواء ١٢ ، ١٣ ، ١٥ ، ١٩ فبراير ١٩٠٦ .

(٢) اللواء ١٤/٢/١٩٠٦ .

(٣) الأهرام ١٩/٢/١٩٠٦ .

(٤) نقلا عن الرافعى : مصطفى كامل — ص ٢٢٠ .

وإذا كان موقف مصطفى كامل من قضية التمايز الطبقى ينحو إلى نوع من الحفاظ على الوحدة الوطنية والقومية منسجما بذلك مع رؤيته العامة لكل الظواهر ، فإن موقفه من قضية المرأة لا يبدو موقفاً منسجما مع هذه الرؤية التى كانت واضحة الليبرالية فى بعض جوانبها .

فى خطبة له ألقاها بدار مـــدام جوليت آدم ، دافع عن مكانة المرأة المصرية فى ذلك العهد ، وأكد أن « تربية البنات ليست سهلة » وناقش تحرر المرأة كما حددته الشريعة فقال أن « الإسلام يحل المرأة مكانة راقية ويدعو إلى طاعة الأمهات » ورد على إثارة قضية تعدد الزوجات فأكد أن « العادة هى التى شوهت الديانة السماوية، ولما أراد الإسلام أن يضع حداً لها نصح من خاف أن لا يعدل بين زوجاته بأن لا يتزوج غير واحدة وحتم المساواة فى المعاملة بين الزوجات ، وأضاف «أن كل الرجال يعملون بمبدأ تعدد الزوجات، وإذا كان المسلمون يجرون فى ذلك باسم الدين فإن المسيحيين يجرون فيه باسم الحب والغرام ، والفرق بين الأولين والآخرين فى الشكل لا فى الموضوع ، أما نحن فمن يعتقدون أن قلب الرجل لا تملكه إلا امرأة واحدة ، وكل المتعلمين من المصريين يكرهون تعدد الزوجات وستزول هـذه العادة بحكم الضرورة عندما يئن الفلاح من ثقل الحياة »(١) .

ومع رفض مصطفى كامل لتعدد الزوجات وقبوله بمبدأ الوحدانية فى العلاقة بين الرجل والمرأة ، فان هـذا الرفض لم ينطلق إلى مفهوم المساواة الكاملة فى الحقوق بين الرجل والمرأة ، وخاصة حق العمل . فهو يدعو إلى تعليم البنات لأن ذلك عنده لازم وضرورى « فهى ذات الشأن الأول فى تربية الأطفال متى صارت أما ورئيسة عائلتها ، وهى التى عليها الجزء الأول

---

(١) خطبته فى دار مدام جوليت آدم — باريس ١٨٩٩/٦/٢٠ — سيرى ح ٩ ص ١٥٦

من أعمال هذ الوجود(١) ، وهو فى نظريته إلى قضية التعليم للمرأة ، يربط ذلك بتربية وجدان قومى ووطنى لها فمنده « إن تعليم البنات العلوم والفنون لا يفيد وحده ، بل يجب قبل كل شىء تربية الروح حتى تصير الطفلة متى شبت امرأة رشيدة مدبرة ، تعلم أبناءها محبة البلاد وتغرس فى قلوبهم التفانى فى خدمة الأمة وفى إعلاء شأن الوطن»(٢) ، لكنه يتحفظ على المبادىء الأوربية فى تربية المرأة ويرى فى ذلك « خطراً كبيراً على مستقبل الأمة ، فنحن مصريون ويجب أن نبقى كذلك ، ولكل أمة مدنية خاصة بها فلايليق بنا أن نكون قردة مقلدين للأجانب تقليداً أعمى بل يجب أن نحافظ على الحسن من أخلاقنا ولا نأخذ من الغرب إلا فضائله فالحجاب فى الشرق عصمة وأى عصمة ، فحافظوا عليه فى نسائكم وبناتكم وعلموهن التعليم السليم الصحيح »(٣) .

ونحن نعلم أن دعوة قاسم أمين لتحرير المرأة كانت مقيدة بعصرها ودواعيه ، فهو يتواضع فيطالب لها تعلما ابتدائياً على الأقل(٤) ، ويطالب بأن يكون الحجاب شرعياً ، أى أن تسفر بالوجه والكفين(٥) ، وهو لم يدع إلى خروجها لميدان العمل إلا فى حالة الضرورة كأن يتوفى زوجها أو يكون فقيراً محتاجاً إلى مساعدة أو لم تتزوج إطلاقاً وليس لها أقارب مستعدون لمعاونتها فلا بد لها إذن من التعلم لتتمكن من العمل فى وظيفة شريفة بدلا من الانزلاق فى هاوية الرزيلة(٦) ، ولكن الدعوة إلى العمل رغم الشروط التى

---

(١) خطبة فى القاهرة بالتياترو الطليانى فى ١٨٩٨/١٢/٢٣ — سيره ط ١ ص ٧٤

(٢) المصدر نفسه .

(٣) خطبته فى القاهرة فى ١٨٩٩/١٢/١٨ — سيره ط ١ — حـ١ ص ١٩٧ .

(٤) قاسم أمين تحرير المرأة ط ١ — ١٨٩٥ — ص ١٨ .

(٥) المصدر نفسه ٦٧، ٧٢ .

(٦) المصدر نفسه ص ٥١ .

وضعها ، كانت غريبة على مجتمع شديد المحافظة فلم يكن من الممكن أن يجتذب أنصاراً عديدين فى وقت سريع(١) .

على العكس من ذلك اجتذب قاسم أمين عداء كثيرين ، كان منهم مصطفى كامل ، إذ حمل اللواء على قاسم حملة شعواء شهوراً طويلة ، وقال مصطفى كامل أنه قد زار بلاداً أوربية كثيرة ، ودرس أحوال المرأة الغربية فوجد الحرية قد أفسدت على المرأة آدابها ، ومحت كثيراً من الأخلاق الفاضلة حتى عمت الشكوى هناك . وما وافق تلك البلاد غير ما يوافق البلاد الإسلامية لأن العادات والتقاليد مختلفة . ولكن مصطفى كامل لم يعارض على طول الخط ، فقد اتفق مع قاسم أمين على وجوب الالتفات إلى تربية النساء ، فهى دعوة يوافق عليها كل متقفى الأمة أما الحرية للمرأة فلا محل للحديث عنها الآن ، وعملية التطور الطبيعى تسير سيرها المحتوم وفروق بين التطور والتطوير القسرى الذى لا يؤمن معه من سوء العاقبة ، فإن الرجل منا أهون عليه أن يموت من أن يرى من أهله أو من بيته امرأة فاسدة ، ولو كانت بهجة العلم وحليته . . ووصل مصطفى كامل فى حدته إلى درجة خدش معها قاسم أمين فى مصريته فيقول « ولست أدرى إذا كان هذا الشعور شعوراً طبيعياً عند كل الرجال أو منشؤه الميراث الذى يحمله كل منا فى دمه من أخلاق آبائه وأجداده ، وسواء كان هذا أو ذاك فإن الحرية التى تقتل العصمة شر عندى من الحجاب القاتل المرذول(٢) .

ومن الواضح أن موقف مصطفى كامل من قضية تحرير المرأة كان موقفاً سياسياً أكثر منه موقف مبدئى ، وأنه كان محكوماً فيه بالشعور العام المتخلف

---

(١) ماهر حسن فهمى : قاسم أمين — ص٥١

(٢) اللواء فى ١٩٠١/١/٣١، وراجع أيضاً اللواء فى ١٩٠١/٢/٢٤ و١٩٠١/٢/٢٧ و١٩٠١/٤/١٦

لدى المصريين الذى صدمته مغامرة قاسم أمين الفكرية رغم محدوديتها، ويشير د . هيكل إلى أن هناك سبباً شخصياً وراء ذلك الموقف هو غضب الخديو عباس — حليف مصطفى — على قاسم أمين ، وهو غضب أدى فيما يقول د . هيكل إلى منع قاسم — وهو مستشار بمحكمة الاستئناف — من دخول قصر الخديوية[1] .

وربما ينسحب نفس التحليل على موقفه من قضية زواج الشيخ على يوسف من ابنة السيد عبد الخالق السادات ، وهى قضية تطرح من منظور الفكر الاجتماعى مقولتين هامتين :

* الأولى حق المرأة الرشيد فى تزويج نفسها زواجاً شرعياً ممن اختارها واختارته بصرف النظر عن معارضة ولى أمرها .

* الثانية : مفهوم الكفاءة الاجتماعية ، هل هى شرف موروث ومحتد متوارث ، أم أنها جهد الإنسان للرقى بنفسه وعمله فى سبيل أمته .

وقد وقف مصطفى كامل ضد صاحب المؤيد فى هذه القضية برغم دلالاتها الخطيرة آنذاك ، فكرس بذلك مفهوم تبعية المرأة للرجل وأيد مفاهيم الشرف المتوارث والأرومة النقية ، برغم أنه هو نفسه كان من أسرة متوسطة لا نعرف لها أصول عريقة ، وقد وصل به الأمر على نحو ما يرى محمد فريد فى مذكراته إلى لوم الخديوى عباس لوماً وصل إلى بعض الحدة لأنه كان يتدخل فى القضية لصالح الشيخ على يوسف[2] ، وهو يبدو متلهفاً على سماع نبأ ضد مصلحة الشيخ ، لذلك كتب بفرح وحشى وشماتة غير خافية خطاباً لصديقته جوليت آدم أرسله من برلين فى ٤ أكتوبر ١٩٠٤ يقول فيه « أزف

---

(١) د . محمد حسين هيكل : مصدر سابق ص٥٦

(٢) مذكرات محمد فريد — حوادث أغسطس ١٩٠٤

إليك نبأ عظيما . أرسل إلى أخى على أمس إشارة برقية بأن محكمة الاستئناف أيدت حكم أول درجة القاضى بإبطال زواج ذلك الصحافى المسكين الذى حدثتك عنه ، وعلى البـــاغى تدور الدوائر »(١) . لكننا نفهم من نفس النصوص أن مبرر مصطفى كامل فى ذلك الموقف كان مبرراً سياسياً ،فقد بنى اعتراضه على تدخل الخديو على أساس أن ذلك يسىء إلى سمعته « خصوصاً وأن الرأى العام كان ساخطاً على الشيخ على يوسف لرغبته فى الزواج بالبنت رغم إرادة والدها »(٢) ، كما أن شماتته فى الحكم ضده قامت على أساس « اعتقاده أن هذا الذى خان المسألة الوطنية لن تقوم له قائمة »(٣) مشيراً بذلك إلى موقف صاحب المؤيد بعد توقيع الاتفاق الودى بين فرنسا وانجلترا وانتقاله إلى الجبهة الأخرى .

لكن الإطار العام لرؤية مصطفى كامل لقضية الإصلاح الاجتماعى يرتبط أشد الارتباط برؤيته السياسية كداعية للتحرر الوطنى والاستقلال القومى وفى ذلك كان مصطفى كامل من أول وأعلى الأصوات التى طالبت بتحطيم الشكل الشمولى للحكومة المصرية ، ذلك الشكل الذى تندمج فيه السلطات وتسيطر فيه الحكومة على كل الأنشطة فى ميادين الخدمات والإنتاج ، فكان بذلك من أوائل الذين بشروا بالفكرة الليبرالية التقليدية التى ترى أن تقتصر الحكومة على ميدان الحفاظ على الأمن الداخلى والأمن الخارجى أى البوليس والجيش على أن تترك بقية الأنشطة لمبادرات الأفراد ونشاط الجماعات الحرة .

---

(١) رسالته إلى جولييت آدم فى ٤ / ١٠ / ١٩٠٤ — رسائل مصرية فرنسية ص ١٥٥ .

(٢) مذكرات محمد فريد — حوادث أغسطس ١٩٠٤ .

(٣) رسالته إلى جولييت آدم فى ٤ / ١٠ / ١٩٠٤ — رسائل مصرية فرنسية ص ١٥٥ .

وبسبب ذلك نقد بشدة أولئك الذين يعتقدون أن الحكومة هي المسئولة وحدها عن كل عمل يفيد البلاد، والذين يرون أنه لا حق للأمة في عمل شيء بغير إذن الحكومة، وأبدى دهشته وضيقة لرسوخ هذا الاعتقاد في النفوس حتى أننا لا نزال نرى في مصر رجالا يقدسون خدمة الحكومة ويرون العار في الكسب خارجاً »(١) . وينقد الطابع الاستبدادي للحكومة المصرية ، والطابع الديكتاتوري لنهضتها الحضارية ، منبها إلى أنه « بقدر ما اشتهر المصريون بالنباهة الطبيعية والذكاء الفطري ، اشتهروا بالخضوع للحاكم وعدم مخالفة الحكومة فارتقاؤهم لا يكون إلا آية من آيات أمير كبير عالى الهمة قوى الإرادة وتأخرهم إنما يكون نتيجة مظالم حاكم غشوم جائر ، ولذلك لم يبق لمجد مصر القديم أثر لأنه زال مع الموجد له وغبر مع صاحبه »(٢) .

في مواجهة هذه الصورة يشير مصطفى كامل إلى تجربته الأوربية ، حيث الأهالي يقومون بكل شيء من شركات السكك الحديدية إلى شئون التعليم ، لذلك يطالب الشباب بألا يعولوا على وظائف الحكومة ، فهم عنده لا يستطيعون القيام بإنارة الأمة وإرشادها حق الإرشاد إلا إذا كانوا يعيشون في الحياة الحرة مجاهدين بأنفسهم في سبيل الحياة ، لا عمالا في إدارة أو ديوان ينقدون في آخر الشهر مرتباً معلوماً ، يقتل فيهم عواطف الاستقلال ويحبس في نفوسهم الحرية الشخصية والميل لعظائم الأمور . من هنا تتحدد دعوته للأمة بأن تدير شئونها بنفسها ولا تكلف الحكومة إلا المحافظة على الأمن العام ، وعلى شرف الدولة في الداخل والخارج(٣) .

---

(١) مصطفى كامل — الداء والدواء — المؤيد في ١٨٩٨/١٠/٢٤

(٢) مصطفى كامل — حياة الشعب بالشعب — اللواء ١٩٠٠/١/٢٥

(٣) خطبته في عيد الجلوس الخديوي في ١٨٩٨/١٠/٨ — سيره حـ ١ ط ٩ — ص ٢٩٠

على أن هذه الحكومة المقيدة ينبغي أن تكون أيضاً أهلية أو وطنية ، فالحكومة الاحتلالية لا تقدم للوطن إصلاحا ، « فقد دخل الاحتلال مصر ومعه أبواق يصيح فينا : إن متاعكم بال وليس غرض الاحتلال إلا أن يعيده إليكم أفخر وأعظم مما كان »(١) ، لكن مصطفى كامل يدرك بوضوح « إن الإنجليز رأوا أن من مصلحتهم قتل كل صناعة داخل مصر حتى لا يكون فى وجودها مزاحم للصناعة الإنكليزية ، فهم مثلا لا يشجعون بيننا صناعة الغزل ولا صناعة الجلود ولا غيرها ، لأنها إن شجعت نافست صناعتهم »(٢)، وهو واع أيضاً للدور الذى يلعبه التجار الأجانب فى الاقتصاد المصرى « فالأجانب القابضون فى بلادنا على مفاتيح التجارة والصناعة وهم المتمتعون دون غيرهم بخيرات البلاد »(٣) .

ليس هذا فقط بل أنه ينقد الإصلاح الكرومرى نقداً مراً ، ويلمح بذكاء طابعه الاستعمارى ، فهو يرصد أن ديون الأهالى قد ارتفعت إلى ٢٥ مليون جنيه ، بعد أن كانت ٧ ملايين عند الاحتلال ، ويفسر زيادتها بأنها عائدة إلى « المضاربات التى روجت انجلترا سوقها بمصر ، وإلى نشر الرذائل فى البلاد وغيرها من أمراض المدنية الأوربية »(٤) ، ويضرب أمثلة متعددة لتهاون الحكومة المصرية أمام الشركات الإنجليزية منها مشروع البحث عن البترول على شاطىء البحر الأحمر الذى تنازلت بسببه الحكومة عن ٣٠,٠٠٠ جنيه لإحدى الشركات الإنجليزية(٥) .

---

(١) خطبته فى حفل افتتاح مدرسة حسين قره جوللى — سيره ط ١ ج ٩ — ص ٨٤

(٢) رسالته إلى جريدة اليسترلويد فى أبريل ١٨٩٨ — سيره ج ١ ط ٢ — ص ٣٩٥

(٣) خطبته فى ١٨٩٩/١٢/١٨ — سيره ج ٩ ص ١٩٥

(٤) رسالته إلى اليسترلويد — مصدر سابق ص ٣٩٢

(٥) بمقال له باللواء — ١٩٠٠/١/٢٤

ويبلغ ذكاء مصطفى كامل قمته وهو ينقد السياسة المالية للاحتلال ، فيرد على مَنّ كرومر بأنه أصلح المالية المصرية ، فينبه إلى أن هذه الزيادة نتجت عن زيادة الضرائب على الأطيان والعقارات من جانب، وزيادة تعدد الأمة الذى يستلزم زيادة فى التجارة والصناعة والمرافق وهو ما يزيد دخل مصالح الكمارك والبريد والتلغرافات والسكك الحديدية ، كما يزيد دخل المحاكم من كثرة احتكاك الناس فى معاملة بعضهم بعضاً ، كذلك نمو عدد الأمة بزيادة كمية الأراضى المنزرعة وهذه الكمية الزائدة تطلب مجارى ترويها مما يضاعف عمل الرى . وفى حين أن هذه - كما يرى مصطفى كامل - مبررات زيادة موارد الميزانية ، فهو يلاحظ أنها تستهلك كلها ، وأن الديون لا تسدد، وأن النفقات الإنجليزية تستهلك كل زيادة فى الموارد ، ويبدى دهشته لذلك خاصة أن الإدارة الإنجليزية تستغنى عن الموظفين المصريين ، لتقيم مبان فخمة ، تستفيد منها الشركات البريطانية ولزيادة مرتبات الرؤساء الإنجليز إلى حد وصلت معه إلى ٩٢٣ ألف جنيه فى العام[١] .

وهو ينقد سياسة الاحتلال فى الخدمات ، وخاصة فى التعليم من حيث حجمه من ناحية ، ومنهجه من الناحية الأخرى ، فن حيث الحجم يلاحظ أن الاحتلال لم يزد مدرسة واحدة على المدارس التى كانت موجودة فى البلاد قبل عام ١٨٨٢[٢] ، ومن حيث المنهج يلاحظ أن « علم التاريخ الذى يجب أن يكون دروس وطنية حقيقية وفضائل صحيحة أصبح آلة سياسية فى أيديهم يغرسون به فى نفوس الناشئين حب بريطانيا وكراهية الدولة العلية، واحتقار الوطن والوطنيين ، إن ما يصرفه المصريون على أبنائهم فى مدارس الحكومة لا يصرف فى الحقيقة لمنفعتهم بل لتربيتهم على المبادىء الإنكليزية ليكونوا

---

(١) حديثه مع جريدة الكوريبرى فى ١٥ / ٣ / ١٨٩٨ — سيره ط ٢ — حـ١ — ص٣٨٨

(٢) رسالته إلى المستر لويد — مصدر سابق ص ٣٩٠

عبيداً لبريطانيا وخدما لها »(١) . وهو يرى أن التعليم فى ظل الاحتلال خال من التربية الصحيحة ، ومن الفضيلة والوطنية بل أساسه التربية المفعمة بالخضوع والمذلة »(٢) ويضرب أمثلة على ذلك بأن ناظر الخديوية الإنجليزية قد طرد طالباً لأنه مبتسم وآخر لأنه عابس فى أسبوع واحد(٣) ويعترض على تحريم اشتغال الطلاب بالسياسة(٤) .

وهو فى رفضه لسياسة الاحتلال ، ومناداته بحكومة مقيدة ووطنية يرفض المنطق الذى يرى فى الاستعمار تحضيراً للشعوب وتقدما بها فـ « خير المدنيات ما ارتكز على الشرف وحرية الشعوب فـماذا يفيدنا التلغراف والتليفون والفوتوغراف بل كل مخترعات أوروبا الحديثة إذا كنا نئن من استبداد مخترعى هذه الآلات الجميلة ، وإذا لم تصلح إلا لتعجل باستبدادنا »(٥) .

وكما أن التقدم الحضارى فى إطار الاستعباد مرفوض عند مصطفى كامل، فان الاستبداد الوطنى مرفوض هو الآخر ، لذلك يطالب بحكومة ديمقراطية ، فأوروبا عنده تتقدم « لأن الحكومات هناك تشعر بما على عاتقها من التبعات أمام الأمم فلا تهضم لهم حقاً ولا تخلف معهم عهداً ، ولا تضن عليهم بمعونة ، ولا تستهين بما عليها من الواجبات . الهيئة الحاكمة فى كل مملكة من ممالك أوروبا قطعة من الهيئة المحكومة ، بينها تآمر مشترك وثقة متبادلة والحكومة خادمة للشعب لا سيدة له وكفى « والسلطة

(١) مقال له باللواء بعنوان حياة الشعب بالشعب — ١٩٠٠/١/٢٥
(٢) مقال بالمؤيد فى ١٨٩٨/١٠/٨
(٣) المصدر نفسه .
(٤) المصدر نفسه .
(٥) خطابه في دار مدام آدم — باريس ٢٠ / ٦ / ١٨٩٩ — سيره ح ٩ ص ١٤٨

الاستبدادية عنده تقتل المواهب والملكات وتخنق روح النبوغ فى الطبقات المستنيرة حتى تحكم خشباً مسندة لا أشخاصاً يعقلون »(١) ، إنه يطالب بأن تكون الأمة هى « صاحبة الكلمة الأولى فى بلادها ، وأن رجال الحكومة « عمالا لها وخداماً لمصالحها ، إن رضيت عنهم حفظوا مراكزهم ، وإن سخطت اعتزلوا الأعمال »(٢) ، هذه الدعوى إلى حكومة مقيدة ووطنية وديمقراطية ، تتحقق عند مصطفى كامل — فى مرحلة متقدمة من كفاحه . بجهد الشعب المصرى ، فعنده أن « المسألة المصرية الحقيقية ليست الاحتلال البريطانى ، بل هى مسألة تأخر الشعب المصرى وعدم شعوره بحقوقه الشرعية » .

ومفهوم مصطفى كامل للتقدم مفهوم أوروبى ، أو هو بدرجة ما مفهوم مادى ، فهو يلح على المطالبة بتقـــدم الصناعة والزراعة والتجارة ، ويعتبر ذلك « أهم عناصر التقدم وأول أسباب السعادة ، فان كل أمة قطعت سبيل الحضارة لم تصل إلى ما وصلت إليه إلا بهذه العناصر الشريفة ، فهى من أهم الأسباب التى بلغت بالأمة الإسلامية فى الأزمات السالفة إلى التقدم وعلو الشأن » ، ونبه إلى الاعتناء الزائد بالزراعة على حساب الاعتماد على الصناعة والتجارة(٣) ، وهو يربط بين تقدم التجارة ، وتقدم الصناعة « فالتجارة الوطنية لا تقوم قائمتها ولا يتسع نطاقها إلا إذا كانت المصانع الأهلية فى رواج ، وطالب التجار الوطنيين بمنافســـة التجار الأجانب والاحتفاظ بسوقهم القومية ، ويلح على المصريين أن يدركوا «ضرورة معاملة إخوانهم التجار الوطنيين حتى يتسع نطاق مجالهم التجارية ، مما يؤهلهم لإنشاءمصانع

(١) حوار له مع على مبارك باشا — نقله شقيقه على فهمى كامل — سيره جـ ١ ط ٢ ص١٠٨/١٠٩

(٢) المؤيد فى ١٨٩٨/١٠/٢٤ — الداء والدواء .

(٣) مختارات مجلة المدرسة — سيره جـ١ ص٩٩ — ط ٢

كبيرة داخل البلاد فى المستقبل »(١) ، وهو يرى أن من أهم أهداف المدارس التى يدعو الأهالى إلى إنشائها أن توجه آمال الناشئين « إلى التجارة والصناعة والفنون الحرة حتى يصير الوطن غنياً بأبنائه ويستطيع الواحد منا وقتئذ أن يعيش عيشة وطنية حقيقية ويشترى كل حاجاته من أبناء وطنه فلا تذهب أموالنا لغيرنا بل تبقى فينا وتحفظ ثروتنا من الضياع »(٢) ، من هنا تأتى افتتاحية العدد الأول من اللواء واعدة بالعمل على « ترقية التجارة والصناعة وبنشر كل الاختراعات الحديثة التى يخترعها أبناء البلاد»(٣) .

وإذن فان مصطفى كامل كان يبنى دعوته الإصـــلاحية على منطلقات ليبرالية وقومية ثابتة وصحيحة فهو يريد حكومة مقيدة وأهلية وديمقراطية ، وينشط المصريون الأحرار فى بلادهم لترقية الصناعة والتجارة ، فيعبر بذلك عن فهم ناضج وتبشير مبكر عن مطامح القوى الاجتماعية التى كانت تتبلور فى مصر فى ذلك الحين ، والتى كان جنينها قد ظهر واضحاً فى الثورة العرابية ، والذى يشتد عوده بعد ذلك فى ثورة ١٩١٩ ، داعياً بقوة أكثر إلى استقلال السوق المصرية راغباً فى الانفراد بها .

الوسيلة الرئيسية عند مصطفى كامل لتحقيق ذلك هى « التعليم » ، وقد يكون اختياره هذا راجعاً إلى أن جماهيره الرئيسية كانت جماهير سكان المدن ، والمثقفون منهم أساساً ، والطلاب منهم بشكل أكثر خصوصية ، إلا أنه يعود أيضاً إلى أن مصطفى كامل كان يفهم التعليم بشكل سياسى ، أكثر مما يفهمه بشكل فنى أو مهنى ، فهو ينظر إليه كبديل للتربية الحزبية أو موازلها . وبرغم عدم دقة هذه الفكرة ، فان سعيه إلى تسييس التعليم هو

---

(١) حديثه مع اليستر لويد — سيرى حـ١ ط٢ — ص٣٥٢

(٢) خطبته بالتياترو الطليانى فى ١٨٩٨/١٢/٢٣ — سيرى — حـ٩ ص ٧٤

(٣) افتتاحية العدد الأول من اللواء ١٩٠٠/١/٢

قة وعيه بقضايا الإصلاح الاجتماعي فى بلده ، ولعله وعى مازال معتقداً بنفس هذا التبلور إلى الآن .

ويتمثل هذا الوعى فى إدراك مصطفى كامل لخطر السياسة الاستعمارية فى التعليم ، تلك التى استهدفت وضع العراقيل أمام التقدم الحضارى للأمة من جهة ، وتحطيم وجدانها القومى من جهة أخرى ، فهو يرصـــد بأسى فى خطاب له أرسله إلى شقيقه وهو يدرس بباريس أن تعداد فرنسا خمسة أضعاف تعداد مصر ، فى حين أن طلاب الحقوق بها يصلون إلى سبعين ضعف عددهم فى مصر ، كما أن التعليم الابتدائى هناك إجبارى(١) ، وهو ينبه إلى الجريمة التى ارتكبها المحتلون بالغاء البعثات المصرية إلى أوروبا فى عام ١٨٩٥(٢) ، وإلى اليد الثقيلة التى وضعوها على التعليم « بتعيينهم أساتذة من الانجليز فى أكثر المدارس الأميرية »(٣) ، وعملهم على إلغـــاء التعليم المتخصص وتقليص حجمه « فقد ألغى مدرسة الطب البيطرى ومدرسة الزراعة ومدرسة الآثار المصرية ومدرسة الخرس والعمى ولا يبعد أن يلغى غداً مدرسة الطب بحجة وجود أطباء كثيرين من اليونانيين والأرمن والسوريين وغيرهم أو بحجة أن جو مصر مقبول جميل لا يحتاج إلى صناعة الطب »(٤) ، وتقييمه النهائى أن السياسة الاستعمارية فى التعليم « تبذل الجهد الجهيد فى إيقاف تيار العلم والعرفان وتبنى كل يوم بناء محكما لسد بحار المعارف وتحويل مجراها عن مصر والمصريين »(٥) ، فهى سياسة

---

(١) رسالة غير مؤرخة منه لشقيقه — سيره حـ١ — طـ٢ ص١٠٦ .

(٢) رسالته لليستر لويد — مصدر سابق .

(٣) حديثه إلى جريدة الأكلير الفرنسية فى ١٨٨٥/٩/٩ .

(٤) رسالته لليستر لويد .

(٥) مقالة حياة الشعب بالشعب — اللواء ١٩٠٠/١/٢٥ .

لا تهدف إلى التقدم العلمى والحضارى ، ولكنها تهدف إلى تخريج موظفين للعمل فى الإدارة(١) .

إلا أن الجانب الأخطر فى رأى مصطفى كامل كان ذلك التخريب الذى تحدثه السياسة التعليمية الاستعمارية فى وجدان الأمة ، فهو يرى أن تلك السياسة تعمل على تربية الأبناء على المبادىء الإنكليزية ليكونوا عبيداً لبريطانيا وخداماً لها طائعين(٢) ، وبذلك يصبحون « عباداً لأعداء الوطن وآلات ضده »(٣) ، وتنجح السياسة الإنجليزية « فى قتل العاطفة الوطنية وإعدام كل إحساس شريف عند الناشئين »(٤) ، بل هو يرى أن هذه السياسة تهدد العقائد الدينية نفسها(٥) .

فى مواجهة ذلك كله كان مصطفى كامل يدعو إلى تعليم يجمع بين المعرفة العالية والتربية الوطنية . فمع تكرار ، أن الجهل هو عدو أساسى للأمة ، على المستوى الحضارى ، « لأن الاستبداد ليس إلا لصاً يعتدى على حقوق الأمم فى ظلام الجهل فيسلبها أموالها ويغلبها على استقلالها »(٦) ، فانه كان حريصاً على التأكيد بأن التعليم ليس قضية مجردة ، ولكنه جزء من عمل نضالى ضد الاحتلال ، فقد كان يدرك أن هناك « رجالا تعلموا العلوم العالية ونبغوا فيها بدون أن تربى أرواحهم ، فلما حان الوقت الذى يجب عليهم فيه خدمة الوطن نفروا عنه وأعلنوا له العداء وصاروا نصالا لأسهم الأعداء »(٧) .

---

(١) رسالته لمستر لويد .
(٢) اللواء فى ١٩٠٠/١/٢٥ .
(٣) المؤيد فى ١٨٩٨/١٠/٩ .
(٤) المصدر نفسه .
(٥) اللواء فى ١٩٠٠/٩/٢٥ .
(٦) خطبته فى افتتاح مدرسة قرى جولى — مصدر سابق .
(٧) خطبته بالتياترو الطليانى فى ١٨٩٨/١٢/٢٣ .

وإلحاح مصطفى كامل يربط التعليم بالتربية إلحاح متكرر يكاد يكون إملالا ، مما يؤكد أن الفكرة عنده لم تكن فكرة طارئة ، كان يقينه الثابت « أن التعليم بلا تربية عديم الفائدة ، بل ربما كان كثير الأضرار »(١) . وهو يهاجم ويرفض الفكرة القائلة بأن التعليم فى حد ذاته يمكن أن يكون تربية « التعليم شىء والتربية شىء آخر ... وعلى المصريين أن يؤسسوا المدارس الأهلية لتعليم أبنائهم وعلى الأخص لتربيتهم وقد أهملت التربية أصلا فى مدارس الحكومة فيجب أن تكون الأساس الأول فى مدارس الأمة »(٢) .

ومفهوم التربية عند مصطفى كامل هو « التربية الوطنية الصريحة القاضية ببث روح الفضيلة فى نفوس الناشئين وتفهيم كل واحد منهم تاريخ بلاده وواجباته نحوها وحقوقه الوطنية حتى إذا شب كان رجلا شهماً ووطنياً حراً يأبى الضيم لبـــلاده والاستعباد لقومه فينهض لإعلاء شأن الوطن »(٣) . وهو يربط ذلك بدعوته القومية لإحياء روح الأمة وتراثها فيطالب « بتقوية ملكة اللغة الوطنية عند الناشئين أى تعليم اللغة العربية الجليلة تعليما جيداً وتدريس كل العلوم والمعارف باللغة العربية(٤) ، وهو يربط ذلك أيضاً بالدين . فيلح بكثرة على أن أساس التربية « الدين ، وكل أمة يتربى أبناؤها على غير قواعد الدين تكون عرضة للدمار والانحطاط »(٥) .

---

(١) المؤيد فى ١٨٩٨/٣/٢٨ .

(٢) المؤيد فى ١٨٩٨/١٠/٨ .

(٣) المؤيد فى ١٨٩٨/١٠/١٠ .

(٤) المصدر نفسه .

(٥) المؤيد فى ١٨٩٩/٣/٢٨ .

وترتبط رؤية مصطفى كامل للتعليم بمنهجه الليبرالى وبدعوته الملحة للحكومة المقيدة ، كما ترتبط برؤيته الديمقراطيـــة فهو يرفض أن يدعو الحكومة للاهتمام بالتعليم أو التدخل فيه ، ويطالب بمدارس للأمة تكون قطباً مناقضاً لمدارس الحكومة ، ذات « نظامات مخصوصة » تخالف « طريقة التعليم المتبعة فى مدارس الحكومة »(١) . ويعتبر أن ذلك واجب آباء التلاميذ ، وطالبهم بالاتحاد لإنشاء مدارس مستقلة ترعى أبناؤهم(٢) ، واقترح تنظيما لذلك أن يجتمع كل عشرة من الناس ويتبرع كل منهم بدفع جنيهين فى الشهر ليؤسسوا مدرسة ابتدائيـــة(٣) ، واهتم باثارة اهتمام الأغنياء بهذا المشروع باعتباره مشروعاً استثمارياً(٤) ، وكان عملياً فى دعوته ، لذلك رفض الفكرة التى دعت إلى إنشاء إدارة — أو وزارة — معارف أهلية ، ورأى أن الوقت سابق لأوانها « لأن ذلك المشروع يحتاج إلى نفقات هائلة وأتعاب جسيمة ومتى تأسست مدارس أهلية مستقلة وعمت وتقدمت يسهل بعدئذ ضمها تحت إدارة واحدة وتوحيد طريق التدريس فيها »(٥) .

وكان إلى ذلك داعية إلى مدرسة ديمقراطية لا تؤثم اشتغال طلبتها بأمور الوطن ، لذلك هاجم ديكتاتورية النظار الإنجليز وسوء معاملتهم

---

(١) مقالة حياة الشعب بالشعب — اللواء ٢٥/١/١٩٠٠ .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) المؤيد ٨/١٠/١٨٩٨ .

(٤) خطبته فى القاهرة فى ١٨ / ١٢ / ١٨٩٩ — سيره — ط١ — جـ٩ — ص ١٥٥ .

(٥) مقالته حياة الشعب بالشعب — اللواء ٢٥ / ٢ / ١٩٠٠ — والمؤيد فى ٨ /١٠ / ١٨٩٨ .

للطلاب والمدرسين ، الذين يطردون طالب لأنه عبس فى المدرسة وآخر لأنه ابتسم(١) ، وينقد بشدة حرمان الطلبة من المشاركة فى الاحتفالات السياسية والمظاهرات الوطنية أو الاكتتابات القومية، وطالب بإلحاح بحرية مشاركة الطلبة فى العمل العام السياسى» (٢) .

وإضافة إلى كل هذا فقد كان يرى أن هناك ضرورة لأن يشمل التعليم أبناء الطبقات الفقيرة ، وألا يقتصر على فئات اجتماعية معينة ، لذلك طالب الأغنياء بالتبرع لإنشاء مدارس « تعلم الفقراء من أبناء الأمة » وضرب مثلا لذلك ما تفعله جمعية العروة الوثقى بالإسكندرية التى أنشأت ثلاث مدارس لهذا الغرض(٣) .

ويكتمل فهم مصطفى كامل للتعليم بتبنيه دعوتين عظيمتين :

* الأولى : دعوته للتعليم المتخصص الصناعى والتجارى ، لأن حاجة البلاد إلى هذه المدارس عظيمة ، وهو يربط الدعوة إلى إنشائها الناضج والواعى للطابع الاستغلالى للاستعمار ،ودعوته إلى تمصير الاقتصاد المصرى ، لذلك يرى أن إنشاء هذه المدارس خطوة نحو تأسيس الشركات الوطنية للقيام بكل احتياجات الأمة حتى يكون البائع والمشترى من وطن واحد ، وأمة واحدة ، فتحفظ الأمة ثروتها بين أبنائها(٤) .

---

١ المؤيد فى ٨/١٠/١٨٩٨ .

٢) المصدر نفسه .

(٣) المؤيد ٨/١٠/١٨٩٨ .

(٤) خطبته فى ١٨/١٢/١٨٩٨ — سيره ط ١ — حـ٩ ص١٩٥ — وخطبته فى ٢٧/١٢/١٨٩٨ المصدر نفسه ص٧٤ .

الثانية دعوته لإنشاء الجامعة ، إذ من المؤكد أن مصطفى كامل هو أول من دعى لإنشاء هذه المؤسسة الخطيرة التي لعبت دوراً هاماً في تقدم مصر واستنارتها وتحريرها سابقاً بهذا كل دعاتها ، وربما يكون أقدم نص في دعوته إلى هذا ما كتبه على صفحات اللواء في عام ١٩٠٠[١] عندما اقترح « إنشاء مدرسة كبرى في ضواحي العاصمة يكون بها قسم ابتـــدائي وقسم تجهيزي وقسم عال وقسم خاص بالفنون والصنائع ، وتكون له داخلية حتى يسير المتعلمون فيها على نظام واحد ، ويتخرجوا على مبادئ واحدة ، بمعنى أنها تكون من طراز المدارس الكبرى في أوربا » .

وقد قدر مصطفى كامل لتنفيذ هذه الفكرة مبلغاً لا يقل عن ٢٠,٠٠٠ جنيه وطالب بأن تجعل أسهما وتوزع على الفضلاء والأغنياء من أبناء مصر ، ومتى تم توزيع المبلغ وجمع تحت يد رجل أمين ، ينتخب المساهمون لجنة إدارية للمدرسة لتضع الخطة التي تجرى عليها وتتفق مع أشهر المهندسين الوطنيين على بناء محلها بناء صحياً[٢] . وقد كرر الدعوة إلى ذلك على صفحات اللواء عام ١٩٠٤ و ١٩٠٥ مقترحاً أن تسمى كلية محمد علي[٦] . ثم كان خطابه إلى محمد فريد الذي أرفق به بيانا طلب نشره على الأمة اقترح فيه توجيه التبرعات التي كانت قد جمعت لتكريمه لهدف إنشاء الجامعة .

وما يلفت النظر في رسالة مصطفى كامل تلك إلى الأمة تأكيده بأن الهدف من إنشاء الجامعة هو أن « تهب الأمة الرجال الأشداء الذين يكثرون في عداد

---

(١) اللواء ٢٥/١/١٩٠٠ .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) اللواء ٢٦/١٠/١٩٠٤ .

خدامها المخلصين ممن لا يخافون فى الحق لوما ولا عقاباً ، ويعملون لمداواة أدوائها وجمع أمرها وبث روح الوطنية العالية فى كافة أبنائها ، فيربط بهذا التأكيد بين التعليم والحياة ، وبين الاستقلال الوطنى والتقدم .

وهو أيضاً ينبه إلى فكرة أكثر خطورة من السابقة ، فهو يشترط أن تضم الجامعة أبناء الفقراء والأغنياء على السواء ، مؤكداً أن من أبناء الفقراء الذين سد الاحتلال فى وجوههم أبواب العلم والنور رؤوسا لو تحلت بالعرفان لكانت فخار مصر إلى أبد الزمان ، ليذكر ذو الإحساس والوجدان أن فى مصر كنوزا لم تستخرج للآن ، وأنها لو أخرجت للناس لملأت الأرض نوراً ، وأن هذه الكنوز مدفونة بين مساكن الفقراء .

فى هذا النص سنجد بعضا من راديكالية أستاذه عبدالله النديم ، كما سنجد أيضا فى نشاطه العملى ملامح من نشاط النديم ، فنحن نعرف أن النديم كان داعية إنشاء الجمعيات والمدارس الأهلية ، وأنه بذل فى ذلك جهداً كبيراً ، وهو جهد بذله مصطفى كامل مؤكدا حريته كزعيم وطنى يحاول أن يمد جذوره إلى ما تحت سطح المجتمع ، إنه لا يكتفى بكتابة المقالات ولا إنشاء الصحف ، ولا اللقاءات المغلقة مع الساسة لكنه ينشىء المدارس ، ويخطب فى افتتاحها ، ويدير مدرسة باسمه ، ثم يكون إنشاء نادى المدارس العليا تتمة لجهده فى التنظيم النقابى والطلابى الذى لا يفتقد طابعه السياسى .

فى كل هذا النشاط كان مصطفى كامل واعيا لموقفه الأساسى ، وهو تحرير مصر من الاستعمار ، وبناء دولة قومية مستقلة وديمقراطية ، وقد رأى

كثيرون أن موقفه من قضية الإصلاح الاجتماعي ، وخاصة تحرير المرأة والإصلاح الديني ، كان موقفا محافظا ، بل رجعيا متمسكا بالقيم أشد الاستمساك ، ويفسر د . هيكل ذلك تفسيراً سياسيا فيرى أن الدافع إليه هو « تملق الشعب فيما هو عزيز عليه من عادات وأوهام لاستغلاله فى الغايات السياسية » وفى رأيه أن مصطفى كامل لو عضد قاسم أمين فى رأيه فى تحرير المرأة لأدى ذلك لفتور الشعب عنه وتردده فى أتباعه ، وأن الداعية السياسى تاجر يزن الأمور والحقائق بنتائجها لا بقيمها الصحيحة ولا بما تحتويه ، وما دام غرس كراهية الاحتلال البريطانى فى نفوس المصريين وملء قلوبهم بالإيمان الوطنى يعوق سبيل الدعوة للاصلاح الاجتماعى فليكن الداعية السياسى محافظا بل رجعيا(١) .

ومع موافقتنا بشكل عام على هذا التبرير الذى يأتى من واحد ممن ينتمون إلى مدرسة معادية لمصطفى كامل ، فان التقييم النهائى لموقفه من مسائل الاصلاح الاجتماعى هو لصالحه بالقطع ، إذ ينبغى أن نفرق بدقة بين الحداثة وبين « التقدم » إن المحدثين أو دعاة العصرية قد يتبنون دعوة لتحرير المرأة أو للاصلاح الدينى أو لانشاء الكبارى ، لكن مثل هذه الدعوة تتجاهل أن هذه كلها لن تتحقق فى مجتمع محتل جهلوا أو تجاهلوا عدوه الرئيسى والحقيق ، لكن دعاة التقدم يلتفتون عادة إلى مكمن الداء فى جسد الأمة ، وعندما كان مصطفى كامل يدعوا إلى استقلال مصر وحريتها ، وإلى تحرير تجارتها وصناعتها وإلى تعليم عصرى مرتبط بالوطن ،

---

(١) د . هيكل — مصدر سابق ص ٥٦/٥٧

فقد كان بذلك يدعو إلى التقدم بمفهومه الأبعد نظراً ، ففى وطن متحرر ينتشر العلم وتنهزم الخرافة ، وتتحرر المرأة فى وطن يملك تجارته وصناعته ، ويبنى بالديمقراطيـــة مستقبله ينتشر التحرر الفكرى ، لكن ذلك كله مهما جهد دعاة الحداثة لا يمكن أن تتحقق مع بقاء المحتل .

مؤلفات مصطفى كامل

للدكتور : جمال زكريا قاسم
أستاذ التاريخ الحديث
بجامعة عين شمس

قبل أن نعرض لمؤلفات مصطفى كامل نجد من المناسب أن نلم ببعض الشيء بتكوينه الثقافي واتجاهاته السياسية . ولعل أول ما يستلفت نظرنا انتماء مصطفى كامل إلى ذلك الجيل الذى أفاد من المدارس الحديثة التى نشأت فى مصر فى عهد الخديو اسماعيل ثم نمت - وإن كان ذلك فى حدود ضيقة - تحت الحكم البريطانى، ومعنى ذلك أن مصطفى كامل لم يتصل بالأزهر صغيرا أو كبيرا بل تربى تربية حديثة إذ دخل مدرسة الحقوق الخديوية فى عام ١٨٩١ ثم مدرسة الحقوق الفرنسية التى أنشئت بعد عام فى القاهرة إلى أن تخرج فى عام ١٨٩٤ من جامعة تولوز بفرنسا. ولاشك أن تربية مصطفى كامل بالمدارس الأميرية والمعاهد الفرنسية أثرت فى تفكيره والوجهة التى اتخذتها حركته فهو بلامنازع أول مصرى اكتمل لديه الوعى الوطنى وأدى هذا الوعى تأدية من يشعر بمعناه شعورا لاتردد فيه، وإن ظل يتمسك بفكرة الوحدة العثمانية التى كانت تعتمد عليها سياسة الخديو عباس الثانى ، ويجهد فى الملائمة بينه وبين هذه الفكرة فى كتاباته وأحاديثه مع كل من يتصل بهم[1] .

وقد يبدو واضحا إعجاب مصطفى كامل بالمدنية الأوربية إعجابا لا حد له وخاصة فى المرحلة الأولى من حياته السياسية فنجده فى مجلة المدرسة يغمرها بالبيانات عن أوربا والطرائف المقتطفة من المراجع الأوربية، وعندما يكتب

---

(١) صبحى وحيده — فى أصول المسألة المصرية ص ١٨٨/١٩١

إلى أخيه برغبته فى دخول مدرسة الحقوق الفرنسية يقول إنها مدرسة الحرية ومن صنع فرنسا كما أنه فى مراسلاته الخاصة لا ينسى أن يعدد مظاهر التقدم الأوربى . إلا أننا نجد أنه على الرغم من إعجابه بالمدنية الغربية فقد قيض للاتجاه الإسلامى أن يكون له أثر فى تفكيره والأكثر من ذلك أنه انصرف بعد أن خاب أمله فى فرنسا إلى دراسة التاريخ الإسلامى وإن كانت الوفاة أعجلته عن الابعاد فى ذلك . وعلى أى حال فإن مصطفى كامل لم يقف عند حد إعجابه بالمدنية الغربية فحسب وإنما كان أكثر اهتماما فى محاولة تشخيص أسباب تأخر الشرق عن الغرب وما ينبغى أن يبذل للقضاء عليها[١] . فهو يعتقد أن سر تفوق الغرب يكمن فى نظمه الديموقراطية وقوة مشاعره القومية وأن تقدم أوربا يرجع عنده إلى العقائد السياسية التى تؤمن بها طبقتها الحاكمة وانصراف هذه الطبقة إلى خدمة الشعب وإثابتها الصالحين من أبنائه .

وعلى الرغم من أنه كان يبدى شكه أحيانا فى حكمة الاتجاه الغربى الذى أراده جيله لمصر إلا أنه كان يؤكد ضرورة تبنى ما كان ذا قيمة فى المدنية الغربية فما من أمة عليها أن تعيش عيشة كريمة ما لم تسر على هذا الدرب غير أن هذا لا يعنى أن على مصر أن تقلد أوربا تقليداً أعمى إذ يجب أن تبقى وفية لمبادىء الإسلام المفسرة تفسيرا صحيحا فالإسلام الحقيقى هو الوطنية والعدل، الاتحاد والمساواة ،وبإمكانه أن يكون أساسا لحياة إسلامية جديدة تستمد قوتها من العلم ومن الفكر الواسع الرفيع(٢) .

---

(١) أثار هذا الموضوع اهتماماً بالغـاً من المفكرين فى أواخر القرن التاسع عشر والسنوات الأولى من القرن العشرين ، ويمكن الاشارة بصدد ذلك إلى ترجمة أحمد فتحى زغلول لكتاب إدمون ديولان وعنوانه «سر تقدم الانجلو سكسونيين» وقد نشرت الترجمة العربية فى القاهرة عام ١٨٩٩ لخص فيها المترجم الفرق بين الأمم الشرقية والغربية كما نبه فى تقديمه الأفكار إلى حالة مصر وشـدة احتياج المصريين إلى التعليم وافتقارهم إلى التربية الحديثة .

(٢) البرت حورانى : الفكر العربى فى عصر النهضة ١٧٩٨ — ١٩٣٩ — ترجمة كريم عزقول — بيروت ١٩٦٨ ص ص ٢٤١ — ٢٤٦

ولعل ذلك الاتجاه الفكرى هو الذى دفعه فى أولى مراحل دعوته إلى اعتناق فكرة الجامعة الإسلامية وضرورة الالتفاف حول الخلافة العثمانية وكان يريد بهذا أن يثبت بطلان الاحتلال من الناحيتين القانونية والدولية لأن مصر كانت عند نزول الانجليز تابعة لدولة أخرى[١] . وقد أدى اعتناقه لفكرة الجامعة الإسلامية انتقاده لبعض الاتجاهات العربية فى المشرق العربى التى كانت تدعو إلى الانفصال عن الدولة العثمانية فدعاة هذه الاتجاهات فى رأيه منافقون دخلاء وهم أخطر على الإسلام من أعدائه الصريحين[٢] . وقد رأى أن يصدر فى عام ١٩٠٣ جريدة أسبوعية تبحث عن أحوال العالم الإسلامى حلل الهدف من إنشائها ومهمتها إيقاظ المسلمين من سباتهم بما يترجمه لهم من المقالات التى تكتب عنهم فى أوربا مع التركيز على دسائس الانجليز فى العالم الإسلامى[٣] .

ومما يستلفت النظر أن الحجج التى كان يستشهد بها مصطفى كامل فى محاربة الانجليز وانتقاد سياستهم كانت فى معظمها حججا قانونية تاريخية، أما القانون فقد درسه ومارسه وأما التاريخ فقد أقبل على دراسته ليستعين به فى مجالات دفاعه عن القضية المصرية ؛ وليذكر المصريين بماضيهم وجلال تاريخهم[٤]

---

(١) جمال الدين الشيال : التاريخ والمؤرخون فى مصر فى القرن التاسع عشر ص ص ١٧٤ — ١٧٩

(٢) أحمد عبد الرحيم مصطفى : تطور الفكر السياسى فى مصر الحديثة . معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ١٩٧٣ ص ٤

(٣) مصطفى كامل إلى مدام جوليت آدم ٩ مارس ١٩٠٥ ولعل من أهم المقالات التى ترجمها ونشرها فى هذه المجلة مقالة كتبها الكسندر أولار Ular فى مجلة La revue des Revues فى فبراير ١٩٠٥ أوضح فيه ما يهدف إليه الانجليز من جعل الخديو عباس خليفة ليؤيدهم فى سياستهم إزاء الشعوب الإسلامية التى يحكمونها : انظر مصطفى كامل إلى جوليت ١٦ أبريل ١٩٠٥ وفيما يبدو أن مصطفى كامل نشر هذه المقالة خلال توتر العلاقة بينه وبين الخديو عباس حلمى الثانى .

(٤) جمال الدين الشيال : مصدر سبق ذكره ص ١٧٩

ويتضح ذلك فى صفحات جريدة اللواء التى صارت شبه مدرسة وطنية تعلم المصريين حقوقهم وواجباتهم وتبصرهم بحقائق تاريخهم[١] وتحرك هممهم فى الصراع ضد الانجليز الذين كان يعتبرهم أعداءً للشعب وأن هذا العداء لن يزول إلا بجلائهم فوجودهم لم يكن ضروريا للاصلاح الذى يمكن أن يتم بدونهم على وجه أكمل ولذلك دعا إلى وضع حد للاحتلال ورأى إمكان تحقيق ذلك بمساعدة فرنسا، الخصم التقليدى لانجلترا ،أو السلطان العثمانى، كما اعتقد أيضا أن مصر أمة واحدة لكنها جـــزء من عالم أكبر بل من عدة عوالم: العثمانى والإسلامى والشرقى وأن عليها توطيد علاقاتها مع كل من هذه العوالم الثلاثة وقد عبر عن أفكاره هذه خطابه وكتابة[٢] .

وقد ابتدأت حياة مصطفى كامل ومبادؤه السياسية فى الظهور منذ التحاقه بمدرسة الحقوق الخديوية عام ١٨٩١ فكان يجمع بين الدرس نهارا والبحث فى العموميات مع رجال الفكر والسياسة ليلا من ذلك تردده على مجالس على باشا مبارك وتوثيق صلته مع عبد الله النديم فى عام ١٨٩٢[٣] الذى أخذ عنه كثيرا من أساليب الكتابة الصحفية وبذلك أصبح أقرب روحيا إلى خطيب الحركة العرابية أكثر منه إلى تلاميذ المدرسة الأفغانية[٤] . كما أكثر من تردده على الشيخ على يوسف صاحب جريدة المؤيد الذى أفرد له مجالا فى صحيفته إلى أن أصدر مصطفى كامل فى عام ١٨٩٢ جريدة المدرسة(٥) . وبدأ إنتاجه الفكرى يتضح فى نشره لبعض الأبحاث القانونية والإدارية

---

(١) عبد الرحمن الرافعى : مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية . ص ص ١٤٣ ، ١٤٤

(٢) حورانى : الفكر العربى ص ص ٢٤٥/٢٤٦

(٣) محمد ناصف ومحمد صالح زهير — كتاب النبذة التاريخية لفقيد الاسلام والوطنية مصطفى كامل باشا ص ٧

(٤) حورانى والمصدر السابق ص ٢٤٥/٢٤٦

(٥) محمد ناصف ومحمد صالح زهير : كتاب النبذة التاريخية لفقيد الاسلام والوطنية مصطفى كامل باشا ، ص ٦ المطبعة العمومية ١٩٠٨

والاجتماعية، على أن اتجاهاته السياسية ظهرت أكثر وضوحاً عقب عودته من فرنسا فى عام ١٨٩٤ حينما وضح أنه أخذ يعد نفسه ليكون مدافعا عن القضية المصرية وباعثا للحركة الوطنية ولذلك كان من الضرورى أن يدرس كل ما كتب عن هذه القضية شأنه فى ذلك شأن المحامى المتزن الذى يدرس قضية من القضايا ليجيد الدفاع عنها . وقد نضج فكره من هذه الدراسات فكانت عدة له فى الكفاح الوطنى إلى جانب ما حظى به من مواهب صحافية وخطابية(١) . وقد ذكر شقيقه على فهمى أنه عندما استقبله فى الاسكندرية عند رجوعه إلى مصر فى عام ١٨٩٤ وجد ضمن متاعه صندوقين كبيرين مملوءين بالكتب القديمة والحديثة فى تاريخ المسألة المصرية وسياسة الدول فيها، وفيها مذكرات بعضها لكبار السياسيين ومعظمها من مكتبة باريس وبعضها من وزارة الخارجية الفرنسية وأنه كان لا يفتأ يدرس الكتب والمذكرات التى أحضرها معه وقد أكب على هذه الدراسات كأنه لا يزال فى دور الدراسة(٢) .

ونحن فى محاولتنا التعريف بمؤلفات مصطفى كامل سنتجه إلى عرض هذه المؤلفات متوالية بتواريخ ظهورها مع توضيح الأسباب التى دفعته إلى وضعها متلمسين منها اتجاهاته الفكرية والسياسية والتعديلات التى طرأت عليها .

الجواهر السنية فى نظام الهيئة الاجتماعية (١٨٩٣) :

سبق أن أشرنا إلى أن مصطفى كامل بحكم ثقافته القانونية بدأ يطرق بعض الأبحاث القانونية فكتب فى الأنظمة الاجتماعية والقانونية واستخدم

---

(١) عبد الرحمن الرافعى : مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية ص ص ٤٤ — ٤٦

(٢) عبد الرحمن الرافعى : مصدر سبق ذكره ص ص ٤٤/٤٦

فى ذلك جريدة المدرسة التى حدد هدفها بأنها جريدة علمية تهذيبية(١) ولعل أول مايستلفت نظرنا بصدد ذلك كتاب عزم على تأليفه فى النظامات العمومية للهيئات الاجتماعية وضع عنواناً له فأسماه الجواهر السنية فى نظام الهيئة الاجتماعية وبدأ يعرض لمضمونه ومايشتمل عليه فى أربعة أعداد متفرقة من جريدة المدرسة خلال عامى ١٣١٠و١٣١١(١٨٩٣م)(٢)وفيما يبدو أن الظروف لم تتوفر له لإخراجه كتاباً مستقلا وإن كان يتضح من عرضه المسهب أنه قسمه إلى ثلاثة أبواب اختص الباب الأول بالأصول الأولية من حيث التركيز على أن الإنسان اجتماعى بطبعه وما أدى إليه تعقد المجتمع إلى تقسيم الناس إلى حكام ومحكومين(٣) . كما عنى باستعراض الأنظمة الحكومية المختلفة من جمهورية وملكية مقيدة وملكية مطلقة — بينما خصص الباب الثانى للقوة التشريعية غير أنه وقف فى عرضه لهذا الكتاب عند البابين الأول والثانى فقط . ونكاد نلمح فى هذا الكتاب بعض أفكاره الاجتماعية فهو يؤكد على أهمية الأسرة والزواج الذى يعده من أعظم العقود البشرية وأساس الاجتماع الإنسانى كما يركز على أهمية تعليم المرأة وتربيتها تربية سليمة وأنه من الواجب على المرء ألايتأهل إلابزوجة أحسن أهلها تربيتها دون مراعاة الثروة أو علو الصيت وأن من واجب رب الأسرة أن يحسن إلى أعضائها والايسىء معاملة زوجته(٤) .

كما يتضح من عرضه لذلك الكتاب اتجاهه السياسى المتعلق بأنظمة الحكم فيبدى إعجابه بالملكية المقيدة باعتبارها أكثر أنظمة الحكم انتشاراً بينما

---

(١) ظهرت جريدة المدرسة فى عام ١٨٩٢ وكانت تصدر فى اليوم الأول من كل شهر عربى فيما عدا شهرى المحرم وصفر .

(٢) وهى أعداد أول رمضان ١٣١٠ وأول جمادى الأول وذى القعدة ١٣١١ هـ

(٣) الباب الأول من كتاب الجواهر السنية فى نظام الهيئة الاجتماعية — أصول أولية، المدرسة أول شوال ١٣١٠هـ (أبريل ١٨٩٣م) .

(٤) المصدر نفسه .

يظهر عدم ميله للنظام الجمهورى ومنتقداً السلطة المطلقة لأنها قد تكون مركزاً للظلم(١) . كما يؤكد على القوة التشريعية وضرورة استقلالها استقلالا تاماً، على أنه يؤمن أن ذلك مرتبط ارتباطاً كبيراً بحضارة الأمة فتى فازت الأمة من الحضارة بالنصيب الأوفى كانت قوتها التشريعية مستقلة تمام الاستقلال وبعكس هذه الأمة التى يعم الجهل أبناءها فتستبد بها حكومة طاغية أو ملك بيديه كامل التشريع والتنفيذ ويستشهد فى ذلك بقول بعض فلاسفة اليونان بأنه ليس لأمة من الأمم أن تعد نفسها أمة إلا إذا كان لها مجلس ينوب عنها فى وضع القوانين التى تحكمها . ولا يفوته فى معرض حديثه عن القوة التشريعية أن يشير إلى الأنظمة النيابية فى مصر فى عهد الاحتلال فيعرض لمجالس المديريات ومجلس شورى القوانين والجمعية العمومية وغير ذلك من التنظيمات التى شرعت بالقانون المصرى الصادر فى مايو ١٨٨٣ ويسم هذه المجالس بالضعف لأن ما تصدره من لوائح وقوانين لا تكون تنفيذية إلا بتصديق مجلس النظار والخديوى عليها(٢) ويذهب فى تعليل ذلك أن مصر لم تبلغ من الحضارة ما بلغته الدول الأوربية والأمريكية . وفيما يبدو أن مصطفى كامل وقف فى عرض لهذا الكتاب عند هذا الحد إذ أنه لم يتعرض للقوة التنفيذية كما لم يتوفر له على الأرجح إخراج هذا الكتاب إلى حيز الوجود وإن بقيت بعض أبوابه وفصوله قائمة فى جريدة المدرسة كما سبق الإشارة إلى ذلك .

أعجب ما كان فى الرق عند الرومان (١٨٩٣) :

على أنه يطالعنا فى نفس ذلك العـــام كتابا آخر وضعه مصطفى كامل

---

(١) الجواهر السنية فى نظام الهيئة الاجتماعية ، الباب الأول . المدرسة أول ذى القعدة ١٣١٠ — الجزء الرابع .

(٢) الجواهر السنية — الباب الثانى — القوة التشريعية — المدرسة أول جمادى الأولى ١٣١١هـ.

بعنوان أعجب ما كان فى الرق عند الرومان ويبدو أنه كان مساهمة منه فى الحركة التى ظهرت فى مصر للدفاع عن الإسلام والتى كانت رد فعل لما أثاره الاحتلال البريطانى بالإضافة إلى زحف المؤثرات الغربية وكان من جراء ذلك اشتداد الحملات على الدين الإسلامى على أيدى فئات مختلفة من الأوربيين باعتباره فى نظرهم دين جامد غير قابل للاصلاح(١) كما اشتد الهجوم على الأنظمة الاجتماعية ومن بينها نظام الرق مما دفع مصطفى كامل وكان لايزال طالباً بمدرسة الحقوق الخديوية وصاحب جريدة المدرسة أن يضع كتيباً أسماه أعجب ما كان فى الرق عند الرومان ويقع هذا الكتيب فى عشرين صفحة من القطع الصغير . والكتاب على صغر حجمه إلا أنه يكفل لقارئه بيان حقيقة الاستعباد الرومانى المتباينة عما جاءت به الشريعة الإسلامية(٢) .

ويتضح من ذلك الكتاب إلمامه بأدوار التاريخ الرومانى فهو يشير إلى العهد الجمهورى والعهد القيصرى أو الإمبراطورية ثم إلى عصر انقسام الامبراطورية كما يعرض لأشهر المشرعين الرومانيين من أمثال أوليبيان وجوليان . ومن الطريف أنه يحاول التوفيق بين التواريخ الهجرية والتواريخ الميلادية حتى يصل به الأمر إلى محاولة مقابلة سنوات ماقبل الميلاد بسنوات ماقبل الهجرة النبوية .

ولعل أهم مايعنى به الكتاب توضيح القسوة التى تميز بها الرومان فى معاملتهم لعبيدهم واعتقادهم بمشروعية الرق التى كانت تقوم على أن للغالب حق قتل مالديه من أسرى وعلى ذلك فالاستعباد كان يعتبر فى نظرهم عمل خير

---

(١) أحمد عبد الرحيم مصطفى : تطور الفكر السياسى فى مصر ص ٤١

(٢) على فهمى كامل : مصطفى كامل باشا فى ٣٤ ربيعاً . سيرته وأعماله من خطب ورسائل سياسية وعمرانية ، الجزء الأول — المجلد الأول ص ١٥٥

وبر[١] . كما يعرض إلى كيفية الوقوع فى الاسترقاق[٢] والطرق المختلفة لعتق الرقيق(٢) كما يركز على القوانين العسكرية التى قد تجعل أمة كاملة عبيد حراثة(٣) وكذلك الاستعباد بالقانون المـــدنى لـكل من يرفض الخدمة العسكرية أو يتهرب من تسجيل اسمه فى دفتر تعداد النفوس أو على المدين الذى لايسدد ماعليه من دين أو اللص الذى يضبط متلبساً . كذلك يبدى تركيزاً واضحاً على منزلة العبيد فى المجتمع الرومانى وحرمانهم من كثير من الحقوق فضلا عن توقيع جزاءات مشددة على كل من يرتكب منهم ذنوباً ضد الهيئة الاجتماعية(٤) . كما يركز على أن عتق العبيد عند الرومان لم يكن عتقاً كاملا فإن العبد حتى بعد تحريره يظل أبداً راسخاً فى العبودية وذلك بحكم ما أجازه القانون الرومانى من حقوق السيد على معتوقه فعليه أن يخدمه متى دعاه كما يعد الوارث الشرعى له .

وواضح أن مصطفى كامل باستعراضه لأنظمة الرق عند الرومان كان يستهدف توضيح عمق التناقض بين هذه الأنظمة وبين ما أقرته الشريعة الإسلامية وإن كان من الملاحظ أنه لم يتعرض إلى مقارنة صريحة بين النظامين وإنما قصر اهتمامه على أنظمة الرق عند الرومان تاركا للقارىء أن يقارن بنفسه مدى الفرق الشاسع لما هو عليه الرق فى الإسلام وبين ما كان عليه الرق عند الرومان إذ أن لكل أمة عوائد تختلف وأخلاق تميزها عن غيرها(٦) .

---

(١) أعجب مما كان فى الرق عند الرومان ، انظر الفصل الأول من البـاب الاول (الرق والعبيد) .

(٢) الفصل الثانى من الباب الأول .

(٣) انظر الفصل الأول من الباب الثانى (فى الأحرار) .

(٤) انظر الفصل الأول من الباب الثالث (عبيد الحراثة) .

(٥) انظر الفصل الثالث من الباب الأول .

(٦) على فهمى كامل — مصطفى كامل فى ٣٤ ربيعاً ، حـ١ ص ١٥٥

رواية فتح الأندلس (١٨٩٤) :

ومايستلفت النظر اتجاه مصطفى كامل بعد هذه الأبحاث القانونية والاجتماعية إلى وضع رواية تمثيلية عن الفتح العربى للأندلس وقد نشرت هذه المسرحية فى جريدة المؤيد(١) ثم ظهرت فى كتاب مستقل بها فى عام ١٨٩٤ وقد طبعت طبعة حديثة فى السنوات الأخيرة . ويبلغ عدد صفحاتها ٧٣ صفحة من القطع الصغير كما تحتوى على خمسة فصول تتضمنها بعض أبيات شعرية من نتاجه . وقد طلب من المسارح العربية أن تمثلها ولكنه لم يلق استجابة إذ أن العاطفة الوطنية لم تكن قد استيقظت بعد فى النفوس فتعللت الكثير من هذه المسارح بصغر حجمها ، ويبدو أن ذلك مادفعه إلى التفكير فى تكبيرها بأن يضيف إليها مزيداً من العبر والعظات ولكنه لم يلبث أن ترك ذلك التفكير جانباً لأنه كان إذ ذاك مشتغلا بما هو أهم وأكبر من ذلك . على أن هذه الرواية لقيت انتشاراً سريعاً فقد وزع منها ستة آلاف نسخة فى وقت أهملت فيه آثار العرب وكسدت فيه صناعة الأدب(٢) وتتضمن هذه الرواية الفتح العربى للأندلس ومالابسه من دسائس ظهرت فى محاولة بعض الدخلاء إثناء المسلمين عن فتحهم ومنع وقوع الحرب(*) بسعيهم فى

---

(١) المؤيد ١٨ ديسمبر ١٨٩٣

(٢) على فهمى كامل : مصطفى كامل فى ٣٤ ربيعا ، الجزء الثانى ص ص ١٦٤ — ١٦٦

(*) تتلخص أحداث هذه الرواية فى محاولة فتاة من القسطنطينية تدعى مريم بمساعدة صديق لها التأثير على الوزير عباد — وهو من أصل رومى — لكى يثنى الأمير موسى بن نصير أمير القيروان عن فتح الأندلس ، ولكن الأمير يصر على ضرورة الفتح ويدعو طارق بن زياد لقيادة الجيش فتتكرر محاولات الدس والخيانة ومحاولة إثارة روح الهزيمة بإشاعة مقتل طارق وضرورة إرجاع الجيش ، ولكن الأمير موسى بن نصير يصر على الذهاب بنفسه إلى الأندلس وفى خلال ذلك تصل رسالة من طارق بن زياد يبشر فيها المسلمين بالنصر فتنكشف الخيانة والخديعة .

الوصول إلى القائمين على السلطة ومحاولتهم جذبهم إلى مخططاتهم وتدبير المكان لإشاعة الفرقة فى صفوف الجيش بدعوى أن الحرب لن تكون بين المسلمين وسكان الأندلس فحسب بل مع جميع الافرنج ، كما يكشف فى هذه الرواية عن أن خداع المرأة قد يكون سبباً فى تعود أمه وقيام أخرى ومن جانب آخر فهو يتناول فضل الصدق والأمانة والثبات وقوة العزم والإرادة وهى الصفات التى كانت أكبر عضد للفتح العربى[١] .

وتركز رواية فتح الأندلس على التذكير بمجد الأمة العربية وعلى التنبيه إلى خطر محدق هو خطر وجود دخلاء الشر ووسطاء السوء فإنهم قديماً وحديثاً أصل من أصول المصائب الكبيرة[١]. ويتضح من هذه الرواية موقف مصطفى كامل إزاء الدخلاء ولا يعنى ذلك موقفه إزاء الأجانب فقد كان كثيراً ما يصرح بأن للأجانب والمصريين مصلحة واحدة فى منع البريطانيين من الاستيلاء على كل شىء فى مصر وأن الأجانب ينفعون مصر منفعة حقيقية إذ هم طلائع المدنية الغربية فيها وضمان التقدم والرفاهية ولكن موقفه كان يتغير كلما تحدث عن فريق خاص من الأجانب ممن سماهم بالدخلاء الذين كانوا فى اعتقاده يساعدون السلطة المحتلة ويسيئون الوساطة بين المصريين وغيرهم فيجنون على مصر جنايات متكررة فهؤلاء فى نظره هم الأعداء الذين لم يبادلوا كرم مصر وضيافتها إلا بالعقوق والكراهية[٢] فهو يصرح فى تقديمه لهذه الرواية أنه يستهدف بها أن يظهر لقومه دسائس الدخلاء على الأمم[٣] كما قصد بها أيضاً تربية الأمة على الفضائل الوطنية فإن أجدر المؤلفات فى رأيه

---

(٤) عبد الرحمن الرافعى : مصطفى كامل ص ٢٨

(١) على فهمى : مصطفى كامل جـ٢ ص ص ٢٥٦ — ٢٦١

(٢) حورانى — الفكر العربى فى عصر النهضة ص ٢٥١

(٣) على فهمى — المصدر سبق ذكره جـ٢ ص١٦٧

هو ما يهدى الأمة إلى طريق الخير ويبعدها عن سبيل الغى[1] . وعلى الرغم من أننا نجد فى هذه الرواية تأكيداً منه على مجد الأمة العربية وبيان فضائلها إلا أن ذلك لا يعنى اتجاه فكره السياسى اتجاهاً عربياً خالصاً .

رسالة الى الجمعية الوطنية الفرنسية(١٨٩٥) :

على أن دور مصطفى كامل السياسى فى الدفاع عن القضية الوطنية قد بدا أكثر وضوحاً منذ عام١٨٩٥ بمناشدة الضمير الليبرالى فى العالم وعلى الأخص فى فرنسا حيث كان يحسبه حياً أكثر من أى مكان آخر إذ كانت فرنسا غريمة لانجلترا ومهداً للثقافة الأوربية كما عرفها وأم الثورة الفرنسية وكان أول عمل رسمى قام به فى هذا السبيل رسالة قدمها فى ذلك العام إلى الجمعية الوطنية الفرنسية يطلب فيها مساعدة فرنسا لمصر فى تحقيق استقلالها وقد أرفقها بصورة رمزية تمثله ووراءه شعب مصر يقدم طلبه إلى فرنسا التى أعلنت حقوق الإنسان ودعت إلى التقدم والمدنية وحررت عدداً كبيراً من الأمم[2] .

ومما يذكر أنه تعرض لحرب نفسية قاسية فقد ذكرت صحيفة المقطم أن الصورة التى قدمها كانت من خيال المسيو دولنكل ورسمها بعض مصورى باريس ورفعها أحد غلمان المصريين إلى رئيس مجلس نواب فرنسا[3] وكان دلونكل صحفياً مشهوراً وعضواً فى البرلمان الفرنسى عن الحزب الاستعمارى ومن أشد أعداء بريطانيا وكان لذلك يتبنى الدفاع عن القضية المصرية أو على

---

(١) عبد الرحمن الرافعى — مصدر سبق ذكره ص ٢٨ — انظر تقديم مصطفى كامل لرواية فتح الأندلس .

(٢) حورانى : الفكر العربى فى عصر النهضة ص

(٣) رسائل تاريخية من مصطفى كامل الى فؤاد سليم الحجازى قدم لها عبد العزيز حافظ دنيا — القاهرة ١٩٦٩ ص ٢٨

وجه أدق مهاجمة الاحتلال البريطانى وقد زار مصر فى عام ١٨٩٤ واتصل بالخديو عباس حيث أوكل إليه الدفاع عن القضية المصرية وكان على مصطفى كامل أن يتعاون معه فى باريس ولكن سرعان ماتبين له أن دلونكل لا يرضى عن وجوده ظهر ذلك فى قضية التضييق عليه وإثارة المتاعب أمامه فى فرنسا وفى أوساط الرأى فى مصر(١) .

اخطار الاحتلال الانكليزى لمصر :

ولعل الخلاف بين مصطفى كامل ودلونكل هو الذى دفع به إلى محاولة الاتصال بالسيدة جوليت آدم(٢) . وقد تم التعارف بينهما بعد أن نشر كتيباً باللغة الفرنسية فى ١٤ أغسطس ١٨٩٤ بعنوان أخطار الاحتلال الإنكليزى لمصر وقد أرسل لها من تولوز أولى رسائله إليها فى ٢٤ سبتمبر ١٨٩٥ وأرفق معها كتيبه هذا وفيه حاول أن يوضح أن خطر الاحتلال ليس خطراً على حقوق مصر فحسب وإنما على المصالح الأوربية بصفة عامة وبالتالى فانه كان يستهدف من وضع هـــذه الرسالة تفهيم الذين لا يبدون اهتماماً بالقضية المصرية أن بقاء الإنجليز فى مصر مضر بالسلام العام(٣) . فهو يظهر خطر الاحتلال على العالم أجمع ويوضح النتائج التى يمكن أن تترتب على بقاء الإنجليز فى مصر وبالتالى يمكنه أن يكتسب إلى القضية المصرية السياسية الذين يهتمون بالسلام العام(٤) .

---

(١) محمد أنيس : صفحات مطوية من تاريخ الزعيم مصطفى كامل — رسائل جديدة لمصطفى كامل — من ٨ يونيه ١٨٩٥ إلى ١٩ فبراير ١٨٩٦ ص ١٧

(٢) المصدر السابق ص ١٧

(٣) من مصطفى كامل إلى عبد الرحيم أحمد بك — باريس ١٤ أغسطس ١٨٩٥ صفحات مطوية ص٤٦

(٤) من مصطفى كامل إلى عبد الرحيم أحمد بك — ١٥ / ٨ / ١٨٩٥ — محمد أنيس : صفحات مطوية ص ٥٦

ومن الثابت أنه كان يأمل ترجمة هذه الرسالة إلى الإنجليزية والألمانية وإرسالها إلى أعضاء البرلمان الإنجليزى والنمساوى والألمانى ولكن المال أعوزه إلى ذلك(١) . وعلى أى حال فقد استطاع أن يبعث بهذه الرسالة إلى كثير من رجال السياسة فى أوربا وأصحاب الصحف الشهيرة وقد لقيت اهتماماً لدى كثير من السياسيين فى فرنسا وفى غيرها . وقد نشرت جريدة المؤيد تعريباً لها(٢) وفى هذه الرسالة قال عبارته المشهورة عن مصر ومعاملتها لنزلائها الأجانب « أحرار فى بلادنا كرماء لضيوفنا » ، والرسالة رغم صغر حجمها إذ لا يتجاوز عدد صفحاتها الاثنتى عشرة صفحة ، إلا أنها تتضمن شرحاً وافياً للمسألة المصرية كما تدل على نضجه الفكرى وبعد نظره السياسى ففى تعليق لمدام جوليت آدم على هذه الرسالة فى جريدة البتى مرسيليه بتاريخ ١٧ سبتمبر ١٨٩٥ ذكرت أن أخطار الاحتلال الإنجليزى لمصر علم على رسالة كتبها مصرى وطنى يحب بلاده حباً شديداً وقد جاء ليدافع عنها إذ رآها فريسة أغراض الأجنبى وأودع هذه الرسالة كل ما ينتجه الفكر السليم والتبصير القائم على أدلة وحجج تفحم الذين جعلوا العمى مذهباً لهم . وتعترف جوليت آدم أنها قرأت منذ موقعة التل الكبير جميع ما كتب عن مصر فى انجلترا وفرنسا ومصر نفسها فلم تر المسألة المصرية موضوعة أحسن من هذا الوضع ولا مستنتجة نتائجها أحسن من هذا الإيضاح ولا مرتبة أجمل من هذا الترتيب ولا مبسوطة بتعقل وتدبر مثلما بسطت فى هذ الرسالة(٣) . كما اعترفت فى مقالة لها عن المسألة المصرية فى ٥ سبتمبر ١٨٩٥ أنها اقتبست من رسالة مصطفى كامل أسانيد جديدة فى المسألة المصرية التى كان قد سبق لها الخوض فيها كثيراً .

---

(١) من مصطفى كامل إلى عبد الرحيم أ ، — باريس ٢٣ / ٨ / ١٨٩٥ — محمد أنيس — صفحات مطوية ص ٥٨

(٢) المؤيد — رسالة أخطار الاحتلال الانكليزى ١٨٩٥/٨/٢٨

(٣) عبد الرحمن الرافعي : مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية ص ص ٥٥/٩٦

وقد حاول مصطفى كامل فى رسالته إثارة الدول الأوربية ضد السياسية البريطانية فى مصر وتوضيح الآثار الخطيرة التى قد تنتج عن بقاء الإنجليز إذ أن وراء المسألة المصرية مسائل سياسية كثيرة بمعنى أنه إذا امتلكت انجلترا مصر صار البحر المتوسط بحيرة انجليزية وضاعت الموازنة بين الدول الأوربية ، كما أنه إذا امتلكت انجلترا وادى النيل فستصبح المستعمرات الأوربية فى إفريقية عديمة النفع وسيؤدى ذلك بدوره إلى إخلال التوازن الدولى فى إفريقيا كما أنه يمكن لانجلترا أن تغلق قناة السويس فى وجه الدول الأوربية وتفصل بينها وبين مستعمراتهـا الآسيوية كما أنه إذا استقرت الأوضاع لانجلترا فى مصر صار من المستحيل على الأوربيين القاطنين فيها أن يعيشوا بها لأن انجلترا سوف تستأثر بمصر وبخيراتها على أبنائها وتغلقها على غيرهم .

المسألة الشرقية (١٨٩٨) :

وقد عاد إلى تفصيلات ذلك فى القسم الذى خصصه لمصر فى كتابه عن المسألة الشرقية الذى يعتبر من أهم مؤلفات مصطفى كامل إذ وضحت فيه إلى حد كبير مبادؤه السياسية وقد جمع مادة هذا الكتاب من حقائق مبعثرة فى المراجع الرسمية والمظان السياسية كما استعان فى تأليفه على ما حصل عليه من الكتب التى تبحث فى هـذا الشأن وما أتيح له أن يقتنيه من مذكرات السياسيين الذين قابلهم أو حادثهم[٢]. وقد نشر هذا الكتاب فى أبريل ١٨٩٨ بمناسبة انتصار الدولة العثمانية فى حربها مع اليونان ويقع الكتاب فى جزئين الجزء الأول يحتوى على ٢٧٠ صفحة والثانى ٢٥٠ صفحة وواضح أن انتصار

---

(٣) المصدر السابق ص ص ٥٨/٥٩

(١) مصطفى كامل : المسألة الشرقية ، انظر مصطفى كامل فى ٣٤ ربيعا ح ٦ ص ٢٤٣

الدولة العثمانية هو الذى دفعه إلى وضع ذلك الكتاب أو على الأحرى تلك الدراسة المستفيضة التى اهتم فيها بدراسة مشكلات الدولة العثمانية مع تأكيد إيمانه بحيويتها وبمقدرتها على تجديد شبابها ، ولذلك نجده يقرر أن ما اتفق عليه الكتاب على ضرورة التخلص من الدولة العثمانية منذ مائه وعشرين عاما أصبح أمرا يثير التهكم لأنها استمرت قائمة تحارب فى أواخر القرن التاسع عشر وتنتصر وتجتاز العقبات[1] والصفة الغالبة على هـــذا الكتاب هى محاولته الدفاع عن الدولة العثمانية فهو يؤكد أنها تركت للمسيحيين حرية معتقداتهم وتقاليدهم كما أنها عينت الكثيرين منهم فى المناصب الكبيرة وكان فى إمكانها يوم كانت دولة قوية أن تجبر كل المسيحيين فى بلادها على اعتناق الإسلام ولكنها قبلت تعايش المسيحيين ومن المؤسف أن هذه الفضيلة كانت أكبر سبب لكل ما لحق بها من الضرر فاحترامها لعقائد المسيحيين أقام أمامها بعض دول أوربا التى تداخلت بحجة الدفاع عنهم على حين أن المسيحيين لا ينقصون عن المسلمين فى حسن المعاملة[2] . كما يتحدث فى ذلك الكتاب عن رفاهية الشعوب الخاضعة للدولة وتمسكها بالنظام وحسنات الإدارة العثمانية وعدم تعصب ساستها، وهى أمور نفرت منه بعض المفكرين العرب . وقد عنى بتوضيح الأدلة على تعصب الغرب على الشرق وعدوانه وأن المدنية الأوربية ليست إلا عداء للانسانية فى مظاهر شتى[3] وأن الدول التى تنازع الدولة العثمانية وجودها لا تعاديها باسم الدين فقط بل طمعا فى نوال شىء من أملاكها، ولا يستخدم الدين إلا سلاحاً لنوال غرض

---

(١) المسألة الشرقية حـ ١ ص ١٤

(٢) المسألة الشرقية حـ١ ص ٧/٨

(٣) المسألة الشرقية حـ ١ ص ٢٤٣

جوهرى فهو ستار تختفى وراءه أغراض شتى(١) ،ومن الطريف أن مصطفى كامل يضرب المثل باليهود فى أنهم لا يثورون ولا يهيجون ولا يتألمون بل يحمدون الدولة العثمانية ليلا ونهارا وما ذلك إلا لأنه لايوجد فى الدول الأوربية دولة تدعى الدفاع عنهم(٢) ! . كما أكد فى سبيل دفاعه عن الدولة العثمانية أن بقاءها أمر ضرورى للجنس البشرى وسلامة لأمم الغرب والشرق وزوالها يكون جلبة للأخطار ؛ فإن هدم هذه المملكة القائمة بأمر الاسلام يكون داعية لثورة عامة من المسلمين وحرب دموية لا تعد بعدها الحروب الصليبية إلا معارك صبيانية(٣) . وأكد على ضرورة التفاف المسلمين حول عرش السلطان وأن هذا الالتفاف مهم لمصر بنوع خاص لأن الدول الكبرى لا تستطيع ما دام السلطان سيدا أن تفعل بها ما تريد ، وعلى الذين يريدون أن تكون مصر مستقلة أن يساعدوا على ابقاء تركيا مستقلة(٤) ، كما يعنى فى كتابه بتوضيح العلاقة القائمة بين سياسات الدول والحركات الداخلية فى الامبراطورية العثمانية مشددا على الأخطار الناجمة عن الاستغلال البريطانى لتلك الحركات مؤكدا أن بريطانيا هى عدوة العثمانيين من مسلمين ومسيحيين على السواء(٥)،وأنه كان من الواجب على بريطانيا التى تدعى محبة المسيحيين فى الشرق أن تصافى الدولة حتى تنال منها مبتغاها بشأن المسيحيين(٦). وأكد أن ميل السلطان عبد الحميد إلى الجامعة الإسلامية يحول بين بريطانيا وبين أمانيها فى هدم الدولة العثمانية وايجاد الشقاق بين المسلمين ولذلك هاجم

---

(١) المسألة الشرقية جـ١ ص ٣

(٢) المسألة الشرقية جـ١ ص٨

(٣) المسألة الشرقية جـ ١ ص ١٦

(٤) حورانى : الفكر العربى فى عصر النهضة ص ص ٢٤٦/٢٤٧

(٥) المصدر السابق ص ٢٤٦

(٦) مصطفى كامل : المسألة الشرقية جـ١ ص ص ٩ — ١١

المستر بلنت الذى كان قد وضع كتابا قبل احتلال الانجليز لمصر أسماه مستقبل الإسلام قرر فيه أن هدم السلطنة العثمانية لا يضر بالمسلمين؛ داعيا إلى خلافة عربية مقرها مكة وأن الخليفة ينبغى أن يكون رئيسا دينيا لا ملكا دنيويا مؤكدا أن فكرة الخلافة العربية ليست إلا خطة بريطانية تستهدف نقل الخلافة إلى أيدى رجل يكون تحت وصاية الانجليز ولعبة فى أيديهم ومن ذلك كان هجومه على كتاب بلنت الذى اعتبره نشرة دعائية للسياسة البريطانية(١) . ويبين فى كتابه صداقة بريطانيا للدولة العثمانية التى لم تستفد الدولة منها شيئاً وعلى العكس من ذلك اكتسبت بريطانيا من هذه الصداقة الكثير من المكاسب المادية فضلا عن النفوذ عند المسلمين وضمان سيطرتها على مسلمى الهند، فلقد كاد الهنود يطردون الإنجليز من بلادهم فى ثورة ١٨٥٧ لولا صداقة انجلترا للدولة العثمانية التى حملت السلطان عبد المجيد الأول على إصدار منشور لمسلمى الهند يطلب فيه منهم الركون إلى السكينة ، بينما كانت انجلترا خادعة فى صداقتها للدولة فقد أخذت منها قبرص بدعوى مساعدتها ضد الروسيا فى مؤتمر برلين على حين دخلت الدولة العثمانية المؤتمر وخرجت منه دون أن تستفيد من صداقة انجلترا شيئاً بل إنها فقدت الكثير(٢) .

وبينما نجد شدة هجومه على السياسة البريطانية فإنه حاول تخفيف ذلك الهجوم على الدول الأوروبية الأخرى الطامعة فى الدولة العثمانية مؤكداً أن هذه الدول لن تنال من معاداتها للدولة إلا الشر الوبيل فتهييج النمسا لشعوب البلقان باسم الجنس كان وبالا عليها، كما أن تهييج روسيا لهذه الشعوب باسم العقيدة الأرثوذكسية أدى إلى خروج كثير منها من سلطة الدولة حيث وقعت فى عداء بينها وبين بعضها وكذلك مع روسيا . وواضح أن مصطفى كامل

(١) حورانى — الفكر العربى فى عصر النهضة ص ٢٤٦ .

(٢) مصطفى كامل — المسألة الشرقية جـ١ ص ص ٣٦/٣٧ .

كان يحاول استمالة كثير من الدول الأوربية وعلى الأخص روسيا إلى جانب الدولة العثمانية إذ كان يأمل أن التحالف الفرنسى الروسى الذى وقع فى عام ١٨٩٣؛ من الممكن أن يجر روسيا إلى مشاركة فرنسا فى معارضتها الاحتلال البريطانى لمصر فهو يقرر أن معاداة روسيا للدولة العثمانية لم يفد إلا انجلترا(١) وأن محاربة روسيا للدولة العثمانية يضعف من قواها فلا تستطيع مطاردة انجلترا فى الهند والشرق، كما يؤكد أن روسيا بعد حربها مع تركيا فى عام ١٨٧٧ أدركت أنها لا تستفيد شيئاً من حروبها ضد الدولة العثمانية.

وقد يكون من المناسب بعد أن عرضنا للأفكار العامة التى تضمنها كتابه أن نأتى على خلاصة موجزة للخطة التى سار عليها فى وضعه لذلك الكتاب فهو يعرض لتطور المسألة الشرقية منذ أن وطأت أقدام الأتراك أوربا حتى أواخر القرن التاسع عشر فيلم إلمامة سريعة بالمسألة الشرقية فى القرن الثامن عشر وإن كنا نجده يركز بصفة خاصة على الحروب التى قامت بين روسيا والدولة العثمانية ١٧٦٨/١٧٧٥ والتى يعتبرها أصلا لتداخل أوربا فى شئون الدولة العثمانية باسم الدين(٢). ثم يعرض بعد ذلك بكثير من التفصيل والدراسة للمسألة الشرقية فى القرن التاسع عشر مقسما إياها إلى سبع أزمات يبدأها باستقلال اليونان عام ١٨٢١ ويدين فيها روسيا إثارتهـــا الأزمة اليونانية وانجلترا لتظاهرها بمساعدة الدولة العثمانية كما يهاجم اللورد بايرون الشاعر البريطانى المشهور الذى تغنى بمجد اليونان، وغيره من الكتاب الذين دافعوا عن اليونانيين باسم الدين المسيحى مستنداً فى هجومه هذا على ماقرره كتاب آخرون من بينهم الفريد ميتر الذى وضع كتاباً عن استقلال اليونان أفصح فيه عن أمور تشرف الدولة العثمانية وتزيد من علو شأنها(٣) ثم يعرض بعد

---

(١) المسألة الشرقية حـ١ ص ص ١٨/١٩ .

(٢) المسألة الشرقية حـ١ ص ص ٣١/٣٦ .

(٣) المصدر السابق ص ص ٧٤/٧٩ .

ذلك للأزمة الثانية وهى مسألة الشام بين مصر والدولة العلية ويرى أن هذه الأزمة المشئومة ينبغى أن تكون درساً أبدياً للعثمانيين والمصريين بل لسائر المسلمين فإن الخلاف كان سعياً لمصائب تساقطت على مصر والدولة العلية وينفى مصطفى كامل الرأى القائل بأن محمد على كان يأمل القبض على زمام الخلافة والسلطنة إذ أن أقصى ما كان يتطلع إليه أن يحكم الشام مع مصر مستنداً فى رأيه هذا على مراسلات محمد على مع لويس فيليب ملك فرنسا خلال وقوع الأزمة(١) .

ويخصص الأزمة الثالثة لحرب القرم الذى يعرض فيها للخلاف بين الكاثوليك والأرثوذكس وماتبعه من خلاف بين فرنسا وروسيا معتبراً ذلك الخلاف دليلا على أن الأماكن المقدسة ينبغى أن تكون فى أيدى الدولة العثمانية لأنها الوحيدة التى تستطيع أن تحفظ التوازن بين جميع الديانات(٢) ، ويتعرض فى الأزمة الرابعة إلى الحرب الروسية التركية ١٨٧٧ ثم يتابع حديثه عنها فى الجزء الثانى من كتابه مؤكداً أثر هذه الحرب فى التقارب الذى حدث فى أعقابها بين روسيا والدولة العثمانية وازدياد هذا التقارب كلما ازداد العداء بين الدولة العثمانية وانجلترا ويثنى على موقف روسيا إزاء الدولة العثمانية خلال وقوع الأزمة الأرمينية وتشوب الحرب بين اليونان والدولة العثمانية .

مما يستلفت النظر أنه قد فات على مصطفى كامل تحليل الموقف الأوربى أو على وجه التحديد تحليله للتحالف الذى كان قائماً بين النمسا وألمانيا إذ أن قيام هذا التحالف الثنائى هو الذى أدى إلى تبـــدل موقف روسيا بمعنى أن توقفها عن نشاطها فى البلقان لم يكن جنوحا منها إلى التقارب مع الدولة العثمانية

---

(١) المصدر السابق حـ١ ص ص ١٤٩/١٥١ .

(٢) المسألة الشرقية حـ١ ص ٢٠٣ .

- وهو ما أكده مصطفى كامل -- بقدر ما كان تخوفاً من إثارة النمسا صاحبة المصالح فى البلقان وبالتالى انحياز ألمانيا لها عملا بنصوص المحالفة الثنائية .

أما الأزمة الخامسة فيخصصها لدراسة المسألة المصرية فيبدأها بالديون والتدخل الأجنبى فى عهد الخديو إسماعيل ثم شراء انجلترا أسهم القناة ونفاذها إلى السودان ، ويوضح موقفه من الثورة العرابية التى كان يمكن فى اعتقاده أن تعود على مصر بالفوائد والتقدم السريع لولا الشقاق والطمع والجهل والدسائس مؤكداً أن عرابى لم يكن خائناً لوطنه وأن غاية ما يؤخذ عليه أنه تعجل كثيراً وانخدع أكثر(١) . وأنه لولا الشقاق بين العرابيين والخديو وبين السلطان والخديو ما وثقت الدولة العثمانية بانجلترا وما شجعت العرابيين وما لجأ توفيق إلى الإنجليز(٢) ، ورأى أن الاحتلال البريطانى ما كان ليحدث إلا بسبب سوء العلاقات بين السلطان والخديو فضلا عن الانشقاق داخل المعسكر المصرى الذى شجع عليه البريطانيون أنفسهم وبالأخص الانشقاق بين الجراكسة والمصريين ذلك الانشقاق الذى لم يكن له داع مادام كلا الفريقين مصريين بالفعل(٣) وهكذا يصل إلى التأكيد القاطع بأنه لا يمكن اعتبار الجراكسة الذين قضوا فى مصر طول حياتهم واستوطنوا البلاد وتناسلوا فيها أجانب عنها بل هم فيها مصريون لافرق بينهم وبين سلالة الفراعنة الأقدمين(٤) وواضح من ذلك أن مصطفى كامل كان يعتقد أن الوحدة الوطنية لاتقوم على اللغة والدين بقدر ماتقوم على الشعور والإحساس بالانتماء إلى أرض مصر وماضيها العظيم . ثم يعرض بعد ذلك للاحتلال البريطانى لمصر ويكرر ماذكره فى رسالته عن أخطار الاحتلال فى

---

(١) المسألة الشرقية حـ٢ ص ٢١٢ .

(٢) المسألة الشرقية حـ٢ ص ٢١٤ .

(٣) حورانى : الفكر العربى فى عصر النهضة ص ٢٤٧ .

(٤) مصطفى كامل : المسألة الشرقية حـ٢ ص ١٢ .

أن وراء المسألة المصرية مسائل سياسية ودولية كثيرة . وأخيراً يخصص الأزمتين السادسة والسابعة لمشكلات البلقان بما فيها المشكلات البلغارية واليونانية والأرمينية محملا انجلترا مسئولية الذين ماتوا ضحية لسياستها وفريسة لأغراضها ، وبذلك فهى عدوة المسيحيين فى الشرق(١) .

وفيما يبدو أن مصطفى كامل كان يريد معالجة تاريخ الحرب اليونانية العثمانية فى كتاب مستقل اختار له عنواناً بالفعل باسم تاريخ الحرب بين الدولة العلية واليونان غير أننا لم نعثر على ذلك الكتاب وكل ماوجدناه هو ملحق يتضمن عشر لوحات مصورة للجنود العثمانية والوحدات المختلفة من بيادة وخيالة إلى جانب صور لقواد الجيش العثمانى . وقد صدر هذا الملحق بالفعل بعنوان صور الجنود العثمانية المظفرة، ذكر على غلافه أنه ملحق لكتاب تاريخ الحرب بين الدولة العلية واليونان تأليف مصطفى كامل(٢)، والثابت أنه كان معتزماً تأليف كتابا بهذا الاسم غير أنه رأى أن يتوسع فى دراسته فأخرج كتابه عن المسألة الشرقية بصفة عامة .

الشمس المشرقة (١٩٠٤) :

وفى يونية عام ١٩٠٤ صدر كتابه الشمس المشرقة عن اليابان ويقع هذا الكتاب فى مائتى وعشرين صفحة ، وقد حاز على شهرة واسعة حتى أنه يعد أشهر مؤلفاته على وجه الإطلاق . وكانت مناسبة تأليفه لذلك الكتاب ماحققته اليابان من انتصارات مذهلة على روسيا خلال حربها معها ، وما ظهر فى هذه الحرب من عظمة اليابان التى بهرت العالم بتقدمها ووطنيتها ولعله قصد من وضعه لهذا الكتاب أن ينظر المصريون بعين الاعتبار إلى الأمة

---

(١) مصطفى كامل : المسألة الشرقية جـ٢ ص٢٤٦ ، انظر الأزمة السادسة ، المسألتين البلغارية واليونانية ١٨٨٥/١٨٨٧ ، والأزمة السابعة عن المسألة الأرمينية .

(٢) صور الجنود العثمانيين المظفرة ، وهو ملحق لكتاب تاريخ الحرب بين الدولة العلية واليونان ، تأليف مصطفى كامل .

اليابانية التى لم تكن شيئاً مذكوراً ثم صارت بفضل اتحادها ووطنيتها موضع إعجاب العالم. ولاشك فى أن اهتمام مصطفى كامل باليابان مما يؤكد لنا أنه كان يرى فيما وراء العالم الإسلامى شيئاً آخر عالم الشرق بكامله الذى توحده مقاومة التوسع الأوربى والحاجة إلى قبول المدنية الحديثة . كما أحيا انتصار اليابانيين فى نفسه الأمل فى أن الشرق لم يمت(١)، وأن يحدث هذا الانتصار انقلاباً عاماً ويبعث فى أمم الشرق روحاً جديدة ويجدد للإسلام حياة كبرى(٢) .

وربما يتضح لدينا الهدف من وضعه لذلك الكتاب فى رسالة بعث بها إلى مدام جوليت آدم مؤرخة فى ٢٨ مارس ١٩٠٤ يقول فيها « إننى أبذل الآن جهدى فى وضع سفر عربى عن اليابان ورقيها الحديث ووطنيتها لأننى أريد ان أبين للشعب كيف يرقى وأشجعه فى مجهوداته الحاضرة » ، كما يطلب منها فى نفس الرسالة أن تكتب إليه ببيان الكتب والمصادر التى يمكن أن تفيده فى دراسته وكذلك ماصدر من مقالات فى الجرائد الأوربية عن الوطنية اليابانية(٣) .

فى هذا الكتاب نلمح تحامله الواضح على روسيا على عكس ما رأيناه فى كتابه عن المسألة الشرقية بعد أن فقد أمله فى أن يؤدى التحالف الفرنسى الروسى إلى الضغط على بريطانيا خاصة بعد أن وقعت فرنسا الاتفاق الودى مع انجلترا وحلت الهزيمة بروسيا، ويظهر تحامله على روسيا فى رسالة له إلى مدام جوليت يعلل فيها سبب اعجابه باليابان فيذكر لها أنها لو نظرت فى المشكلة بنظر المصرى المسلم لوجدت أن بين الشعبين المتقاتلين روسيا واليابان شعبا لم يسىء إلى مصر ولا الإسلام وهو الشعب اليابانى وآخر على الضد من ذلك

(١) البرت حورانى : الفكر العربى فى عصر النهضة ص ٤٨ .
(٢) مصطفى كامل : الشمس المشرقة ص ٢١ .
(٣) مصطفى كامل إلى جوليت آدم ٢٨/٣/١٩٠٤ رسائل مصرية فرنسية .

فإنه ضرب مصر يوم سعود محمد علي باحراقه أسطولها متفقا في ذلك مع انجلترا التي ديدنها الخداع وفرنسا التي دأبها الانخداع وعدا ذلك فإنه جلب على الإسلام والأمة الإسلامية أكبر الأخطار، وعندما تجيبه مدام جوليت وتسأله عن أن اليابان تحالفت مع بريطانيا، يؤكد لها أن التحالف بين اليابان وانجلترا ليس هو التحالف الذي يقضي على استقلال بلادي بل إن الذي يقضي على هذا الاستقلال هو التحالف بين انجلترا الغادرة وفرنسا ، فملام إذن أكون ضد اليابانيين مع أنني مغرم بالوطنية وأجد عند هؤلاء القوم أجمل مثال للوطنية، وكيف لا أحب الشعب الياباني وهو ذلك الشعب الشرقي الوحيد الذي ألزم أوربا حدودها ؟ ! [1] .

وقد عاد مصطفى كامل لتوضيح آرائه هذه في كتابه بصورة مسهبة فيبدى اعجابه بالشعب الياباني الذي انتصر على روسيا التي طالما اعتدت على بلاد المسلمين وكانت أول معول لتجزئة الدولة العثمانية ، ومن ناحية أخرى ، فلو نظرنا إلى العدل نرى أن اليابانيين محقين فإن روسيا لم تكتف بسعة بلادها التي تغنيها عن كل استعمار بل طوحت بنفسها في الشرق الأقصى وأخرجت من كثير من المواقع التي كانت قد تنازلت لها الصين عنها بمقتضى معاهدة الصلح في عام ١٨٩٥ [2] .

وفي عرضه لتاريخ اليابان يحاول أن يتخذ من ذلك التاريخ مثالا يدعو فيه المصريين إلى التشبه به والاهتداء بهديه(٣) فهو يذكر في استهلاله لهذا الكتاب إن أفضل ما يربي الأمم ويرشدها إلى طريق الحضارة والمدنية والرفعة

---

(١) مصطفى كامل الى جوليت آدم ٩ يونيه ١٩٠٥ ، رسائل فرنسية ص ص ٣٠٤/٣٠٥ .

(٢) مصطفى كامل : الشمس المشرقة ص ص ١٩/٢١ .

(٣) محمد ناصف ومحمد صالح زهير : النبذة التاريخية لفقيد الإسلام والوطنية ص ١٢ .

شرح الأسباب التى دفعت بغيرها إلى غايات ووضعت على رأسها تاجاً من العظمة والمجد ، وضرب الأمثال لأبنائها بأمثالهم الذين لم تقعدهم حادثة عن النهوض ولم يملأ اليأس قلوبهم لمصاب أهلى أو خيبه وطنية(١) . فاليابان قامت مكذبة الدعوى التى ترددت بأن أمم الشرق انقضى دورها ومحا الزمان وجودها السياسى وليس فى وسعها التسلح بمدنية الغرب ومقاومته بها، ويكرر عبارته المأثورة لامعنى للحياة مع اليأس ولامعنى لليأس مع الحياة(٢) .

ويشتمل الكتاب بعد هذا الاستهلال على مقدمة مفصلة حاول فيها المقارنة بين الأمة المصرية واليابانية فيتخذ من تاريخ افتتاح قناة السويس ١٨٦٩ معلما بارزا لضياع مصر وعظمة اليابان . ومن المؤكد أنه خلال وضعه لذلك الكتاب كان التوتر قائما بينه وبين الخديو عباس فهو يؤكد أن الأسباب التى قضت على مصر ترجع فى رأيه إلى السلطة المطلقة واستخدام الحكام والأمراء أهوائهم النفسية ومطامعهم الشخصية ،على أن مصطفى كامل لم يكن يعارض السلطة المطلقة معارضة تامة وإنما كانت معارضته لتلك السلطة إذا ضلت طريقها فهى يمكن أن تخرب فى يوم واحد ما يعمر فى قرون أما إذا وجهت للخير فهى تبنى فى يوم واحد ما لا تبنيه حكومات الدستور فى سنين وأعوام،وكما أنها فى الحالة الأولى أضاعت مصر فإنها نهضت باليابان(٣) كما يقارن بين جمود المصريين فى عهد الاحتلال رغما عن ذكائهم ؛ ونشاط اليابانيين وتشوقهم لمعرفة كل جديد،وأن اليابانى كان يعمل ويتعلم ليقود أمته ويغلب الأوربى وينال السيادة ؛ بخلاف المصريين الذين كانوا موقنين أنهم يتعلمون ليكونوا آلات للحاكم وأن ميدان الشهرة والمكسب ضيق أمامهم(٤).

---

(١) مصطفى كامل : الشمس المشرقة ص ص ٣/٥ .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) مصطفى كامل : الشمس المشرقة ص ١١ .

(٤) المصدر نفسه ص ١٥ .

والكتاب يحوى خلاصة مفيدة لجغرافية اليابان وتاريخها، فهو يتحدث عن جزرها ومعادنها وثرواتها وبحارها كما يتعرض لأصل اليابانيين ومعتقداتهم وتاريخهم القديم حتى دخـــول المدنية الصينية وانتشار الديانتين البوذية والكونفوشيوسيه ومقدرة اليابانيين بعد أن تقبلوا حضارة الصين على التمييز بين ما يوافقهم ومالا يوافقهم منها ولذلك فاقوا الصينيين فيما أخذوه عنهم من الصناعات المختلفة والطرق الزراعية والفنون الجيلة(١)، ثم يعرض بعد ذالك إلى ضياع سلطة الميكادو ابتداءاً من القرن التاسع الميلادى حتى استرداده لتلك السلطة فى عام ١٨٦٨ على أثر ثورة الوطنيين ضد التدخل الأجنبى وطردهم المتصبين لسلطة الميكادو(٢) كما يبدى اعجابه بالميكادو ميتسوهيتو الذى لم يجلس على العرش لينتقم لعائلته من إهمال عشرة قرون ويستبد بالأمر وإنما ليقود شعبه إلى الرقى والحضارة(٣). كما يبدى اعجابه بالدستور اليابانى الذى صدر فى فبراير عام ١٨٨٩ على الرغم من أنه أبقى السلطة الواسعة والنفوذ الكبير للميكادو، فكما يعتقد أنه من العبث إعطاء أمة حديثة العهد بالنظامات الغربية كافة الحقوق المخولة للشعوب التى تدربت عليها(٤). كما يعنى فى كتابة بالتعريف بالأحزاب اليابانية إلى جانب تفصيلات عن القوانين التى وضعتها اليابان ملائمة للمدنية العصرية، وما تعنى به اليابان فى تربيتها لناشئتها من غرس المحبة الوطنية وتربية النفس فضلا عن اهتمامها بقواتها البحرية والعسكرية حتى لو كلفها ذلك أموالا طائلة(٥).

المصريون والانكليز (باريس ١٩٠٥) :

Egyptiens et Anglais

Discours choisis de Moustafa Kamel Paris 1905.

وفى خلال عام ١٩٠٥ رأى مصطفى كامل أن يعمل على جمع خطبه

---

(١) المصدر نفسه ص٣٦/٣٧ .

(٢) الشمس المشرقة ص‌ص ٥٤/٥٥ .

(٣) الشمس المشرقة ص٦٥ .

(٤) الشمس المشرقة ص ١٢٦ .

(٥) الشمس المشرقة ص ١٢٧ .

ورسائله عن المسألة المصرية التى وضعها منذ ثمان سنوات من كفاحه الوطنى وعلى جه التحديد فى الفترة ما بين ١٨٩٦ و ١٩٠٤ وطبعها فى باريس فى كتاب ظهر فى ديسمبر سنة ١٩٠٤ بعنوان المصريون والانكليز، ويقع هذا الكتاب فى ثلاثمائة وعشرين صفحة وكان الغرض من وضعه باللغة الفرنسية أن يجد رواجا فى كثير من الدول الأوربية وبالتالى يكون دعاية للقضية المصرية(١) وبالاضافة إلى ذلك كان مصطفى كامل حريصا على نشر بعض خطبه التى كانت تتضمن تمجيدا للأسرة الحاكمة رغبة منه فى استرضاء الخديو الذى كان قد ابتعد عنه فى أكتوبر ١٩٠٤ وقطع بالتالى علاقته بالسراى(٢). وذلك بعد أن تسنى له أن يرى عيوبه الخلقية تتكشف له مع مرور الزمن كشغفه بالمال وعدم الاستقرار وقلة الثبات حتى أنه صرح لبلنت بأن عباسا وأسرته لا ينفعون شيئا، وكان هذا هو التوتر الأول الذى وقع بينه وبين الخديو ثم جرت مصالحة بينهما حتى وقع التباعد النهائى عندما وضع جورست سياسته الخاصة بالوفاق موضع التنفيذ وكان هذا مما حمل مصطفى كامل فى السنوات الأخيرة من حياته على المطالبة بحكم دستورى نيابى(٣).

وفى أثناء فترة التباعد الأولى بينه وبين الخديو كان يعتقد أن ذلك التباعد من شأنه أن يجعل له مركزا خاصا وسلطانا كبيرا(٤) ولكنه سرعان ما أدرك أن مقاطعته للخديو علمته أمورا كثيرة غيرت حكمه على الرجال فقد رأى الكثيرون ممن كانوا حوله ما كانوا يميلون إلا إلى جاهه فأخذوا

---

(١) عبد الرحمن الرافعى : مصطفى كامل ص ١٨٥ .

(٢) رسائل مصرية فرنسية ، مصطفى كامل إلى جوليت آدم ٢٨ أكتوبر سنة ١٩٠٤ .

(٣) حورانى : الفكر العربى فى عصر النهضة ص ٢٥٠ .

(٤) رسائل مصرية فرنسية : مصطفى كامل إلى جوليت آدم ١٨ نوفمبر ١٩٠٤ .

يهجرونه(١) ولذلك كان حريصا على أن يعود للتقارب مع الخديو فلم يجد إلا أن يهدى إليه مجموعة أعماله فهو يكتب إلى جوليت آدم يطلب منها أن تقدم له كتاب المصريون والانكليز ويأمل أن تبعث برسالة إلى الخديو تطيل فيها الشرح إذ كل منهما كما يقول متمسك بكرامته، ويرى أن يقدم للخديو كتابه بمناسبة عيد جلوسه فى يناير ١٩٠٦، ويرى أنها هى التى تستطيع القيام بهذا الأمر فهى تعلم أن الكتاب حافل بدفاعه المتواصل عن الخديو وعرشه وملكه، كما أنه حافل بتمجيد مؤسس الأسرة الحاكمه(٢). وقد صدر الكتاب بتقديم جوليت آدم وجاء فى تقديمها أن مصطفى كامل يجاهد بكل الصور والأشكال ضد اليأس والقنوط وعدم الاكتراث بشئون البلاد وقلة الوطنية ، تلك الآفات الثلاث التى تهدد مصر كما تهدد فرنسا نفسها ؛ والتى هى أشد خطرا على الأمم من المغيرين ، كما أشارت فى مقدمتها إلى معرفتها بمصطفى كامل وجهاده ونضاله ضد الانجليز (٣) .

وكان لهذا الكتاب صدى كبير فى كثير من المجلات والصحف الفرنسية فقد ذكرت جريدة الجورنال دى كير إن القارىء عندما يطالع هذه الخطب لا يقرأها بل يسمعها لأنها بالغة الغاية فى حيويتها ، على أنه رغما من هذه الحرارة فقد استطاع أن يحافظ على الإعتدال ويقف عند الحد الواجب، قد يختلف البعض معه فى أفكاره ويحكمون على هذه المسألة أو تلك حكما مخالفاً لحكمه ؛ ولكن إذا كان الرجل وطنيا فلا جدال فى أن القوم فى أوربا يطأطئون له الرؤوس إحتراما ولو كانوا خصوما له أو أعداء(٤) .

---

(١) مصطفى كامل إلى جوليت آدم ٣ فبراير ١٩٠٥ .

(٢) رسائل مصرية فرنسية ، مصطفى كامل إلى مدام جوليت ، ١ يناير ١٩٠٦ .

(٣) Egyptiens et Anglais discours choisis de Mustafa Kamel pp. 8 - 11.

(٤) عبد الرحمن الرافعى : مصطفى كامل ص ٢٨٦ .

ويتناول كتاب «المصريون والإنكليز» خطبه فى فرنسا ومصر إلى جانب الرسالتين الشهيرتين المتبادلتين بينه وبين المستر جلادستون فى يناير وسبتمبر عام ١٨٩٦(١) وتشتمل خطبه على عدة موضوعات أهمها حملته على قرار إنجلترا إعادة غزو السودان فى عام ١٨٩٦، ودعوته لمساندة حملة التبرعات التى قامت فى مصر فى عام ١٨٩٦، لمساعدة الجيش العثمانى بمناسبة الحرب اليونانية التركية إلى جانب الخطبة التى ألقاها فى مسرح زيزينيا بالأسكندرية بمناسبة العيد المئينى الهجرى لاختيار الشعب المصرى محمد على واليا عليهم فى ٢١ مايو ١٩٠٢ (١٣ صفر ١٣٢٠ هـ) بالإضافة إلى خطبة أخرى ألقاها بالأسكندرية فى ٨ يونية ١٩٠٤ بمناسبة توقيع الاتفاق الإنجليزى الفرنسى وما ترتب عليه من موقف جديد وضعه الاحتلال بإزاحة السياسة الفرنسية(٢).

وتعتبر خطبته التى ألقاها بمناسبة العيد المئينى لذكرى تولية محمد على على غاية كبيرة من الأهمية (٣) وقد طبعت فى كراسة مستقلة بعنوان «عمل محمد على وواجبات المصريين نحو وطنهم» (٤) ونلاحظ فى خطبته هذه اعتقاده أن الأسرة الحاكمة هى التى خلقت مصر الحديثة، فهو يثنى على محمد على تحقيقه الاستقلال وتنظيمه الحكم وفتحه باب التوظف لجميع المصريين وتحاشى الديون وجعله مصر عاصمة للشرق إلى جانب نهضته الصناعية والزراعية والتعليمية والعسكرية، وأنه أخرج من الفلاحين الذين طالما تصرفت فيهم

---

(١) انظر نص الرسالتين المتبادلتين بين مصطفى كامل والمستر جلادستون فى :
Egyptiens et Anglais p. 101 ff.

(٢) Egyptiens et Anglais p. 139

(٣) انظر النص الفرنسى لهذه الخطبة فى :
Egyptiens et Anglais p. 249 ff.

(٤) مصطفى كامل — عمل محمد على وواجبات المصريين نحو وطنهم، ألقيت بمسرح زيزينيا يوم ١٣ صفر ١٣٢٠ بمناسبة تذكار العيد المئينى لتولية محمد على، طبعت بمطبعة اللواء ١٣٢٠ هـ

الكوارث أبطالا وشجعانا عجزت جيوش العالم عن مجاراتهم(١). ولكننا نلاحظ أنه على الرغم من تمجيده لمؤسس الأسرة الحاكمة إلا أنه كان لا يكف عن التأكيد بأن محمد على فى كل أعماله لم يكن سوى تعبير عن إرادة الأمة التى رفعته إلى الحكم باختيار الشعب ويركز على اختيار المصريين محمد على للولاية عليهم ويعتبر هذا الاختيار رابطة أكيدة ووثيقة بين الأمة والأسرة الحاكمة لا انفصام لها(٢). ثم يتطرق بعد ذلك إلى سياسة الاحتلال وما تبعها من انتقال الوظائف من أيدى المصريين وما دأبت عليه السياسة البريطانية من محو الروح الوطنية وإخراج العديد من الضباط المصريين من الجيش؛ والعمل على تغلغل المستشارين الانجليز الذين أصبحوا يحركون الحكومة كما شاءوا حتى أصبحت مصر فى آخر مصاف الأمم وامتازت عنها شعوب صغيرة لم تكن فى الحسبان كشعوب الصرب والبلغار، مؤكدا على ضرورة الاعتماد على الاسلام وقواعده إلى جانب الأخذ من المدنية الغربية فوائدها ومنافعها(٣).

مصطفى كامل والانكليز ١٩٠٦ :

وكان عام ١٩٠٦ عاما حافلا بكفاح مصطفى كامل الوطنى قضى صيفه فى إنجلترا وفى غيرها حيث ألقى العديد من الخطب وكتب كثيراً من المقالات الأمر الذى رفع جريدة اللواء إلى جمع مقالاته وخطبه فى ذلك العام فى كتاب بعنوان مصطفى كامل والانكليز أو (دفاع المصرى عن بلاده)، وكان ذلك نتيجة ما طلبه الكثيرون من جمع أعماله فى كتاب يكون وديعة فى المكاتب لمن يأتى بعده(٤). وقد وضع محمد بك فريد مقدمة ذلك الكتاب

---

(١) عمل محمد على وواجبات المصريين نحو وطنهم ص ١٢ .

(٢) المصدر السابق ص ١٦ ، انظر أيضاً ألبرت حورانى : الفكر العربى فى عصر النهضة ، ص ص ٢٠٥/٢٦ .

(٣) عمل محمد على وواجبات المصريين نحو وطنهم ص ٢١ .

(٤) لعل اول من فكر فى جمع أعمال مصطفى كامل هو محمد بك مسعود صاحب جريدة منيس الذى أصدر فى عام ١٨٩٦ كتاباً بعنوان مصر والاحتلال الانكليزى .

الذى يحتوى على عدة مقالات بعث بها إلى جريدة التيمز ومنها احتجاجه على وجود المحكمة الخصوصية التى كانت قد أنشئت فى مصر عام ١٨٩٥ والمكلفة بمحاكمة المصريين إذا وقع خلاف بينهم وبين ضباط أو جنود الاحتلال(١) كما نجد فى ذلك الكتاب أيضا نص مقالة نشرت فى الفيجارو فى الذكرى الرابعة والعشرين لضرب الإسكندرية فى ١١ يولية ١٩٠٦ بعنوان إلى الأمة الانكليزية والعالم المتمدين عرض فيها الحادثة دنشواى على الضمير الانسانى بطريقة منطقية هادئة فكانت أقوى وأبلغ ما كتبه مصطفى كامل ، ولعل أهم ما أبرزه فيها أن هذه الحادثة قضت على مزاعم اللورد كرومر فيما كان يدعيه من أن الفلاحين محبون للاحتلال ، كما اعترض فى هذه الرسالة على ما ذكره اللورد جراى فى مجلس العموم البريطانى عن التعصب الإسلامى فى مصر مؤكداً أن الإسلام شىء والتعصب شىء آخر فلو كان فى مصر تعصب لم يكن فى وسع انجلترا محاكمة إثنى وخمسين مسلما أمام محكمة استثنائية مؤلفة من أربعة قضاة مسيحيين وواحد مسلم(٢)، وأنه لا يمكن أن تكون مصر متعصبة دينيا بعد انقضاء قرن كامـــل على دخولها فى ميدان المدنية ؛ فضلا عن أن مبادىء الإسلام لاتتمشى مع التعصب (٣) . كما دحض فى مقالة أخرى ظهرت فى الطان فى ٨ سبتمبر ١٩٠٦ بعنوان وطنية وجامعة إسلامية الفكرة القائلة

---

(١) دفاع المصرى عن بلاده — مصطفى كامل باشا والانكليز • مجموعة تشتمل على مقالات وخطب صاحب اللواء فى لوندره وغيرها فى صيف عام ١٣٢٤ هـ ١٩٠٦ م ، طبعت بمطبعة اللواء ص ٠٧ •

(٢) عبد الرحمن الرافعى : مصطفى كامل ص ٢٠٤/٢٠٥ و ٢١٢/٢١٣ .

(٣) محمد ناصف ومحمد صالح زهير : كتاب النبذة التاريخية ، لفقيد الإسلام والوطنية ص ٢٨ •

وقد ضمت اراء مصطفى كامل هذه فى مقالة له ظهرت فى جريدة التريبون فى ٢٥/٧/١٩٠٦ كانت رداً على ما ذكره السير إدوارد جرى فى مجلس العموم عن وجود تعصب دينى فى مصر •

بأن الشعوب الإسلامية يمكنها أن تؤلف عصبة ضد أوربا وإلا لما أمكن للسلطان العثمانى أن يصادق إمبراطور من أشد الملوك تمسكا بالمسيحية وقرر أن الغرض من الجامعة الإسلامية هو التعاون والمحبة والعمل على نهضة الشعوب الإسلامية بالتربية والتعليم وليست بتأليف عصبة ضد المسيحيين، على أنه أكد فى هذه المقالة أن التجاء الوطنيين إلى طلب مساعدة خارجية لايعنى استبدال النير البريطانى بنير آخر فاننا نريد أن تكون مصر للمصريين فنحن لسنا ألمانيين ولا فرنساويين ولا روسيين ولاانجليز ... إننا مصريون قبل كل شيء (١) .

مراسلات مصطفى كامل :

وأخيرا نصل إلى مراسلات مصطفى كامل التى عنى بعض الدارسين بتجميعها ومع ذلك فالثابت أنه لازالت هناك مراسلات كثيرة تحتاج لتسليط الأضواء عليها، ولعل مراسلاته مع مدام جوليت آدم قد استحوزت على جانب كبير من الاهتمام، وقد نشرت هذه الرسائل بعد عام من وفاته بتقديم من جوليت آدم ذكرت فيه أنها انتقت مجموعة من مراسلاته خلال الفترة من ١٨٩٥ حتى وفاته فى عام ١٩٠٨ ، وقد قام شقيقه على فهمى كامل بترجمتها إلى العربية والإنجليزية وصدرت عن مدرسة مصطفى كامل فى عام ١٩٠٩(٢) ، وهى تبلغ ثلاثة وثمانين رسالة أرسلها للسيدة جوليت آدم من القاهرة

---

(١) مصطفى كامل باشا والإنكليز ص ٦٧ وما بعدها .

(٢) رسائل مصرية فرنسية ، وهى الخطابات الخصوصية التى أرسلها مصطفى كامل باشا فى حياته إلى مدام جوليت آدم الكاتبة الفرنسية الشهيرة — ترجمة على فهمى كامل — مدرسة مصطفى كامل ١٩٠٩ .

cf. Mustafa Kamel Lettres Egyptianı es Francaices addresses a mme Juliet Adam 1895—1908.

English and Arabic Translation "Eg̡ ptian Frensh Letters 1909.

والآستانة ولندن وباريس وجنيف وتريستا وغيرها، ويمكن من قراءة هذه الرسائل التعرف على اتجاهاته السياسية فالملاحظ أنه كان يطلع مدام جوليت آدم أولا بأول على كفاحه الوطنى، كما يمكن التعرف أيضاً من هذه الرسائل على انتقاداته المستمرة للسياسة الفرنسية حتى قبل توقيع الاتفاق الودى بين فرنسا وانجلترا فهو يأخذ على فرنسا تخاذلها عن وادى النيل طالما فى نفسها القدرة على العمل فى أوربا فى حين أن فى استطاعتها مؤازرة الخديو الذى يمكنه فى هذه الحالة أن يقلب كل ما يقوم به الإنجليز فى مصر، وأن فى استطاعة فرنسا أن تزاحم انجلترا فى مجال التعليم ، ومن المؤكد أن المصريين كانوا يهجرون مدارس الحكومة الإنجليزية الضيقة ليؤموا المدارس الفرنسية ، كما فى استطاعة فرنسا أيضاً أن تمنح الوطنيين المصريين حمايتها ليتسنى لهم محاربة الإنجليز وهم آمنون على أنفسهم[1] . كما أنه ينتقد موقف فرنسا فى فاشودة مؤكداً أن سياسة الحكومة الفرنسية لم تعمل عملا واحداً يجعله آملا فيها[2].
ثم يشتد هجومه على فرنسا بعد توقيع الاتفاق الودى فيؤكد لمدام جوليت أنه لم يعد هناك رابطة بعد الآن تربط بين مصر وفرنسا ،وأن الوطنيين أصبحوا يكرهون فرنسا أكثر من انجلترا نفسها،وأن موقفه صار من أصعب المواقف وأخطرها ، فإن جميع أصدقائى المصريين والفرنسيين الذين كانوا يناضلون بجانبى أصبحوا إما يائسين أو أصدقاء للانجليز»[3] . كما ينتقد فى رسائله إلى مدام جوليت سياسة بريطانية فى السودان ويبدى استياءه لافتتاح كلية غردون باعتبارها تضع حجراً سياسياً ليحول بين مصر والسودان

---

(١) من مصطفى كامل الى مدام جوليت آدم ، فينا ١٨٩٧/٣/٢٠ ، رسائل مصرية فرنسية ص ص ٣٦/٣٧ .

(٢) مصطفى كامل الى جوليت آدم ، بودابست ١٩٠٠/٦/٢٨ .

(٣) مصطفى كامل الى جوليت آدم ، سان ستيفانو — الاسكندرية ١٠ مايو ١٩٠٤ رسائل مصرية فرنسية ص ص ١٣٦/١٣٧ .

كما حال بينهما جسدا إذ يعجب علم الأساتذة الإنجليز فتيان السودان كيف يكرهوننا(١)، كما ينتقد خزان أسوان انتقادا عاطفياً باعتباره سورا يفصل بين مصر والسودان؛ إذ أنهما فى الحقيقة ليسا إلا بلدا واحدا هو وادى النيل ولو أقام الإنجليز فى مقتبل الأيام خزانات فى السودان فإن مصر تصبح تحت رحمتهم(٢). كما تحتوى هذه المراسلات على آراء مصطفى كامل فى بعض المشكلات المتعلقة بانتقاده السياسة الأوربية فى الصين، وانقسام القوى الأوربية أمام انجلترا فى حرب البوير(٣)، وانتصارها على طلب الإصلاحات للمسيحيين فى البلقان(٤) .

ويمكننا أن نضيف إلى مراسلاته مع مدام جوليت مراسلات أخرى نشرت فى السنوات الأخيرة منها رسائله إلى عبد الرحيم أحمد بك وكيل الإدارة العربية بالمعية السنية والذى كان يقوم بدور الوساطة بينه وبين الخديو، وتشتمل على عدة مراسلات كان قد بعث بها مصطفى كامل إليه أثناء وجوده فى خارج مصر خلال الفترة من ٨ يونية ١٨٩٥ إلى ١٩ فبراير ١٨٩٦ وتحتوى على إحدى عشر رسالة بالإضافة إلى تقريرين بعث بهما عن نشاطه فى الدعاية للقضية المصرية وقد قام الدكتور محمد أنيس بنشرها فى عام ١٩٦٢ بعنوان «صفحات مطوية من تاريخ الزعيم مصطفى كامل» وذكر الدكتور محمد أنيس فى تقديمه أنه عثر على هذه الرسائل فى دار الوثائق المصرية بعد أن اشترتها

---

(١) مصطفى كامل الى مدام جوليت آدم ، القاهرة ٢١ نوفمبر ١٩٠٢ .

(٢) مصطفى كامل الى جوليت آدم ، القاهرة ٢٥ ديسمبر ١٩٠٢ .

(٣) مصطفى كامل الى جوليت آدم ، بودابست ٢٨ يونيه ١٩٠٠ .
رسائل مصرية فرنسية ص ٩٤ .

(٤) مصطفى كامل الى جوليت آدم ، ١٣ أبريل ١٩٠٣ .
رسائل مصرية فرنسية ص ١٠١ .

دار الوثائق من ورثة عبد الرحيم بك أحمد فى عام ١٩٦١(١). وكان مصطفى كامل يرسل هذه الخطابات من أوربا وأكثرها من باريس ويحتوى التقرير الأول المؤرخ فى ١٩ سبتمبر ١٨٩٥ على نشاطه فى أوربا وتقاربه الواضح من ألمانيا واستخدامه الجرائد الأوربية فى الدعاية للقضية الوطنية، أما التقرير الثانى فهو مؤرخ فى ١٦ يناير ١٨٩٦ ويعرض فيه مصطفى كامل للأسباب التى أخرت عودته إلى مصر ويعزوها إلى أن استدعاء الخديو له كان بناء على تهديد الإنجليز له ولذلك رأى من الحكمة أن يؤخر عودته صيانة لكرامة الخديو .

وتكشف هذه الرسائل عموماً عن دراية مصطفى كامل الواعية بطبيعة السياسة الفرنسية ولكنه كان يأمل أن تكسب مصر شيئاً من التنافس الإنجليزى الفرنسى كما توضح هذه المراسلات أيضاً أنه لم يقصر نشاطه على فرنسا بل كان حريصا على أن يجعله شاملا كل أوربا(٢) . وإذا كان هناك ما يشير فى هذه الرسائل على أن الخديوية هى التى كانت تمول رحلات مصطفى كامل للدعاية للقضية المصرية فى عام ١٨٩٥ فإنه يتبين لنا من مراسلات أخرى بعث بها مصطفى كامل إلى بعض أصدقائه شدة تقتير الخديو عليه إلى الحد الذى جعله يستنجد بالوطنيين مطالباً إياهم بدعمهم المادى له . ونحن نشير فى ذلك الصدد إلى مراسلاته مع فؤاد سليم الحجازى التى نشرت فى السنوات الأخيرة وقدم لها الأستاذ عبد العزيز حافظ دنيا، وصدرت فى القاهرة عام ١٩٦٩، وتحتوى على عدة رسائل بعث بها مصطفى كامل من فرنسا فى عام ١٨٩٥ كتبت بعض

---

(١) الدكتور محمد أنيس : صفحات مطوية ، من تاريخ الزعيم مصطفى كامل ، من ٨ يونيه ١٨٩٥ الى ١٩ فبراير ١٨٩٦ ، القاهرة ١٩٦٢ .

(٢) محمد أنيس - صفحات مطوية من تاريخ الزعيم مصطفى كامل ، انظر المقدمة ص ص ١٦/١٧ .

فقرأتها رموز سرية كان يتراسل بها مع فؤاد سليم الحجازى حتى لا يفطن الإنجليز إلى مافيها، وكان فؤاد سليم واحدا من أعوان مصطفى كامل كما كان زميلا له فى مدرسة الحقوق الخديوية، وقد لازمه فى دعوته وأسهم معه فى إنشاء الحزب الوطنى(١). وتؤكد هذه المراسلات ما أشرنا إليه من تقتير الخديو فى انفاقه على القضية المصرية فنجده فى إحدى هذه الرسائل يبدى استياءه من أن الخديو لم يرسل له من المال حتى ما يكفى لتسديد قيمة الفندق الذى يعيش فيه، ويطلب منه أن يتعاون مع بقية زملائه الوطنيين على أن يرسلوا له سنوياً أربعمائة جنيه فإن هذه النقود، على حد تعبيره، سيكون لها قيمة كبيرة عنده أكبر من نقود الخديو وأنه قرر ألا يعود إلى مصر إلا إذ يئس تماما من معاونة الوطنيين له(٢).

وأخيرا فقد يكون من الضرورى أن نشير فى ختام هذه الدراسة إلى أن ماعرضناه من مؤلفات ومقالات ومراسلات مصطفى كامل هى كل ما أمكننا العثور عليه - فى نطاق هذا البحث - إذ من المؤكد أن هناك آثارا أخرى لمصطفى كامل تحتاج إلى تسليط الأضواء عليها. كما أنه قد يكون من واجبنا الدعوة إلى حصر أعماله ومؤلفاته وإخراجها فى طبعات حديثة خاصة بعد ما لمسناه بأنفسنا أن معظم هذه المؤلفات أصبحت فى حالة بالية حفاظاً عليها قبل أن تمسسها يد الزمان، وتكريماً لرائد الحركة الوطنية فى تاريخنا الحديث.

---

(١) رسائل تاريخية من مصطفى كامل الى فؤاد سليم الحجازى، قدم لها عبد العزيز حافظ دنيا، القاهرة ١٩٧٩، أنظر المقدمة.

(٢) انظر رسالة من مصطفى كامل الى فؤاد سليم الحجازى، باريس ١٦ أكتوبر ١٨٩٥ص ٥٨.

مصادر البحث

* أحمد عبد الرحيم مصطفى
  تطور الفكر السياسي فى مصر الحديثة
  معهد البحوث والدراسات العربية - القاهرة ١٩٧٣
* إدمون ديمولان
  ترجمة أحمد فتحي زغلول
  سر تقدم الانجلو سكسونيين — القاهرة ١٨٩٩
* ألبرت حوراني
  الفكر العربي فى عصر النهضة ١٧٩٨ - ١٩٣٩
  ترجمة كريم عزقول — بيروت ١٩٦٨
* جمال الدين الشيال
  التاريخ والمؤرخون فى مصر فى القرن التاسع عشر
  المكتبة التاريخية - القاهرة
* صبحي وحيده
  فى أصول المسألة المصرية — القاهرة
* عبد الرحمن الرافعي
  مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية — القاهرة
* عبد العزيز حافظ دنيا
  رسائل تاريخية من مصطفى كامل إلى فؤاد سليم الحجازي
  القاهرة ١٩٦٩
* علي فهمي كامل
  مصطفى كامل فى ٣٤ ربيعاً
  سيرته وأعماله من خطب ورسائل سياسية وعمرانية
  ٩ أجزاء — ثلاثة مجلدات — القاهرة ١٩٠٩

* محمد أنيس

صفحات مطوية من تاريخ الزعيم مصطفى كامل

رسائل جديدة لمصطفى كامل من ٨ يونية ١٨٩٥

١٩ فبراير ١٨٩٦ القاهرة ١٩٦٢

* محمد بك مسعود

مصر والاحتلال الانكليزى

مجموعة أعمال مصطفى كامل ١٨٩٥ – ١٨٩٦

* محمد ناصف ، محمد صالح زهير

كتاب النبذة التاريخية لفقيد الإسلام والوطنية مصطفى كامل باشا

المطبعة العمومية ١٩٠٨

* مصطفى كامل

الجواهر السنية فى نظام الهيئة الاجتماعية،فى أعدادمتفرقة من جريدة

المدرسة ١٩٩٣

– أعجب ما كان فى الرق عند الرومان القاهرة ١٨٩٣

– فتح الأندلس القاهرة ١٨٩٤

– رسالة أخطار الاحتلال الانكليزى ١٨٩٤

– المسألة الشرقية جزءان القاهرة ١٨٩٨

– الشمس المشرقة القاهرة ١٩٠٤

– صور الجنود العثمانية ، وهو ملحق لكتاب تاريخ الحرب

بين الدولة العلية واليونان

تأليف مصطفى كامل باشا

Egyptiens et Anglais

Discours choisis de Mustafa Kamel Paris, 1905,

* مصطفى كامل والانكليز

دفاع المصرى عن بلاده

مجموعة تشتمل على مقالات وخطب صاحب اللواء فى لوندرة وغيرها فى صيف عام ١٣٢٤ (١٩٠٦ م)

مطبعة اللواء ١٩٠٦

* رسائل مصرية فرنسية

وهى الخطابات الخصوصية التى أرسلها مصطفى كامل باشا فى حياته إلى مدام جوليت آدم الكاتبة الفرنسية الشهيرة ترجمة على فهمى كامل

مدرسة مصطفى كامل ١٩٠٩

انظر :

Lettres Egyptiennes Francaices addresses a mme Juliet Adam 1895—1908.

English and Arabic Trs, E yptian Frensh letter, 1909.

— عمل محمد على وواجبات المصريين نحو وطنهم .

* الدوريات

- العالم الإسلامى .
- اللواء .
- المدرسة .
- المؤيد .

مطبعة الجبلاوى
٢٠٢ شارع الترعة البولاقية

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٧٦/٢٥٠١